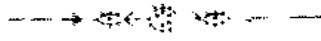


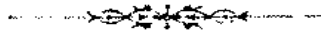
# فحاضراتها لمجمع العلمي العربي بدمشق



الجزء الاول



وفيه قسم من المحاضرات التي القيت في ردهه المجمع العلمي  
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ م  
( الموافقة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ )



طبع على نفقة المجمع العلمي العربي  
وحقوق اعادة طبعا وترجمتها محفوظة له

---

المطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و ( ١٩٢٥ ) م

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اما بعد فان مجعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكرى حفلات اسبوعية للمحاضرات اشهدا جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلتقى على السيدات وجعل لها موافقت معلومه . ولم يخص المجمع اعضاءه بالقاء هذه المحاضرات بل كان يدعو احيانا كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عاينها ممن عرف بالاخصاء في القنون المختلفة ان بنفضوا بمحاضرات يلقونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة . وكما كان المجمع يجهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور يزداد اقبالا عليها . واعجابا بفائدتها . حتى تمنوا لو تسر في المحله او في كتاب على حدة وما كان يتسر للجمع نشرها في المحله لكنرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها . ولم يكن استحسن نشرها على حدة لان طبعها كلها يقتضي نفقات طائفة . ولان معظم هذه المحاضرات لم تكن اثرأ من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء ابناء الوطن . على ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعى فيها حالة الجمهور المستمع وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات - وحالها ما وصفنا - لا يمكن طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذيوله .

غير ان المجمع اخيراً لما لم ير عذراً لهذا مقبولاً لدى الفضلاء الذين كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتب بطبع ما وصل اليه من نسخ المحاضرات الحديرة بالنسر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول منها وفيه سبع عشرة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ هـ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

المجمع العلمي  
العربي





## معلقة طرفة بن العبد<sup>(١)</sup>

أيها السادة !

كُلِّمْتُ ان اتكلم على مئة بيت شعر ونيّف من كلام عرب الجاهلية . وضربت لي مدة للكلام لا أراها تكفي لذلك لان الايات تحتاج الى شرح و تفسير معنى . ومن دون ذلك لا يكون للمحاضرة معنى . مئة البيت هذه هي التي تسمى ( معلقة طرفة بن العبد ) .

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع . والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية . وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي . والشعر العربي فن من فنون الآداب العربية . فاذا حاولنا ان نلم بهذه المقدمات نفد الوقت قبل الوصول الى ( معلقة طرفة ) . فالاجدر بنا اذن ان نعمد الى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضرتنا ونهجم عليها توّاً من دون تعريج على شيء آخر سواها :

( لما ذا سميت المعلقات معلقات ؟ )

غير ان هناك أمراً أحببت التعرض له وهو لما ذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور انها سميت بذلك لانها كانت معلقة على جدران الكعبة او مرقومة على ستارها وانكر قوم ذلك . ومنهم ( ابو جعفر النحاس النحوي ) من رجال القرن الرابع للهجرة . فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية اذا أعجبته قصيدة قال لهم علقوا لنا هذه . يعني اكتبوها لتبقى محفوظة في خزائنه مع الاعلاق النفيسة . وربما أيد هذا القول ان قربتاً كانوا قوماً حمساً اي شديد الحماسة والتعصب لديانتهم . وناهيك بمنزلة الكعبة وقد استها في نفوسهم . فبعد ان يسمحوا بتعليق شعر فيه تصريح بالتحش والعهر احياناً — على كعبتهم المقدسة .

(١) اول محاضرة ألقيت في قاعة مجعنا العلمي لاحد اعضائه «المغربي» وذلك

مساء الاحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتاب السيرة النبوية ذكروا أن النبي ( صلعم ) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الاصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى أنهم كانوا يحملون الماء بتروسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالاصباغ . ولم يذكروا أن المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران .

### ( الأسباب التي 'نظمت' معلقة طرفة من أجلها )

ايست محاضرنا في ( طرفة ) نفسه لنسهب في ترجمته . وانما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان ( طرفة ) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان بيته في الذروة والسنام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث ان يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليساً . وكان ملك العرب اذ ذاك عمرو بن هند . وعاصمته ( الحيرة ) . فاتصل به طرفة وناداه . ثم تقم منه الملك بعد ذلك اشيا . وحقده عليه من أحبابها : قالوا : رآه يوماً يمشي بين يديه وهو يتخلج في ممشيته اي يتأيل ويتجنر غير حاسب للملك حساباً .

وكانا مرة يشربان فرأى طرفة في الحمام ( اي الكأس ) الذي بيده خيال اخت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فاشد طرفة :

( يا أبأي الظبي الذي ترق شفتاه ولولا الملك الحلاس ألتني فاه )

ويروي ( سنفاه ) مكان ( شفتاه ) فسمع الملك قوله فسكت على غيظ . وبدرت من الملك بوادر منكورة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم البؤس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقده فيها — وكان حريئاً على النقد — منها قول :

( فليت لنا مكان الملك عمرو رعونا حول قبتنا تدور )

( لعمرك ان قابوس بن هند ليحلمط ملكه نوك كبير )

و ( الرغوث ) الناقة او النعجة الحلوب . و ( النوك ) الحمقى . فصمم الملك على قتله

فخذه بعض رجاله عاقبة الامر . وخوفه عشيرة طرفة وخاله التمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجاء أسقطه في القبائل .

فرأى الملك ان يتخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكعب نامله بالبحرين يأمره بقتلها وأومهما انه يأمر لها بصلة وجائزة . ثم فطن التمس للامر فزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مزق كتابك انت ايضاً وانج معي . فحملت طرفة غرارة التباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجترأ عليك فما كان ليجتري عليّ » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جلية الامر . وفسح له مجال الهرب . فلم يفعل أنفة واستكباراً . واتار على شيان عبد القيس — وهي قبيلة بالبحرين — ان يسقوه الحمر وان يفسدوا أكلكه وهو تملى . والاحل عرق في القدم . ففعلوا فمات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له ( ان العشرين ) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول — اخته في رثائه :

( عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً )

( فوجعنا به لما رجونا إياه على خير حالٍ : لا وليداً ولا قحماً )

و القهم المناهي في السن .

وفي معلقة طرفة ابيات اتار بها الى حادثة تسرب الحمر في البحرين مع فتيات عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان اطرفة أخ اسمه معبد وكان لمعبد ابل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا يخفى ما يكون في بعض ابناء الاعمام احياناً من الصلف والجفاء اذا رأوا ان عم لم يدانهم ويتحجب اليهم من اجل قضاء أمر ما . فانهبره ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جثتم ننعبونني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعريته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها ابياته في معاتبته ابن عمه مالك كما سيجيء .

والتحقيق ان كل ابيات معلقة طرفة لم تُنقل في سبب واحد . ولا في زمن واحد  
ومثلها المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم  
فيه ابيانا . ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية . حتى اذا  
كثرت الابهات ضم بعضها الى بعض . او فعل هذا بعض رواة شعره . وبهذه  
الصورة تألفت المعلقة وتبرز الى الوجود . ومن قلب نظره في المعلقات وسياقاتها  
وجد الامر كما قلنا .

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان (طرفة) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات :  
اي انه بعد امرئ القيس وزهير والنابغة . لكن ( عمرو بن العلاء ) — وهو اكبر علماء  
اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرهم واحدة . يعني اشعرهم معلقة . بل ذهب ان  
مقبل الى ابعد من هذا فقال : ( ان طرفة اشعر الناس ) .

اما مذهب (طرفة) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومزلاته في  
ذلك بين رفاقه اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من اعمال مقارنة اجمالية بين معلقته  
ومعلقة امرئ القيس . وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات .

### ( مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامرئ القيس )

معلقة طرفة مئة وتلاتة ابيات . ومطامها :

( حلولة اطلال بيرة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهرا اليد )  
هلموا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته ( خولة ) ثم سير معه  
فنطوف حيث طاف . وسمع منه ما أتى على ذكره من الاحوال والاصواف :  
ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة ببنتين من الشعر .  
ثم نسمعه يصف نياق الطعائن فيتبهبها بالسفن بثلاثة ابيات .  
ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات .  
ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بتلاتين بيتا .  
ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات .  
ثم نفسه بتساط العزيمة وكفاية المم — بستة ابيات .

ثم عاد الى ناقته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات .  
ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجدة والمزل — بثلاثة ابيات ايضاً .

ثم وصف مجلس لهوه مع قينته وندمائه — باربعة ابيات .  
ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسرات . ودم الجمل والبخلاء الذين يضمنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل . وردت على الذين يلومونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً .

ثم عاتب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — باربعة عشر بيتاً .  
ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل اللهو وما نصحه ابوه به — باحد عشر بيتاً .

ثم انتهى الى نهاية كل حي وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه . وعلم ابنة اخيه (معبد) كيف ثنديه . وتبكي عليه . وترثيه بما هو جدير به من القول : لا بما ترثي به ائام الناس وذوي الجمل والتع منهم — بتسعة ابيات .

ثم ختم معلقته بايات حكيمة بليغة سارت مسير الامثال .  
ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :

(١) وصف نفسه واطواره — باربعة وثلاثين بيتاً .

(٢) أخلاقه خاصة . وآداب عامة . بثلاثة وثلاثين بيتاً .

(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً .

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعاقة امرئ القيس : فان امرأ القيس لم يصرب بسهم في وصف الاخلاق و تقرير الحكم والآداب كما فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالافادة التي نشعر بها في معلقة طرفة .

انقف مع امرئ القيس اسقط اللوى بين الدخول فحومل . ثم نظوف مطافه .  
ونسلمع او صافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بسبعة وثلاثين بيتاً .

(٢) وفي وصف فرسه - بثمانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار - بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي أتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعة وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع أبيات معلقته فبقي أربعة عشر بيتاً : وصف نفسه ببيت . والاطلال بستة . والليل بأربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفة الذي أسمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من أكبر مزايا معلقته ما عمنته من هذه الحكم والامثال .

فنائدنا الادبية والاجتماعية من معلقة ( طرفة ) اعظم وأجزل منها حيث معلقة امرئ القيس . اللهم الا ان يدعي مدع بأفضالية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر يتحقق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عليكم من معلقة طرفة مفصلة ومتمايزة بعنوانين خاصة بها .

( توارد المعلقة اي موافقتها لغيرها )

توارد طرفة مع امرئ القيس في قوله :

( وقولاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانتهاك أئى وتجاد )

وقال امرؤ القيس :

( وقولاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانتهاك أئى وتجاد )

فهل هذا من قبيل توارد الخواطر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقة . وبعبارة أنه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟

ووفاة طرفة كانت سنة ٥٥٠ للميلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسية سنة ٥٧٠

وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

( أرق بيت في معلقة طرفة )

( ووجه كأن الشمس أقترداءها عليه . نقي اللون . لم يتخذ )

اي لم يتشقق وانحف ويلتصق لحمه بعظامه . بل هو بض ممتلي سمنًا .

( تشبيهاتها البديعة )

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف النياق والظعان :

( كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غَدُوةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ )

يريد بالحدوج النياق وما عليها من الهوادج . وبالخلايا السفن العظام . وبالنواصف

الاماكن الرحبة او الاباطح . و « دد » مكان .

وقوله في وصف السفائن :

( يَتَّقُ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمَفَايِلُ بِالْيَدِ )

« حباب الماء » سطحه او فقاقيعه . و « حيزوم السفينة » صدرها وجوؤها .

و « المفائل » اسم فاعل من « الفيال » ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب

التراب ويدفن فيه شيئاً كخاتم متلاً . ثم يقسمه باليد نصفين . ويسأل الآخر عن الدفين

في ايهما ! فمن أصاب قمر . ومن اخطأ قمر . فالفيال على هذا مشتق من مادة

( الفأل ) .

وقوله في صفة عيني الناقة :

( وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَهْفِي حِجَابِي صَخْرَةَ قَلَّتِ مَوْرِدِ )

« الماويتان » المرأتان و « استكنتا » اسنقرتا و « الحجاج » بفتح اوله العظم الذي

ينبت عليه شعر الحاجب وال « قلت » نقرة في الصخرة يستمتع فيها ماء المطر .

يقول ان عينيها صافيتان كالمراأتين . وقد اودعتنا حجاجين من رأس كصخرة ذات

نقرة كالنقرة التي يتجمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمراأتين اولاً ثم بماء

القلات « جمع قلت » ثانياً عدا ما فيه من تشبيه حجاجيها بالكهفين ورأسها بالصخرة .

وقوله في صفة تجتر الناقة في المشي :

( فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلِيدَةٌ مَجْلِسٌ تُتْرَى رِيهَا أُذْيَالُ سَحْلِ مَمْدَدِ )

« ذالت » مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجرد ذيله و « السحل » ثوب

قطن ابيض .

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذالت اي نشرت ذيلها على نغذيها . كما  
تفعل الوليدة وهي الجويرية في مجلس تسي فيه ربها اي سيدها الخمر . او انها تفعل  
ذلك حين ترقص امامه . فهي تجر ذيل ثوبها من القطن الابيض .  
وقوله في صفة وثاقة خلق الناقة .

( كقنطرة الرومي اقسام ربها لتكتنن حتى تتاد بقرمد )  
بقرمد متعلق بتكتنن . وتتاد ترفع . اي لا يزال بذأؤها الرومي يحيطها  
بالآجر حتى ترتفع .  
وقوله في وصف ذنبها .

( كأن جناحي مضرحي تكتنفا حنافية شكافي العيب بمسرد )  
( المضرحي ) النسر الابيض و ( حنافية ) اي في جانبي الذنب و ( العيب )  
عظم الذنب و ( المسرد ) الخرز .  
وقوله في صفة القينة . وهي المغنية

( اذارجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظار على ربيع ردي )  
يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبته لحسنه حنين نياق تجاوب  
من أجل فصيل لها مات .  
ومما تفحش به قوله .

( ندأماي يبض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجد )  
( رحيب قطاب الجيب منها رفيقة يجس الندامي بفضة التجرد )  
( المجد ) قميص بلي الجسد او قد صبغ بالجسد وهو الزعفران و ( قطاب الجيب )  
مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مدت الندامي أيديهم للجس رفقت  
ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الرشيقة قوله في صفة إسراع الناقة وأدبها وخوفها من لدغ سوطه .  
( وإن شئت لم ترقل وإن شئت أركلت مخافة ملوي من القيد محصد )  
( ترقل ) تسرع و ( الملوي ) يعني به السوط و ( محصد ) محكم القتل



( وإن شئتُ ساميَ واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد )  
 ( سامي ) بلغ في الارتفاع ( واسط الكور ) أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج  
 للفرس و ( نجاء الخفيدد ) أي مثل اسراع الظلم وهو ذكر النعام .

( تباري عتاقاً ناجياتٍ وأتبعث وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبئد )  
 ( تباري ) تعارض وتسبق ( ناجيات ) نياقاً سريعات و ( الوظيف ) مستدق  
 عظم الساق و ( المور ) الطريق المستوي الموطوء .  
 وقوله في صفة حالته مع ابن عمه ( مالك ) .

( فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه بناً عني وبعيد )

وقوله في صفة سيفه :

( حسام إذا ماقت منصرأ به كفي العود منه البدء : ليس بمعضد )  
 ( منصرأ به ) أي منقأ به لنفسي ، يقول : إن الضربة الأولى به تغني عن  
 ضربة ثانية . وليس هو بمعضد أي سيف يتمن ونقطع به الأشجار .

( ما فيها من الشؤون التي تهتم الباحث في تاريخ العرب )

( يتق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد )  
 مرثرح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .  
 وقوله :

( كقنطرة الرومي أقسم رأيا لتكسفن حتى تشاد بقراً مد )  
 يفيدنا هذا البيت أن اليونانيين كانوا مشهورين بالحدق في فن المعمار لدى عرب  
 الحاملية بحيث يضرب بهم المتل .  
 وقوله في صفة الناقة :

( وأتلع نهاض إذا صعدت به )  
 ( وأخذ كقرطاس السامي ومشر )  
 ( وأروع نهاض أخذ مملم )  
 ( كسب الياضي : قداه لم يجراد )  
 ( كمداة صخر في صنيح مصممد )

( اتلع ) عنق ( سكاّن ) دفة السفينة ( بوصي ) معرب ( بوزي ) السفينة او النوتي  
 ( مشفر ) تنفة ( سبت ) الجلد المدبوغ ( قده لم يجرد ) اي لم يقع في قطعه اضطراب  
 ( اروع ) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء ( أخذت ) سريع الحركة  
 ( مرداة ) حجر مستطيل يكسر به الصخر ( صفيح ) حجارة رقيقة و يعني بها اضلاع الناقة .  
 وقد استفدنا من هذه الايات اموراً من الاعمال والصناعات :

الملاحة في دجلة . وصنع الورق في التمام . والجلد المدبوغ في اليمن . وأن العرب  
 قبل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري .

### ( ما في المعلقة من الادب والحكمة )

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، ونقسم ابيات الادب في  
 قصيدته الى أقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :

( الا أيها هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلي )

( اعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى — تكالطول المرخي ونياها باليد )

( ما ) هي المصدرية التوقيتية : اي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا

كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى . وكن طرفيه مثنيان في يد صاحبها فهو

لا يابت ان يجذبها اليه . وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتى لا يقال إنه ناج

منه . فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :

( وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند )

( أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غد )

( أعداد ) جمع عدد بكسر العين وهو الماء لا يتقطع مدده . ومراده الغد المستقبل

الذي يموت فيه الانسان . يقول ان الموت كالمناهل للوراد : يردونها واحداً بعد

آخر . وهي لا ينفذ مددها .

( سبدي لك الايام ما كنت حاملاً وياأتيك بالاحبار من لم تزود )

( وياأتيك بالاحبار من لم تبع له بتاناً ولم تضرب له وقت موعد )

( تبع له ) تستري وتبتاع لاجله ، بتاناً ) هو كساء المسافر وأداته . و يروى أنه

( صلعم ) أنشد هذا البيت ( ستبدي الخ ) بين يديه فقال : ( هو من كلام النبوة )  
اي على طريقة كلام النبوة .

( أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد )  
( أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما ينقص الايام والدهر ينفد )

( يعتام ) يختار وهذا على حد قوله والموت نقاد الخ ( الفاحش ) المبالغ في البخل  
و ' عقيلته ماله العزيز عليه . والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة  
كل يوم . وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً .

### ( التمدح والفخر )

؛ اذا القوم قالوا: من فتى بخلت أني 'عنيت' فلم أكسل ولم أتبدد  
( اتبدد ) اي اتخير او أخمل . وهذا على حد قول الحماسي :

لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالم إياه يعنوننا  
( فان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تلتمني في الحوائيت تصطد )  
( وان يلقى الحي الحميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمّد )

قوله « في حلقة القوم » اي للمسامرة او لأدارة الرأي و« الحوائيت » يريد بها  
الحانات . وقوله « وان يلقى الخ » اي يلقون للمناخرة في أعمال المجد . وقوله « الى  
ذروة » اي في ذروة فيالى نابت مناب ( في ) كما هي في كقول النابغة :

فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلي به القار أجرب  
فقوله « الى الناس » اي في الناس . ومنه قولهم « -الست الى القوم » اي فيهم  
وقوله « المصمّد » اي المقصود كبيراً .

( انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد )  
« الضرب » اي الماضي الندب واصله الخفيف اللحم . وقوله « خشاش » اي  
كثير الدخول في الامور الصعبة .

وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرضاً بآخرين من منافسيه :

( فان مت فابعيني بما انا اهله  
 ( ولا تجعليني كامرئ ليس همه  
 وشقي علي الجيب بالينة معبد )  
 كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي )  
 ا بطي عن الجلي سربع الى الخنا  
 ذلول باجماع الرجال ملهد )  
 قوله « ذلول باجماع » اي اذنته او ذلته كثيرة ضرب الرجال له بجمع ايديهم  
 فهو « ملهد » اي كثيراً ما يضربونه في ظهره او صدره بقضبات ايديهم .  
 ( فلو كنت وغلاً في الرجال لضرني  
 عداوة ذي الاصحاب والمتوحد )  
 « وغلاً » اي لثماً جباناً .  
 ( ولكن نفي عني الرجال جراء تي  
 عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي )  
 قوله « نفي عني الخ » اي كشفهم ونجاهم عن مباراتي في حلبة المجد .  
 ( لعمرك ما امرئ علي بنعمة  
 نهاري ولاليلي علي بسرمد )  
 اي لا تعنى علي وجوه انفاذ اموري وقضاء مصالحني في النهار . كما انه لا  
 يطول ليالي في الغم والحسرة على ما فاني قضاؤه : لاني اكون قد قضيت ونفذت كل  
 ما يلزمي عمله . فلم يفتني شيء اتجنس عليه .

### ( رأيه في الحياة او مذهبه الايبكوري )

« ايبكور » فيلسوف يوناني مشهور . وخلاصة فلسفته أن اللذة أساس السعادة  
 في الحياة الانسانية . وانه يجب علينا ان نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها  
 والحصول عليها .  
 قال فينيون « الافرنسي » مؤلف كتاب تليماك : ان الناس نظروا الى « ايبكور »  
 كرجل يرى الانغماس في اللذات ونقم الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له —  
 وهذا ناشئ عن عدم فهم حقيقة فلسفته .  
 . وحقيقتها ان المذوذ عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون  
 تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة .  
 ومع هذا فقد فهم معظم الناس ان ايبكور يقول بتناول المذوذات على أية

صورة وقعت . واخذوا يطلقون كلمة ايكوري على كل رجل منتعس في اللذات والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار .

و يظهر ان ( طرفة بن العبد ) كان ايكورياً بدليل ابياته الآتية :

( وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبهي وإتفاقي طريفي ومثلدي )  
اي ما زال هذا دأبي وديدي .

( الى ان تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد )  
( رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذا الطراف الممدد )

( بني غبراء ) عني بهم الفقراء الذين ينامون على القبراء وهي الارض . و ( أهل هذا ) الخ عني بهم الاغنياء و ( الطراف ) الخباء من جلد . يقول ان اكبر دليل على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريق الفقراء والاغنياء بألقوته ولا يتفرون منه : الاولون لغمره لم بالعطايا والصلوات . واما الآخرون فلمشاركته لم في الشرب واقتطاف اللذات . وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فهم حسدة أغنياء .

( فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي )

( فان كنت ) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث .

( ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل مني قام غودي )

( هن من عيشة الفتى ) أي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما تثوقف عليه لذة

عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي منهي لذة الحياة وسعادتها عندي لما باليت الموت  
وإذا كنت أرغب في الحياة واتمنى طولها فخذك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

( فمنهن سبقي العاذلات بشربة كبيت مني ما تعمل بالماء تزبد )

( وكرمي اذا نادى المضاف - محبتاً كسيد الغضا نبتته المتورد )

( المضاف ) الخائف المدعور و ( محبتاً ) فرساً في عظامه انتعاط و ( السيد )

الذئب و ( المتورد ) العطشان و ارد الماء .

( واقصير يوم الدخن والدخن معجب بهيكنة تحت الخباء المعمد )

( كريم يزوي نفسه في حياته : ستعلم إن مننا غداً أيننا الصدي ؟ )  
ويظهر من هذا ان عرب الجاهلية كانوا يتأثون من شرب الخمر و يعتقدون ان  
من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة .

( أرعى قبر نخام بنخيل بماله كقبر غوي في البطالة منسد )  
( النخام ) النخيل لانه بنخم اي يسعل كما سئل صدقة . و ( الغوي ) المستهتر لا بالي  
اللائمين . و ( المفسد ) المبدّر .

( ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم في صفيح منسد )  
( الجثوة ) كومة الحجارة وقوله في ( صفيح ) اي انك ترى القارين في جملة قبور  
منسدة كثيرة . واذا كان قبر النخيل كقبر المنفق في لذاته . وكان مال كل منها  
أن تكون كومتان من صفائح على قبر يها فلماذا بنخل النخيل ولا يحذه حذو الغوي !

( عتاب ابن عمه مالك )

( يلوم وما أدري على م يلومي ؟ كما لامني في الحمي قرط بن معد )  
( فمالي أراني وان عمي مالك متى أدن منه يأ عني وسعد )  
( وأيا سني من كل خبر طلبته كأننا وضعناه الى رأس ملحد )  
قوله ( كأننا وضعناه الى رأس ملحد ) اي كأننا وضعنا طلبنا وقدمناه الى ملحد ائنه ميت  
مدفون في اللحد .

( وان أدع للجلي أكن من حماها وان يأتك الاعداء بالجهد أجهد )  
( أدع ) أي إن دعوتني يا ابن عمي و ( الجمل ) المطب العظيم . بالجهد اي  
بمتقة لا تطبيقاً أنت و ( أجهد ) أجتهد في دفعها عنك .

( وان يقذفوا بالقذع عرضك أسقم بتسرب حياض الموت قبل الهدد )  
اي اذا سبوك بأدرهم فاسقيهم من مشروب الموت وأوردهم حياضه قبل ان  
أهددهم بالاقوال . اي ان فعلي يسبق قولي .

( فلو كان مولاي امرء أهو غيره لفرج كربني أولاً نظرنني غد )

( مولاي ) اي ان عمي وقوله ( لانظرنى ) اي لامهاني .  
 ( ولكن مولاي امرؤ هو خاتمي على التكر والتسأل أو أنا منندي )  
 يقول ولكن ان عمي خاتمي وأخذ بأكظامي على كل حال : سواء شكرت له .  
 أو سألته العفو . أو اعتديت منه بال .  
 ( وظالم ذوي القربى أئسدهم فداضة على المرء من وقع الحسام المهند )  
 ( فذرني وخلقني إنني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند ضرعد )  
 اي اتركني على ما أنا عليه من الاخلاق والطباع : فانا راضٍ بها . ولا طاقة لي  
 بتغييرها . واذا فعلت هذا يا ابن عمي آكون شاكرآ لك . مها كنت بعيداً عنك .  
 ولو في جبل ضرعد .

( حال ابيه معه وصبره عليه )

( يقول — وقد تر الوظيف وساقها ألت ترى أن قد أتيت بمؤيد )  
 ( تر ) سقط و( الوظيف ) مستدق الساق و( مؤيد ) داهية يثقل وقعها على النفس  
 ( يقول ) اي ذلك الشيخ . وقدم ذكره في الايات السابقة . قال الزوزني هو ابوه .  
 لكن ورد في ترجمة طرفة ان اياه مات وتركه صغيراً . وعلى هذا يكون المراد بالشيخ  
 عمه او وصي ابيه عليه .  
 ( وقال : الا ! ماذا ترون تشارب شديد علينا بغيه متمعد ؟ )  
 اي وقال عمه ايضاً لجلسائه المشاهدين عقر طرفة للنياق . و( ترون ) اي  
 تشيرون .

( وقال : ذروه إنما نفعها له وإلا تكفوا قاصي البرك يزد )  
 كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فان النياق إرته ونفعها عائد  
 اليه . فدونكم ردوا عليه تلك النياق القاصية الساردة البعيدة عنه . والتي أبعدها  
 وأقصيناها نحن عنه . واني اخشى ان لم نفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها .  
 ولا يبق على شيء منها تشفياً وانقماماً .

## ( الأبيات المغلقة في المعلقة )

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدَّ منه قوله :

( جبالية وجناء تردي كأنها سفنجة تيري لاذعر مرُبد )

( كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خلتاء في ظبر قردد )

( وتبسم عن ألمي كأن منورا تحملل حر الرمل دعص له ندي )

هذه هي النمودجات التي أحببت عرضها على مسامعكم أيها الأفاضل — من معلقة

طرفة وهي نصف أبياتها . وإذا لاحظنا معها أن طرفة لما نالها كانت في حدود

العشرين من عمره حكماً مع (ابن مقبل) بان طرفة اشعر الناس . أو لا فمع (عمر و

ابن العلاء) بانه أشعر اصحاب المعلقات .





# الحسبة في الاسلام



لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعصارهم وكما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من ابناءه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية تجلي اما امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل . من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن حياء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني الودي استخرجه اهل الصدر الاول من ربح الكتاب والسنة باجمل مدينة عرفها البشر وما نظمه .هما ارتقى في الازمان الدالة يخرج عن حدها الا قليلاً .

لم يترك العرب بابا من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدنيتهم باحلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبتها الاسلام . وكانت العرب اساتذة انانها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تحويد مدنيتهما ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار ولللاقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع . ضاعت واسفاه اوضاع مدنيتهما القديمة وتخطتها لان العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء اناس من الماتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وثقاليدهم المختلفة حتى اوصولهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدينهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعثوا عنها

ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب  
الاجر على الله نقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتسابا والاحتساب طلب الاجر  
وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو  
فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ  
الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على  
المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات . مع الجمالين داخل السفن  
من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع  
من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها من الابلاغ  
في ضررهم للصبيان المعلمين — قاله ان خلدون وقال ان تميمية: وهو آدم لا يعيشون  
الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما اثنان  
بامر وناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام  
فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا  
فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه الاحسبة لما سأله ما بقاؤنا على  
هذا الامر قال : ما استقامت اكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمتابع واهل الديوان  
وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول  
يباسرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظير تركه ونهي  
عن المنكر اذا ظير فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر  
في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم وما كوتهم ومشروبيهم  
وملبوسهم ومسأكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيبهم عن المنكر .

وكانت الحسبة ( المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩ ) في الحكومات العربية وحكومات  
الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من  
تسند اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته  
اذا رآها والولاية تسند معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام :  
احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون

متركا بينهما ويمكن ان نقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعاض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالبلدات والبلديات . والحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر . ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اتبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات اعهدنا وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يحده مثلا من المنكرات في الاسواق ويتدق على السوق والباعة في صحة المناظر والارطال والمثاقيل والدرهم والموزن والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانيين والعلافين والقرابين والحبازين والشوائين والقائمين والكبوديين والسواربين والحزارين والرواسين والطبساخين والشرايحين والهراسين وقلاني السمك والزلابية والحلاويين والسرابين والعطارين والشماعين واللبانين والبرازين والبلالين والحماكة والحياطين والرومانين والقصارين والحريبين والصباعين والقذائين والكنائين والديارفة والمانعة والحمامين والحدادين والاساكمة والبيطرة وسمايرة العبيد والجواري والذباب والذبور والحمامات والسدارين (١) والفصادين والحجامين والاطباء والكتالين والجريين وهؤدفي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والنجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وبنات قدور الخبز والكبازان والناخرايين والعضاريين والابارين والمسلاتين والمراديين والحنايين والامشاطيين وعلى معاصر السرج والزيت الحار والغرابيين والنباغين والبططيين والموديين والحصرين والتبانيين والحمايين والقشاشين والخباريين والبتارين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدايس ارباب الصناعات .

(١) السدارين الذين يطعمون السدر وهو من المطبرات كالحبابون اذا غش يضر ولا يربح والناخرايون والعضاريون وهم الذين يصنعون الحماق (الزبادي او السلطانيات) والمرادون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب الساج او من السنط الاخر والمسلاتيون صناع المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها اراقة الخمر كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاو حال والارداغ والدكاينجة على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الحمر والبقر للحشابين والآجر بين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجنساح ويسمى ( برون داشت ) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الحيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين وزحر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر الذبوليين بطهارة مائهم ونقية ثورتهم عن الحصة ومنع الناس عن تطهير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بتطهير الاراني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللين وامر الفساليين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واحلاؤهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التجطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدثت الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاشين والصاغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح (١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع التبيذ والبختج (٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المنبركين او بعض المساحد على متساهة الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والذرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

(٢) البختج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية مبيخته .

بلا ملك ومنع المطلسة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الخلمات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصدق الناس الكهان والتنجمين ومنع الناس عن بدعة ايلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالبرد والشطرنج وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماتيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والحصا في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع النبي اصابه الم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ نبيء باسم النيروز والمهرجان وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التعرير باولاد الناس ويقفون من يكون نبيء المعاملة فيهنونه بالردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد ونقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعنى المحتسب بالاحساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلائي السمك والطيور وصياديهها ونجاري المراكب ونقديرات المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسبين والمرازين وصناع الترانك والاساكفة وصناع الحفاف وصنعة السرابات والزفاتين والبجاتين والدهانين وغتهم والمكارين وغتهم وكساحي السباد وحمالته والغراييل ومناحل التعر والوراقين والمهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاية والقضاة وتدايسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولاثم والحامل وصناعها والزوايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنياتهم .

وليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد انشاء لمنصب الحسبة : ٠٠٠٠٠ واعلم ان

الناس قد امتازوا سناً واحيوا بدناً ، وانفردوا فيما احديوه من المحدثات شيعاً ، واظلم منهم من اقرهم على امرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البسطة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كالامر باتيانها ، ولم يأت بنا الله الا سعيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمر ان ننصفح احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة ما لهم وامر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ اولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا . واطن الحق فاقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا ادياناً ، وعبدوا من الالهوا - اونا ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، ولونتنا : لا ريبا لكم فلعرفتهم بسميائهم ولنعرفهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقبله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فانكدرت الشرائع بطل مقاتله ، ولا تدنس علومها بمثل اثر جهائنه ، والمنتمى اليها يعرف بنكره ، ويسندل عليه بغلظة كفره ، وتلك فئمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظيرز يادتها ونقتبها بحسب ما عند رانيتها من الانوار ، وما تجده من كتبها التي هي سموم ناقعة ، لانارها نافعة ، وافاعي ملففة ، لا اقوال مؤلفة ، فاستأصل سآفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعل الله باهلها من التمزيق ، ولا يسمعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكان اسرارها ، فمن وجدت في بيته فايو حذ جباراً ، ولينكل بداتها ، وايقل هذا من استكراستك جباراً ، ولم يرج الله وقاراً ، . . . . .

قلنا وتطبيق هذه التدة في بعض الحكومات الاسلامية وباللاسف قد دعب الى التمول على كل مخائف وذهب كثير من ارباب العقل والفلسفة طعمه الففظ والاستبداد فتأخرت بذلك الامة واتسبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيهين في القرون الوسطى بما نوا به من دعوى السحر والكفر فأهلكوا باحكام دواوين التفتيس الديني الوفا ذهبوا حزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوي محيطهم الضيق .

ومن اجمل البقايد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه ونقصر غايات الهمم عن تنمية اتمامه امر يتعلق به تبات الدين و يعطف عليه صلاح المسلمين وهو امر الاحساب فان فيه تقيف الزائفين

عن الحق وتأديب المنهكين في الفسق وثقوية اعضاءه ارباب الترع وسواعدها ،  
واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وينبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً  
بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مرصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم العيب ،  
لابساً مدارع السداد ساكناً مناصح الرشاد ٠٠٠٠٠ وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ،  
والنقوى دناره ، والعلم معلمه والدين مناره ، تم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر و يقيم  
حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقتضى السن والآثار ، من غير ان يتصور  
الحيطان ، ويتسلق الجدران ، ويرفع الحجب المسدودة ، يكسر الابواب المسدودة ، ويسلط  
الايدي على دور المسلمين ، وحرم المؤمنين ، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى  
عوراتهم واطفالهم ، ويظهروا ما امر الله بترده واخفائه ونهى عن اتاعته وافتتانه ، فان عبادة  
الاوثان خير من ذلك الاحتساب ، والعقوبة الاندية اولى بمباشره من الاجر والتواب .  
قال ابن فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة و وكل  
اليه النظر في مدارج المسلمين حسبة لله فلينظر في السقي والحليل والكثير والقليل  
وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر ، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، وما يسترى  
وباع ، وما يقرب بتعويده الى الجنة وبعد من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها  
الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعاييس في نهار اوليل ، وما لا يعرف قدره  
الا اذا نطق اسنان الميزان او تكلم بالكيل ، ويعمل ابديه معدلاً لكل عمل ، وعياراً  
اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، ولا يفتقد اكثر هذه الاسباب ، ويحذر  
من الغس فان الداء اكثره من الطعام او الشراب ، ليتعرف الاسعار ، ويستعمل الاخبار ،  
في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، ليقيم عليهم من الامناء من ينوب عنه  
في النظر ، ويطمئن به وان عاب اذا حضر ، ويأمره باعلامه بما عضل ، ومراجعتة مها  
امكن فان رأيت منله افضل ، ودار الضرب والنقود التي منها نبت ، وقد يكون فيها  
من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدره الذي لا يخرج ،  
وايعرض مها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور  
ويرى بص من الفضة ويخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه ويقوم عليه من  
جهته الرقبا ، وايقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، وليقم

الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير الا لمن لا يستراب فيه وهو معروف، وبخط مطبب ماهر لم يرض معين في دواء موصوف، والطرقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسات، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة وبأكلهم باللسان، وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لانسان، امنعهم كل المنع، واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينتعمر له صدع، وصب عليهم النكال والافاقا تجدي في تأديبهم اداة التأديب والصفح، واحسم كل هذه المواد الحبيثة، واقطع مايحمر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرتيبة، ومن وجدته قد غش مسلما، او اكل باطل درهما، او اخبر مشتر بزائد، او خرج عن معهود العوائد، اشهره في البلد، واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الخلد، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب ونالقات النساء وغيرهما من الانواع (؟) ممن يخاف من ذنبه العائت في سرب الظباة واحاذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر، ارشقهم بسهامك، وزلزل اقدامهم باقدامك، ولا تدع منهم الا من جربت امانته، واختبرت صيانه، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نفاذا، ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وتقوى الله هي نعم المسالك، وما لك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

واقدم حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لانتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والنواحي بالحق والماهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمنا اذا لم يتضامنوا هلكوا وهبته ان نتم للفردي فيه سعادة لا لتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر بلعا عاليا من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من التروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع دافعا عنق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا فسبحان الملهم العظيم .

محمد كرد علي



## الوبالت ( الملائيا )

« كيفية الوقاية منها ( ١ ) »

ايها السادة :

انذني حضرة استاذنا الكبير رئيس المجمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامتثال لرغبته فأثيت أفقتس في حقبيتي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها ينفق ويفيد . وقد كنت اود لو انفسح لي الوقت فالقي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلسفة الطبية والعنائب النسيولوجية والتشريحية التي تترأى للمدقق حين تحري كل خلية من الخلايا التي يترك منها هذا البناء البشري والظر اليها وهي منبع نظاماً دقيقاً لا تخرج عنه حتى ليشتمل الانسان عندئذ ان في جسده عالماً آخر حديداً يتبع انظمة انى اعالمنا هذا الطاهر ان ياتلها دقة وانظاماً . واكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجي القاءها الى زمن آخر لانني أرغب رغبة شديدة بان اطعم ناسئنا الجديدة التي يرحى منها تقدم البلاد ورقبها على ما يجري فيهم من الاسرار والعجائب الحارقات التي يقف عندها اكبر مفكري العالم وهم لا يجدون حل العازداسيلا، وطار على الانسان أن يطمح بمقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفة ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من العوامض وخليداني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واختر موضوعاً لكلامي في هذا المساء « الوبالت . وكيفية الوقاية منها »

\* \* \*

موضوع رحب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الحولان فيه ساعات طويلة

( ١ ) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء المجمع العلمي ألقاها

في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة إذا روعي كان سبباً لنجاة مئات الألوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها - ولست أريد أن أتي عليكم الآن درسا طبياً في هذه الحمى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطاتها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلزم لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة والكني أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طبيباً كان أم غير طبيب ان يعرفها ويراعيها لان من الواجب على كل انسان أن يكون طبيباً صغيراً أي طبيباً في بيته يُدخل اليه من العادات كل حسن ويستأصل منه كل فاسد فإذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها فأولى هذه النقاط : أحد الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي . وثانيها : طريقة انتقالها ولحمة في حياة العامل الناقل . وثالثها : كيفية الوقاية منها .

الوبالة او (المالاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي - الذي كسنته لافران سنة ١٨٨٠ مسمي - الى دم الانسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاء له الا اسرف ما في الانسان . لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ بحضائها الدموية (هاموغلوبين) او كسيتين الهواء متممة في الانسان وظيفته التنفس والاحتراق وهي اس اكل حيوة بشرية وحيوانية ونباتية ومتى التهمت هذه الحرنومة تلك الكريات الحية النادرة الحيوة في البناء البشري حدثت اعراض في البنية يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق يليه ضعف كل وظيفة جسدية لان الاعضا التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها . وغداؤها وقوتها يقومان بتدعيمها الكريات الحمراء فاذا نقصت هذه الكريات عدداً أو اختلف تركيبها الكيمي فنقصت جوهراً مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضا جميعها التي تقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة أهمها ضمامة الطحال الذي بلغ احياناً عشرة اضعاف حجمه العادي فيما لا السطن ويصل حتى حدود السنتي وترافقه غالباً ضمامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضمامة الطحال لان الكبد لاتبلغ إلا نادراً ثلاثة اضعاف حجمها الطبيعي ، لا يزال حجمها المطلق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل اربعة كيلوغرامات مع ان وزن الطحال حين ضمامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد . هذا عدا التشوشات العظيمة التي تظهر في الكايتين والنقي ( الخ العظمي ) والمراكز العصبية فيتمتع بسببها لوف الوحه ويعلوه شحوب شديد فتذبل نضرة الوجنتين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انسانا نشر من بين الاموات .

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأثيرها رابية وهذه هي أضرارها الحسيمة وهذه هي أسقاطها التي يرزح تحت وقرها جسدنا الحي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة القبيحة أو مثلتها لكم بصورة سنالك عظيم يفكك تليارات الكريات في الدقيقة الواحدة فاني لا أدرك الحقيقة . وكما ان ضحاياها في الحسد الواحد تعد بالملايين فلست أراهم اذا قلت ان ضحاياها في حسد الجموع التسري لا تقل عدداً عن ضحاياها في البيسة الواحدة من ذلك الجموع فكيف من القرى التي اقترنت بتأثير الوبالة وكما من الجيوش التي أهدت لحولها في البطائح والحرب التي مرت هي اكبر بردان على صحة ما أقول واعل عدداً غير قليل منك أيها السادة رافق الجيوش التركية في غزواتها ووجد معها في تلك المستنقعات السورية والفلسطينية والاباضوية والعراقية فرأى بأمر عينه تلك الموات الحبيبة التي لم تكن لتميل المصاب بها الا عتبرات من الساعات . وكما من المدن التي وهبتها الطبيعة من مائها وجمالها ما خدت به على سواها ولا تستفد من هبات الطبيعة بل شوهتها بجمعات الماء مرتعا للبعوض فكادت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة .

ولو نظرت بطرة عامة أيها السادة الى الكرة الارضية لوحدتم ان للوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا عرست فيها عليها وشادت قلاعها وان من الممالك ما ناوأها وأبلى نايها الحرب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كاد يحرقها ويقاص طابها من بلاده ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فراسة منلا بعد ان كذت تدفع للوبالة الصرانب الشديدة توصلت اليوم الى نزع بيردا والقائه بعيداً وبعد ان كذت ولاياتها الواقعة في الوسط لاسيا (السولوية ) ( Sologne ) من البلاد التي مستى فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة معها بفضل علماء الصحة الجبرين وحممة الحكومة واتساقها وهكذا فان اوربة جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرنسا ينطبق ايضاً على انكثرة والمائة وسواهما حتى اننا لو زرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا تكاد تذكر في كورسكة ( Corse ) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خلق الوبالة الا البلاد الايطالية التي تكثر فيها المناقع ولا تزال هذالحى ضاربة فيها اطنابها ومزيلة من وجنات شبيبتها نضارة الحياة .

وكذلك اميركة فانها قد حذت حذو اوروبا في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي، وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجارة اوروبا القديمة العهد والعريقة في العلم ، قد ازلت قسماً كبيراً من سيطرة هذا البلاء ففي اميركة التماية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا ( Lousiane ) وفلوريدا ( Floride ) وتاكساس ( Texas ) واركنساس ( Arkansas ) وجورجيا ( Géorgie ) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاءً غريباً كما انها في باما وغانا ( Guatémala ) وجزر الانتيل لا تزال شديدة الوطأة .

واما اميركة الجنوبية فلا تزال وكرا للوبالة فان الرازيل والبيرو عدا الصرود منها ، وغيوانه ( Guyanes ) وفنازو بلا و كولومبية وبوليفية نفسي فيها الوبالة نفسياً شديداً .

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها التقاء لا تزال متأخرة تروح تحت نير هذه الحمى وسواها من الالويثة المنفشية فأفر بقية على الرغم مما يبذل فيها من العناية لا تزال مرتعاً للوبالة ولا يجومها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للمحيط تأثيراً كبيراً في نمو بيض البعوض الذي ينقل هذه الحمى و يجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة اكثر من الباردة .

واما اوقيانية ( جزائر الاوقيانوس الكبير ) فان اكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى اخصها مالازية ( Malaisie ) وجاوا ( Java ) وسوترا وبورنايو وموليك ( Moluques ) وفيلبين .

واما آسيا هذه القارة التي نجح فيها وتحت سمانها نجحاً فانها القارة التي لم تخط حتى

الآن خطوة تذكر في سبيل التخلص من ربقة هذا المرض فان الكوشانسين وتونكين والقسم الشمالي الشرقي من الصين وكامبودج والعجم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة تلوثة لا يرجى منه شفاء الا اذا بذت الحكومة اقصى ما في وسعها في هذا الصدد . ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيا فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا أنفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاءات لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقية لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل اسماؤهم الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . واكني اقول كلمة موجزة تحققت صحتها نفسي وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهكم معرفتها كما انها تهكم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وثلثي سكان القرى المجاورة لما يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لفيفكم المجتمع هنا أيها السادة وسألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فمر بادوارها الثلاثة الناض ( العرواء ) والحرارة والعرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يحافظون على صحتهم ويراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كان كما لو اخذت اب الأسرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس البائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل لفيف مستخدميه لرأيتم ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . إذا اذا جعلت نسبة الاحصاءات ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم بايجاز فما هو السبب ياترى في انتقالها وما هو ناقلها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والشرط الاساسي في حياة البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة او ذات السير البطيء فاذا أزيل الشرط الثاني اتلفنا بيوض البعوض وقضينا على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من شرٍ عظيم يهددها ويذهب بقوة ابنائها . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثلاً على كلامي و ذكرت لكم البطائح المتعددة الفسيحة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في داخلها للمعجم بعد ذلك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا .

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سماً زعاقاً ينتشر في الفضاء ذلك العامل الماثل فلا يدع منزلاً إلا يدخله ويلتقم سكنه بلقاحه المضر فمهما مستنقع (الجدانة) وجنيبة النعنع والمرج و(الدقردار) والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الابيض الذي يتدفق من الشاغور ويتر بالحقلة والزفتية والساحة حتى المنزل — رحرح الغوطة الواقع شرقي الشام . وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تفسد هواء النهر الواقعة قريباً منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتيبة والقرية المسماة باسمها تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ متر مربع .

ومستنقع قرب قرية حران العواميد والمستنقعات المتكونة في سبخة جبل حرمان كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلو مترات من قطننا في ذلك الوادي الخصب . ومستنقعات عرطوز وسبع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات الصغيرة التي لا تعد وكثرت ناتجة عن إحلال قنوات الانهر وتسرب الماء منها الى الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أنها السادة ان المستنقع يند صرره الى مساحة لا يتقل قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى العوض على قطعها اذا كان الهواء هادنا ادركنا ان ذلك ان دمشق وقرائها جميعا دخلت ضمن نطاق الوبالة .

ولا نظن ان بقية المدن السورية اكبر حظاً من دمشق فلو أرسلت بنظري الى حمص وحماد وحسر الشغور وقرائها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من المستنقعات عدداً عديداً بيت جرابيم هذا الحمى الفتاكة ويمتد الالوف ومئات الالوف من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضاً عارة وجه الحبر دعي غابا لكثرة ما يبيت فيه من الاعتاب المائية والقصب حتى أصبح حرجاً كئيفاً تأوي اليه الوحوش وهو بورذ الوبالة

تجيش فيه جيوش البعوض فتنتشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سمومها .  
طوله ستة كيلو مترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلومتر ومساحة سطحه الف وخمسمائة هكتار وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طفت من بحيرة القطينة على الاراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السيج : الذي يبع تحت خرابة اسمها معين قائمة على سفح جبل لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول مجرى النهر البطيئ ويحتاز قري مطرية وسفرحه والباعم والبوينة الغربية ودين ويدهي بمستنقع الغساب فيسم هواء هذه القري كلها .

ومستنقع كائن قرب حمص بين سدة أنثى حديثاً للعاصي والحسر الحديدي الذي ير فوقه قطار حمص وطرابلس الحديدي طوله خمسمائة متر وعرضه خمسون متراً .  
ومستنقع الميلاس : وهو مازة مدينة حمص وسبب وبالتيها .

ومستنقع السيج : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الاطراف يبلغ طوله عشرة كيلومترات وعرضه عشرة أيضاً ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به قري العتارنة والعونية وجملة وترمسة وصلبا والصفصافية . وهي من اعمال حماه وسلب وجبرملة وديمو من اعمال قضاء العمارية من منطقة العلوبين .

ومستنقع الغساب : وهو بطيحة أخرى غير البطيحة الاولى المسماة بهذا الاسم واقعة قرب حسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها اربعون الف هكتار وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كائنة في الاراضي الفاصلة بين حكومة دمشق وحلب وجبل العلوبين تقع في اولها قرية العتارنة وهي من اعمال حماه وفي آخرها قرية قرقور من اعمال قضاء الشغور وتحتها قري جلاب وعمورين والسقيلية وقلعة المضيق ( وهي مدينة افاميا القديمة ) والتريفة وحوير والتويني والناصرية وقرقور وتل العار وحورات ورسم الحرن وتل كشرى وكريم والبارد ورصيف سطره . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقور سميت بانتائه الحكومة العثمانية اشركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري ( الحنكليس ) من الفرار .

خطر عظيم يتهدد الامة ونحن عنه متفاضون وبلاء جسم سببته المياه الفزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقي الحياة حيث مر اذا احسن استعماله و يسبب الامراض والابوثة اذا لم يذب اليه ونحن عنه لاهون . خير اسورية ان تكون ظمى وبنوها اشداء اقوياء من ان تندفق الجداول في كل منمرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى تساجون — وعارء علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا انزاهرة ننقلب الى بلاء وخطر . عارء علينا نحن أحفاد الامو بين ان نقف وقفة المنفرج إزاء هذا الخطر الحفي كأن الدم الذي يلمتهم ليس بدم ابنا لنا والقوة التي نبعثر ليست بقوة نسلنا ، لابل يلقى بنا ان نضع حدا لهذا الداء وان نحمل اولي الامر على إتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين .

المستنقعات مضره أياها السادة لانها البيئة التي ينمو فيها البعوض و يلقي فيها بيوضه فلا تلبث هذه البيوض حتى وجدت من الحرارة وركود الهواء ما يلائمها ان تنفقس وتقلب الى سرفه محشرة فبالغة . فتصبح قادرة على الطيران . و بهذه المناسبة أنبهكم الى امر اسامي خوقا من الالتباس وهو ان البعوض يقسم نوعين مهمين وان نوعا واحدا منها يحيا فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى ( الانوفال ) . والنوع الآخر عديم الخطر يسمى ( كيبلاكس ) . واليك بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيبلاكس البالغتين : يكون جسم الانوفال عندما تجلط على سطح مائل مكونا مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحيانا الدرجة التسعين . واما الكيبلاكس فان جسمها يكاد يكون موازيا للسطح فاذا رأيتم بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدتم ان رأسها اكثر انخفاضا من ذنبها اي اذا وجدتوها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سما زاعافا وان لدغها لا يقل خطرا عن لدغ الافعي واذا رأتموها موازية للحائط او لسطح السرير فلا تحافوها فهي تلدغ وتوالم مكان اللدغة ولا ينتج عن لدغتها الام موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد تشبيها له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صمحا عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ وقلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكره والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذا بعد ان تصبح قادرة على الطيران يبقى الذكر منها قريبا من



الكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الأشجار وأما أتناه فانها نهمة لا ترضى بسوى الدم غذاء لها فتقتنم فرصة الليل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمتص من دمه غذاءها ولما كانت لا تميز بين السليم والريض فانها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحية وبعد ان ير هذا الطفيلي بأدوار متعددة في جسمها تنقح به السليم مع اللعاب حين غرز خرطومها فيه والاغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحمى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لا سهل الى العدوى وبدون المستنقعات لا سهل الى حيوة البعوض .

وبان الانوفال هي العامل الناقل وهي النقع الوحيد الذي ينقل العامل الرضي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم لمحة عن حياتها واحلافها فاقول :  
للبعوض دور من الحيوة يسمى الدير السرفي وهو الدور الذي يلي نقس البيضة ويسبق زمن البلوغ وهذا الدير من ادوار حياة الانوفال . أي صرف اي ان الانوفال تنقذيه في الماء . اذا لا أنوفال بدون ماء .

تتعب الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث الماء نقي صافي لتاتي ببوضها فيها غيران ركود الماء ايس تضرها لازماً فان الماء اذا كان هادئاً او خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضاً وعابه فان قسماً كبيراً من الانهر التي تحترق دمتق مارة في بقع مستوية من الارض او خفيفة الميل يكون سيرها داداً جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لاجريان فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقي ببوضها وتنتج نواجها بمئات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضاً في ضفاف الشواطئ التي تنمو عليها الاتجار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقعاً صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقها وصا . ماها وهذه كثيرة دمتق تعد بمئات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاتجار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات المعشبة والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الخزفية وكل مستنقعات دمتق التي ذكرت اسماءها منذ هنيهة هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لعمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والمجاري الصناعية التي تحخر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وثقوب الحوافر الملقاة حول المسالخ والانفاق التي يحفرها السرطان المائي والمجامع المائية مهاصرت لاسيما ما ينتج عن فيضان خزانات الماء كما هي الحالة قرب خزان من خزانات ماء النجيجة في دمشق وكسرات القناني وآنية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لنفوس البعوض وبكلمة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلتقي فيها ببوضها .

ولا تتعجبوا أيها السادة اذا أضفت الى كل ما مضى ماشاهده بعض علماء النجعة المدققين في فلسطين واعلنا شاهده نحن ايضاً اذا جرتنا حب الاختبار الى التدقيق بان بعض الآبار البيتية نتخذها الانوفال مقراً لها وتلقي فيها ببوضها فمأملوا اذا ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لمقاتلته وتحرير معاقله المتعددة . ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به فمهما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب اللزوم علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لا نتوصل الى قطع شأفة الانوفال واذا لم يمنع المعوض من هذا المحيط بقي هواؤنا ملوثاً واجسادنا عالية مها توفرت الاسباب الشحية الاخرى لدينا فكلكم يعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه التساميون اصرف اشهر الصيف فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بيت على علو شامخ فاخذت من الهواء تقيسه وأتلعت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فعطرت به هواءها وانعتت صدورسا كنيها ومع ذلك فلا يغيبها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصححت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي نفتت بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من الدين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجناتهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة . فاذا لم سدرك الحكومة امر هذا المستنقع ونجّره او تجففه في هذه السنة كانت اتجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين .

وها انا امرٌ على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى .

الوقاية من الحمى تقوم بأمور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وتالثها ادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكلمة أخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحياة العامل المرضي .

اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهو الاكبر يترتب على الحكومة القيام به والقسم الآخر وهو الصغير يترتب على كل فرد من افراد الامة اتمامه . فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلاد التي تولى شؤونها وان تدرس درساً دقيقاً مجساري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاً منقماً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا تسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها ونظر في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها فجففتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملأتها أو ردمتها او حفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها تم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كتشجر الاوكالبتوس مثلاً فلا يمر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجدها مقرأ لتلقي فيه بيوضها . ومن واجبات الحكومة ايضاً ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً ونقتلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلا تدع سبيلاً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب حذع كل شجرة من الاشجار . ومن واجباتها ايضاً معاينة المسالخ وجوارها والمعامل وما يحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلا تدع فيها مجماً صغيراً من الماء يتمكن الانوفال من إلقاء بيوضها فيه . ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره او ملكه من زيت الكاز او الترينتيا كل اسبوع كمية مناسبة سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء ونقضي عليها وهي في اوكارها ونقدر هذه الكمية بعشرين سانبمترأ مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء . وعليها ان تعين .أمور بين صحبين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجرأ على المخالفة ؛ وعليها ايضاً ان تعين مياه الآبار وترى اذا كانت سرفات الانوفال عائسة فيها فتأمر بما يتجفيفها او بوضع الكاز فيها عادة اياها كالبرك الموتة .

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة واذا هي لم تبدأ بالعمل أولاً ونقوم بواجباتها فان ما يصنع افراد الامة منفردين لا يأتي بالفائدة وان حكومتنا الحاضرة وان لم نتم حتي الآن واجباً من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فانها قد وضعت القضية تحت الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .

اما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا ان نساعد الحكومة على اتمام ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا ان ينظر نظرة دقيقة الى بيته فلا يدع في بستانه او داره مجمعاً من الماء الا ملاءه والتي فيه كآزاً . يجب علينا ان ننظر الى المراحيض فان الانوفال وان تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فانها لا تستكف عن المالح او القذر فاذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت مجامع مائية فيجب علينا ان نلقي كمية من الكاز فيها . يجب علينا ان نعتبر الاقسام المحيطة ببيوتنا كأنها ملك لنا يترتب علينا ان نحافظ عليها بما فطنتنا على مساكسها فنعاملها معاملة دورنا ذاتها ونخفف عن الحكومة قسماً من الاعصاب . هكذا يصنع الشعب الراقى المتمدن في كل قطر من اقطار العالم .

واما الامر الثاني من الوناية وهو انقاء البعوض البالغ حين وجوده فاننا لا نحتاج اليه الا اذا أهملنا الامر الاول كما هي الحالة اليوم في مدينتنا الناعسة ويقوم هذا الامر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرفيعة على الابواب والنوافذ لا يتمكن البعوض من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة ايضاً على الاسرة ويجب ان تكون هذه الكلات طويلة كي تصل الى الارض وان تثبت حول السرير بقطع من الرصاص كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا ايضاً ان نعاين الكلات في كل يوم فاذا حدث فيها تقب صغير يجب ان يراقى حالاً لان البعوض لا يدع منفذاً مهما كان صغيراً الا دخله . ان الكلة أيها السادة كافية في حالتنا الحاضرة للتوقي من شر هذه الحمى الشديدة فمهما غلبت فيها ومهما قيل فيها فان اهمالها يعد جريمة لا تغفر . ومما الحجت عليكم بتعميم هذه العادة الحسنة في المحيط الذي انتم فيه فلا آفي واجب التبشير بهذه القضية حقه . فليكن كل منكم رسولا في بيته وبين اصدقائه ومبشراً

في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدرّون هذا الامر قدّره فلا تتر مدّة قصيرة لا يعمّ استعمال الكلات عند الفقير والغني فنتحسّن اذذاك الحالة الصحية تحسناً يذكر يعود الفضل فيه اليكم .

وأما النقطة الاخيرة من الوقاية فنقوم بادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من النمو فيه . وهذا العلاج أمهسا السادة يعرفه جميعكم ولكن قلّ من يستعمله منكم . هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحق لنا أن نخفل اليوم بهوبله الماسي لان السنرات التي مرت على كتفه مائة سنة وسنة . وهذا العلاج الذي اوجده العناية الآبية سناء للوبالة له خاصة واقية أيضاً . فكما انه يطفى نار الحمى حين تاججها فانه يجعل ايضا المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال . فهو رحمة للبشرية حاء بها بلاتيه وكفاننو سنة ( ١٨٢٠ ) وان التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين اما استعمال الكينين للوقاية ففضلي طرقة طريقة لافران كاشف الطفيلي وهي نقوم باخذ عشرين سانتيفراماً من كبريتات الكينين في كل يوم او اربعين سانتيفراماً كل يومين مادام الفصل الحطر موجوداً . والفصل الحطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة اشهر اولها حزيران وآخرها تشرين الاول هذا ماأريد أن أقوله لكم أمهسا السادة عن الوبالة وقاكم الله منها بفضل ماأسدي اليكم من النصائح المفيدة والسلام عليكم .



## الحجاية في الشام<sup>(١)</sup>

أهم مسألة في قيام الدول وسقوطها ان تفرض الاموال على الرعايا بالعقل وتجبى منهم بالعدل ويحسن التصرف في انفاقها على المصالح العامة . وقد كانت الحكومات الاسلامية تعنى بهذا الشأن كل العناية وكانت اذا غنت عن هذا الامر المهم ايام ضعفها تكثر الثورات أو تنقطع عن العمل الرغبات فتحرب البلاد وتنتشر الفوضى ونعم البلوى .

اعتمدت العرب أول التمس في تنظيم دواوين اموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام وذلك لان العرب كانوا لأول امرهم نصف أميين أو نصف متحضرين وأهل الشام اعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاناجم العالمين بأموال الخراج .

واقدم كان الاسراف يبدو في الاموال ايام الدرف والنعيم ويتجلى الانتصاد فيها على عهد الخدي والاصلاح وذلك يرجع على الاعتب الى من يتولى امر الامة من سليفة أو سلطان أو امير فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الانفاق محصورة داخل البلاد وكان المقد أقل من هذه الايام والطبع والمهين في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاحيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لأول الامر شأنهم في عامة أمورهم .

والحجاية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وأحر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فان كانت الدولة على سمن الدين فليست الا المعارم الترعمية من الصدقات والخراج والحزبية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة

(١) أقيمت في ٢٢ دي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ و ٢٦ آب سنة ١٩٢١ م .

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والحراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداوة في أولها . والبداوة تقتضي المسامحة والكرامة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإتفاقها قليلا ويكون في الجباية حينئذ وفاء بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بددين الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغلة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعا من الجباية يضربها على البياعات وينرض لها قدرا معلوما على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وعد فلما اتصل بنا سند صحيح عن مقادير الجباية في هذه الديار قبل العرب أما على عهد حكومتهم فكانت الجباية في السدر الاول تجمع من الحراج والعشور والصدقات والحوالي أي الجزية أي ان لها اربعة موارد رئيسة ثم صارت اصول جهات الاموال السلطانية عشرة الجزية والحراج والعشور والاجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات والغنيمه والبي والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد انحطاط هذه البلاد وسي المتعابون أو الثاقبون « ان تكثر المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يخدم سوطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : ان كثرة الاموال وقتلتها بقدر المعرفة باحتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معصرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدره ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واحبة ، وأحور لازمة ، وديات دماء ذاهبة ، ومحور مباحات راتمة ، ومستخرج معادن غير ناهية ، وعدد بعم سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصية ، الى غير ذلك من تريع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتريع مواضع ، وتريع طوالع ، وهذه جهات أموال جعل التسرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ويمكن من استيانتها سلوك دريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقا تجب رعايتها ، عند صرفها واخراجها ، اه .

وقال العزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية

قسان قسم مأخوذ من الأعداء وهو الغنمية المأخوذة بالقهر والنفي وهو الذي حصل من ملهم في يده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم التسائي المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسان الموارد وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والاقواق التي لا متولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الحسامس — وما عدا ذلك من الحراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرسوة كلها حرام . وقال ايضا ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفي والغنمية ولا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الحراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطن الكلابي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يابها من ضوائف كلب انا الباجية من النخل ولكم الصامته من النخل على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردتكم نقيمون لوقيتها وتؤتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر السات لكم بذلك عهد الله والميثاق واسأليكم الصبح والوفاء وذمة الله برسوله تهدي الله ربه من حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الحراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال التام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحمله وكانت الجزية في بدء الامر دياراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن

(١) يقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم



الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس موبس ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً . وصالح ابو عبدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم وعلهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكافهم ذبح شاة او دجاجة وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

خراجاً جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عائق السوريين من المغارم والسخر التي حملهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن تساؤوا اه .

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتاوة من المال ورسمًا على كل رأس ودانيرهم أن يخضعوا لجماع مايو مروم به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا احضع هذا الام بأسرها لسلطانها فذلك ظمماً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها . قالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعددين يسمونهم العشارين بتعاون من الحكومة حتى جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشارون اكثر مما يجب لهم أحده يسايون الاهلين وكبيراً ما كانوا يبيعونهم كما يباع الرقيق . قال سنيوبوس وكبيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الام المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل النادرة في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التجف والطرف . وقد شوهد أبوان يبيعان ابناهما وبناتها .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او عامر يناله الماء بدلوا او بغيره زرع او عطل درهماً وقفيزاً (٢) واحداً والغى عمر النخل عوناً لاهل السواد واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الحضرم من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك وما دون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الحضرم من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبائلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبيدة الي كل وال ممن حلقه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الحزبية والحراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما ردونا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقفيز عشر قصبات في قصبه والعنبر قصبه في قصبه والقصبه ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثاً آلاف وستائة ذراع مكسرة واما النراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال ثمانية مكاكيك جمع مكوك وفي القساموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الوبة والوبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمد النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع منا وسبعة امان مناً والمنا رطلان والرطل اثنان عشرة اوقية والاقية اوقية استار وتلثا استار والاستار اربعة متاقيل ونصف والمتقال درهم وتلاثة اسباع درهم والدرهم سنة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس تين درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا تقدر على ذلك وقد ردونا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لم يردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل تى بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ايس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عكم العشور . ولاتؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون النواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفاتحين . وأمر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسخ السواد ان لا يمسح تلا ولا أجمة ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد اي الفقير اتى عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلاً وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في العي والحراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في اموالهم واراضيهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغائهم وما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما احلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعد هجرتي . وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رحل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وماله لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حص

وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . ويأمره بوضع الحراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصى الخليفة من بعدي باهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو وردء المسلمين وان يقسم بينهم فيئهم العدل وان لا يحمّل من عندهم فضل الا بطيب انفسهم . واوصى الخليفة من بعده باهل النعمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله و يجعل اموالهم في بيت المال فمن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رحالاً اتجمعه منهم الاشعث بن قيس اجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الانفال والسهمان ما زاد على ستين الفاً فلك فقوّم عمر ماله فزاد عشرين الفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى فلسطين ممل ذلك ثم جعل بعد ذلك بصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرحل بخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له تروة واعطى بعض ولاته حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال وبيذرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قر يش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي الكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يعمرها ويؤدي الحق عنها واقننى هو وجماعته الضياع والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظنر على شيء من السعة قبل الخلافة وكثرت في ايامه اموال الانفال والغنائم بكثرة التموح .

والغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والتي ما صولحوا عليه من الجزية والحراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفرس يشتري بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعماية الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجبي اليها خراج الممالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والحيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وافرغوا اه .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك واستأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان اعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداحية الذي دعي بكسرى العرب اكثره اُبهته ونفقته وكان بذل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأموال بين ملكاً بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاضغاث عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خاسا الامو بين من كانوا يحورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض انساء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاطاع اقطاعان اقليمك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . والمقاج البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الاربان والاربن هو الحراج وهو الاتاوة . قال مكحول : كل عشري بالتام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فاحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فاحيوه باذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبعن لهم كسوة شتا، ولا صيفا ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضرب احد منهم سوطاً واحداً في درهم ولا نتمه على رحله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضاً في شيء من الحراج فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقد امر

الحراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الحراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الحراج لان ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الحراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره إلا قليلاً فان شكوا تنقلاً او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة أرض اعتمرها غرق او أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ولا يثقان عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزبين ولايتك مع استجلاب حسن ثنائهم وتبجحك باسئفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فر بما حدثت من الامور ما اذا عوت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يوتي خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها لانراف أنفس الولاية على الجمع وسوء ظهم بالبقاء وقلة انتماعهم بالعبراه .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الأمويين الذين قابوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يهتمون بتوفير الجباية مع الظلم ليتمكنوا من اعمال العمران التي اقاموها واطعماء الحيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية نقل عندما ينكسر الحراج فلا يحمل شيء كثير منه لقمح او زلزال او وباء . واقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النبروز والمبرحان فيحمل اليه في النبروز وغيره وفي المبرحان عشرة آلاف . وهدايا النبروز والمبرحان مما رده عمر بن عبدالعزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سننها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان ننعشهم فانعشهم كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقىها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر اعمالاً جائرة حتى استخرج من اهلها اثني عشر الف الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردّها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا اياها واني قد رأيت الآن انه ليس عليّ في ذلك دون الله حساب وقد بدأت بنفسي والاقربين من اهل بيتي اقرأ يا مزاحم جعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا فيه الاقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذ عمر بيده فيقصه بالعلم اي المقراض .

ولقد اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق الناس وردّه على اهلهم واكلوه فقال : انكم اعطيتم في هذا الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله واني لاحسب سطر اموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا ردّته . قال ان سعد لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الحزبية عن كل مسلم وابعاح الاحماء كلها الا النقيع وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان الساجر يستغول تجارتهم كما يصالح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استريء الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردّها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورتهم وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف . اخرج من ايدي درنة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارضاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارقق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان لنفق عليه حتى يموت او يعنق .  
وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه  
البنس الذي قال الله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين فمن  
أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حسيبه . وحرّم عمر بن عبد العزيز الكلا  
في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيته والذي يتسير به على من ولي هذا الامر  
من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر  
فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من الاخماس حيث كانوا فان كانت  
الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطى المال من ستة آلاف على  
الاسلام وانه اعطى بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من  
المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احدهم اربعين  
سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل  
الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون في المسلمين  
والجزية الراتبه . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبته الله فليس احد احق  
به من احد . دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال  
كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك  
فقال عمر : من اين ذلك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن  
الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال لا والله ما القينه  
ولكن الله القاه . وكتب اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا  
الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل في كل  
مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من اهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى  
عامله ان لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى  
الاسلام فان قبلوا فكفف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فابذ اليهم على سواء .  
وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد اصححت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار  
والآفاق يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل  
بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها



دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان اخذ كل ذي حق حقه « اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد: رد عمر بن عبدالعزيز المظالم التي احقبها بنومروان فابغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . امامن جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا اشكالا ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى مات ترك عند احد فضلا وكان مبلغ ما اخذهم ثمانمائة الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك وكان الخلفاء من بني العباس يمدون الى ابطال الرسوم عندما تجلى لهم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء حلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام الموارد يث الى ذوي الارحام وان يطل ديوان الموارد . وحلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم . ومن حلف هذه القناطير المقطرة من الذهب لا بدله ان يظلم أمته وان لا يصرف اموالها في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً سائناً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجيباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف الموائنة وكف الازى » عن اهل عمله قائلاً فنقدم الى عمالك في ذلك اسد النقدمة واكتب الى عمال الحراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك . والمهدي مثلاً افنتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع ما حلفه المنصور وهو ستائة الف الف درهم واربعة عشر الف دينار سوى ما جباه في ايامه . والمأمون العباسي اقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتنب لتعديله مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقيق بن الوليد ليمسح اراضي دمشق كما كان يبعث اسماعيل بن عياض العنيسي الحمصي

الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . والخلفاء الأول من بني العباس كانوا اقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر نكفأً أمواجه على رياض كالزرايين واردة منها كفايات المؤمن الى بيوت اموالي فما برح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ووحش من القفر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته واكفي وليت اقواماً تنقل على اعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة اوقع باضرار الملك وانوه بالشنعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالخط الاوفر من مساءتي . والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن العلات خراجاً مقررأً ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والتبج . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمريين . قال ابن الانير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز مثله لكان القائل صادقاً فانه أعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كبيراً واطلق الكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كبيراً لا يحصى وفي ايام ابيه خربت العراق ونفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للتدة في نقاضي الجباية والنفن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربيعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلها ينظفون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهي عنده من الحور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان عنى لك عن النسبه والموقيف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك متسافية ومكاتبه في انكار الظلم وارالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من جوده البناء والمزارعين بديار ربيعة مسلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وتامة من اكراههم على تضمين نلات بهادرهم بالحزر والتقدير وانزامهم حتى الاعتسار في ضياعهم على التربع واستخراج الخراج منهم على اوفر عيرة قبل ادراك غلاتهم وتمازهم واكراه وجوهم ونمازهم على

ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة فاقلقتني ما افاضوا فيه من الشكوى  
والمني ما انتهوا الى وضعه من عظيم البلوى ووحدته مع قبيح ذكره وعظيم وزره عائداً  
مخرب الضياع ونقصان الارتفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيته على  
المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها  
واجمل سيرة حمدوها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها ونقطع اسبابها وتحسمها وتكتب  
الي بما يكون منك في ذلك فاني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله . »

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفي  
الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد  
صورة الطمفة من تطف العلاء في نصح الملوك والحللاء . وكتابه دستور في الجباية  
تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما حلا عصر من علماء يعون على العمال اعمالهم  
ويحافنهم عن ضرق الحق في معاملدة الامة وقلم كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين  
للخير من الخلفاء فمن دونهم .

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الحراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الأيوبيين  
بالشام فاخذ حمة الحزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات  
عقوبة لهم فبهي عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم . ونص  
الفقهاء انه لا يؤخذ نبي من نصراني اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج  
سها واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل  
ولا كبير حتى يبيع وقال مالك في النصراني يكرى ابلد من الشام الى المدينة ايوخذ  
منه في كرايتهم العشر بالمدينة قال لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راحعاً يؤخذ  
منه و يؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعمهم و يؤخذ من عبدهم كما يؤخذ  
من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون  
الى المدينة : ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة و ايس عليكم الا جز يتكم  
التي فرضنا عليكم وان خرجتم و ضربتم في البلاد و ادرتم اموالكم اخذنا منكم وفرضنا  
عليكم كما فرضنا جز يتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا  
من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ

منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .  
 زاد الاجحاف بحق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او  
 امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويخنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكا  
 من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لحوا  
 في الظلم والاستتار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك  
 العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجرين ( كما ستقف على ذلك في الكلام  
 على حلب ) . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من  
 تولى امرة الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للعليفة  
 ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذذاك في يد محمد بن طمع . وبينما كانت  
 الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان التقع في ايدي الاخشيدية اصحاب  
 مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون  
 اسوأ حالا .

وهكذا احتلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المعارم  
 والمطالم والحكومات لا تعرف واجبياً ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية  
 ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المائة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارى ملوكاً لا تحوط رعية	فعلام تؤخذ جزية ومكوس
وقال : عجم وعرب دائلون وكلنا	في الظلم اهل تشابه وحناس
وقال : ارى امراء الناس يمسون نمرهم	اذا خطفوا خطف الزاه اللوامع
وفي كل مصر حاكم فموفق	وطاع يجابي في اخس المطامع
وقال ايضاً : يقولون في المصر العدول وانما	حقيقة ما قالوا العدول عن الحق
ولست بمختار لقومي كونهم	قضاة ولا وضع الشهادة في رق
وقال : بكل ارض امير سوء	يضرب للناس شر سكة
وقال : ان العراق وان الشام مذ زمن	صفران ما بها الملك سلطان
ساس الانام تسياطين مسلطة	في كل مصر من الوالين تيطان
من ليس يحفل بخص الناس كلهم	ان بات يشرب خمر او هو مبطان

وقال : وجدت عنائم الاسلام نبيا  
 وقال : مل المقام فكم أعايرامة  
 لملو الرعية واستباحوا كيدها  
 ومن قوله : فشان ملو كهم عزف ونزف  
 وهم زعيمهم إتهاب مال  
 لاصحاب المعازف والملاهي  
 امرت بغير صلاحها امرأوها  
 وعدوا مصالحها وهم اجرأوها  
 واصحاب الامور حباية خرج  
 حرام الهب او إحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وحمسين الف دينار  
 واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف  
 وحمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وحمسين الف دينار وخراج قيسرين  
 والعواصم على اربعمائة الف وحمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والحزيرة واليمن  
 مثل ما فعل بالعراق من استنصاف ما كان للمولود من الضياع وتصيرها لنفسه حالصه واقطعها  
 اهل بيته وحاصه وهو اول من كانت له الصواحي في جميع البلاد . قال البلاذري وكانت  
 وظيفة الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثمانمائة  
 الف وحمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مائة وحمسين  
 الف دينار التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان  
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وحد حسابها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين  
 احرقت في الفتنة فتنه الامين على مارواه قدامة - ثمانمائة الف وثمانين الف دينار ارتفاع  
 قيسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانمائة الف دينار وارتفاع جند  
 دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار  
 وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وحمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثمانمائة الف دينار وخراج جند  
 الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار وبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في  
 الضياع ثمانمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضا مائتي الف وثمانين الف  
 دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار  
 وكان خراج قيسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل  
 وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وثمانين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين الف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت  
ثلثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاتراك وناثر سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف  
وقوي عامل كل جهة على ما يليه كثرت النفقات وقلت الجباية بتغلب الولاة على الاطراف  
قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قاسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن  
حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلثمائة الف وستين الف دينار وعلى الاردن مائة  
الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وثمانون الف دينار وعلى  
دمشق اربعمائة الف ونيف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات  
الجوية ومن الاراضي الحراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما اخذ المسلمون عنوة  
قال ابو يوسف : كل ارض اقتطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الحراج الا ان يصيرها  
الامام عشيرة والشام في ذلك كمصر والعراق ولانها كلها فتحت عنوة وفي النارخابية  
ان السلطان اذا دفع اراضي لامالك لها وهي تسمى الاراضي المملوكة الى قوم اعطوا  
الحراج جاز وطريق الحواز احد تينين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء  
الحراج او الاجارة بقدر الحراج ويكون المأخوذ منهم خراجا في حق الامام احرة  
في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والسامية ويؤخذ من  
هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان  
ما يأخذ منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او النيجاري ان كان عشرا فلا شيء  
عليهم غيره وان كان خراجا فكذلك .

قال الغزالي ان الاموال المصنعة الى الحزائن المعمورة اربعة اصناف الصنف الاول  
ارفع المستغلات وهي مأخوذة من اموال موروثه له والصنف الثاني اموال الحزبة  
والصنف الثالث اموال التركات والصنف الرابع اموال الحراج فهذه هي الاموال  
المأخوذة واخذها جائز ويبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع  
جهات وفيها تنحصر مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام  
الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحمال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرنانات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكن الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقرئ يزي : وكانت عادة الحلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبي اموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبموجب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرتب وفرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكبرها وقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت العلات واقتدى بفعله من جا بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعائة الى اوائل القرن التاسع .

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وايس في الشام من يبلغ شأوا كبيرا الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقار بهم في ذلك . ولخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المتاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قبرا او يلزم بتد الفلاحة والحال في غير الشام اسد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمير بدون ذلك بل انما تحرب البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وما عدا الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدرا من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج وما خلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجا وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحدها

صافية وهو ما استخلصه السلاطون خاصنه او هي الاملاك والاراضي التي حلا عنها اهلها اوماتوا ولا وارت لها -- ما عدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجباء اي يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززاً به من عمال الخراج حتى لا يجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذلك الكبير .

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة الملك ويطالبه لاحد امرين اما لامتناع من حور العمال وظلم الولاة وتلك مبرلة يطير بها سوء اثر العمال وضعف الملك واحلاله بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق واليسير له وهذه حلة يسديها آداب الرعية وينقص بها اموال الملك . وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملتجئين والمجأ اليهم ولكن الناس يلجئون املاً كما عتادوا باب الصولة . كما من مرة حربت سور يد اوصقع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها . دكروا ان الخليفة الحاكم اعنى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفنن المتواصلة وان الب ارسلان لما ولي امره حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وان نجم الدين ايل غازي بن ارق ( ٥١٤ ) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤمن والكلف واطل ما حدده الطلمعة من الحور والرسوم المكروهة وبلغ الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادر وارتكاب المطالم فلي يلقى اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامه في ولايته بالقوه من ظلمه وسوء فعله نخرت اعمال دمشق وحلا عنها اهلها وحلت الاماكن من قاطعها والغوطة من فلاحيتها .

والعالم ان المكوس والضرائب كبرت او اخر حكم العباسيين والعباسيين في الشام وبنى في البلاد رسوم كبيرة حتى ابطاها نور الدين واطل ابق الصوفي الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة حملة واطل صلاح الدين مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غله تحمل اليد كل سنة وتعين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية . قال ابن ابي حلي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي سماحه لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف دينار . والي الف اردب سماح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل



اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطال كثيراً من المظالم والمكوس وطير بلادهم من الفواحش والجمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت الولاية في اهلها قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم وأجغت . قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الحراج والاجور والزرع . وكذلك سكات من قبل سبرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكياله وغيرها وكان والله زنكي ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول معها كانت البلاد لنا فأبي حاجه لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تعني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها . ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان نلوا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم . قال ابو يعلى : تجتمع قوم من السبها العوام وعمرموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان ابطال وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعمرسة البقل والامار وصانهم من اعانت سرار الضمان وصلوله الاحناد وكرروا الحف عتو لهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بهض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وسرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا مما اهندوا الى صواب ولا يجمع لهم قصد في خطاب ولا حوار وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الفجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فتمت له السعادة وايتار العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر باناد بالرسوم المعنادة الى ما كانت من امانتها وتعفية اترثمانها وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه ابطال ضمان الهريسة والحن واللبن ورسوم كتبت منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان الكوس حرام فان ضم الوزير الى احذها الاحفاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين كانت الحباية الى الرفق في الحماة بلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالحراج والجزية . واسقط صلاح الدين فرضة الاتبان المقسطة على

اعمال دمشق وضياع الفوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والتاغور والعقيبة ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ما هو على الاتواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعاش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور ان اتقى الامراء من سمن كيسه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنها الا التافه وقد حلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يجب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة — سبعمائة الف الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة متقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران فيها ابرذهب برسم الحواري والنساء عدا الزياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا ما لا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومراقبتها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نجر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تسمين المكوس والخمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الحبايات ومحو اسمها واهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يسغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل صماناتها وقلد دخلها بهذا السبب كانت الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم نعتد لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن سرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل انفساع سنة تسع وستائة في الايام الطاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياع والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعه وثمانين الفا وخمسة مائة درهم قال : ومما

احطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كذن على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً ووسط المجموع ب ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بين ملك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال ميل ذلك وفيها ثمانمائة ونيّف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو ما تاتي قرية ونيّف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي : او قفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم السيباني القفطي ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدير دواوينها على الحر يدة بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد نقوه برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه : لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان المقاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المقاريد ما يزيد على الف فارس يحصل لواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرهم وارزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة اخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عساو حبوباً . ايقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجي فيها العسور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق السبع سبعائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهم ولا مهتم وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور . ولما قبض الاتراك والحرا كسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كبيرة جداً وزادوها هم وبنفنتوا في ضرر وبها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخمر في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته الملك الصالح اسمعيل حصل له اموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من

املاكهم وابطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فثمان الحثيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكيفات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطل الظاهر برقوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في بر الشام فثمان المعاني اي المغنين والمعنيات في الكرك والتسوك . وثمان المغاني كان معروفا في مصر فابطل سنة ٧٧٨ زمن الاسرف قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كبير مقرر على المعاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وابطل الماصر قلاوون فثمان المعاني ايضا وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البعايا وذلك لو خرجت احل امرأة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من الفدر المعين عليها لما قدر اكر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الناحسة وكان يحصل من ذلك جملة كسرة من المال .

لاجرم ان دولة الترك والجزا كسة في مصر والشام تسبه في كبير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي حلت بعدها وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر باطال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تحد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير دع سائر اسباب التروة من ناطق وصامت . والنوالة التي تحتمف عن رعاياها بالاقتوال ، والافعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئذ ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كبير المصادرات للارعة وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين احرقوا غالب البلاد السامية واحدث في ايامه اتسيا . كثيرة من ابواب المظالم الماكن يخرج الى التجار يد . والخروج الى التجار يد او الحملات كانت من جملة الاسباب التي نتهيا للملوك الحرا كسة ليسلوا الناس اموالهم ولا تكلف النجر يدة اقل من نصف مليون دينار فاذا حرد السلطان في حياته عشرين تحريده كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يحجى ، مليا من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالا عظيما من جميع الاملاك والاقواف بدمشق وخالصها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من العوطة من كل قرية تكثر اموالها بليت صمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والتعبير والقطن والحبوب على ستة معل سنة ثمان وتسعين وستائة فمعظم ذلك على الناس وهرب

حلق كبير واستخفي جماعة والذين وقعوا بأيديهم قطعوا اشجار الماقين وابععوها  
حطباً بحيث ابيعوا القنطار اليمسقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب  
ومن سدة الطلب وكمرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل  
احد حماية لاحد بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم وذلك لان الاستماع عليهم  
كانوا في مصياف لا يدفعون اسلحه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع .  
وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم السريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية  
اي يستجها ويعين عليها مالا كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية  
وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري واطل في هذ السنة مكوس  
العلة والشام وكن مبالغا عظيما يؤخذ من ثمن العرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما اطلوه في ادوار مختلفة من الرسوم وهو ما نورده متالاً من حالة تلك  
الايام ما اطله برفوق مما كان منقراً على البردارية في كل شهر من المال وما كان  
ياخذه السماسرة على العلال والكيالة وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة وما كان  
مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او ثمنها  
خمسائة درهم . وأبطل المنصور قلاوون من جملة ما اطل من المطالم وظيفه ناظر الزكاة  
وهو ان يؤخذ من عده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله ببقى ذلك  
القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من وراثته او من اقاربه ولو بقي منهم  
واحد . واطل الاسرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية  
بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل اطل المكوس والضرائب عن سائر  
اصناف العلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على  
السواري الاربع القائمة في مدخل جامع نبي أمية بدمشق من الغرب اربع وتائق في  
اطال المكوس كتبت كل نبقة على ساربة . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد تايقباي  
الجزاوي كفل المالك الشامية اطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها  
من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابوسعيد بن  
جقمق باطل المكوس على الاقسمة الحمصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة

تسارح سنة ٨٥٢ تقول بانه ورد مرسوم نيريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والخبز والقياس المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروج والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المطالب فنقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بابطال ما كان لثائب الشام على المحتسب في كل سنة وكذلك ابطال في القدس ما كان يجبي لثائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها باب الجامع الاقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الخندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مسامحة بال عظيم وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط ناعمة طرابلس وهذا النفاوت ايام الدوران ما بين السنين التمسية والقمرية . وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الحرا كسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة وتقوداً وكر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكبيراً ما كانوا يحسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغتسون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تخبط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ويتولى المالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فار كبه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين .

وكانت ايام الحرا كسة فريدة بثروة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة واكن

التروية كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم تانياً بلاء عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم تامية وافرد على اوقاف الخوامع والمساحد اجرة ثلاثة اشهر فترايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر السامي فقد تنوعت انواعها في عهد الحرا كسة ومنها ما كان الخلف يلفيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبر عاتكة ومحلة القبيبات وقرية القابون في دمشق سنة ٨٣٢ رحالاً على حاري عادة الفتن فبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباي الاشراف الى صالحة دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان باطال طرح السكر ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموي والقاعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الطن الغالب انهم لا يفوا بذلك لما علم من عادة السلطان . وترى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الغاء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداس أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلاماً من الدالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ باطال الملك الطاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ باطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ باطال مكس الزيتون من قري عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ باطال ما تجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كذب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الخناوية ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها بابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسسي . ومعظم هذه الاوامر المسطورة على الاعمدة مشفوعة بحملة ملعون ان ملعون من جردها او يعيدها الى غير ذلك من استلاب اللعنات على من يجردها ومنها كانت الله ورسوله حشمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد فما كان في طرابلس لا يجبي منه في حمص وما كان في القدس لا عهد للحلب به وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهاك أمثلة أخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بابطال المطالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والحز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٢ وفي مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخايف وما يستأديه من يكون منكم في ديوان الحبوبية الكري واستاد دارية الديوان الشريف من سكر وحل وغير ذلك ومن طرح الصابون والزيت والبلس ( البوتاس ) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والخدام الحاربية بها العادة قديما والحادية مستقبلا وعلى حائط مدرسة التسمية امر كذب سنة ٨٢٦ بابطال الملك اسرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالريد ورسم الملك الاسرف بابطال التحكمير بالخانات وانكوس على الخطب والتين وغيره وجبر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سُمح عوام القدموس بما على احوال الخياكة وحراج الكروم بالقدموس مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطال ما تجدد على عوام القدموس



والكهف والمنيقة والعليقة والحوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على النخيرة ( المسخ ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم تمانون درهماً و بابطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجوبية ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسبين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ أبطل مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وابطل مكس نخيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والحوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف ان لا يكرهوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس الشام وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من بانس العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . والغني فانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

وبذلك رأينا ان الغناء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوأ ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبدل وفتح باب قبول البدل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناسير وهو مبلغ ثلثمائة درهم فما فوقها والخلاصة فان الجراكسة نفنوا في طرح المكوس ومن غرّبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شحصاً من المماليك الجراكسة كتف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الاسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس فمن وجده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس ففجج منه الناس وتكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله و كسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيماً .

\*\*\*

اتهي دور الجراكسة المحزن المرض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ابام رغد وسعادة لانها دولة جديدة تُتخامى ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملاً خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابيب بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه والا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » مختومة بخاتم سليم . لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرحمون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظرهم وعلى شيء من الانظام في الجملة تسد مغانمها نهمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الخمال ما يكفي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاؤا من نوات المغلوبين وبنبيهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشتاق والارناؤد والرومان والصرب والبغار والمجر والطلليان والروس والبولونيين وغيرهم من ام اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق ( ٩٢٢ ) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عمر يش مصر الى جان بردي العزالي على مال معين قال ان طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم العزي ان هذا السلطان نقى في ضرب المكوس ومن جعلتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبداء تلعبه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسيها مظالم الدولة الجركسية محدث ما تثت ان تحدث عما احدته اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج اباله الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من ساء السلطان ابراهيم وكان الجابي يأتي دمشق فيجيبها بنفسه لان ساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل ايالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر ننفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجابها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانحة مليون اقچه (١) ولا مير لوائها من مئتين الى ثلاثمائة الف اقچه وفيها ١٢٨ زعامه و ٨٦٦ اقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايالة طرابلس وارثانها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقچه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وايالة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقچه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقچه وفي هذه الايالة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ اقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة .

وكانت الدولة تستوي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقجات باره وكل ٤٠ باره قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكانت وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيته ٨٠ اقچه . واول من استعمل الاقچه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال الباراه فاستتبر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأى ان كل باره تحسب قرشاً وكانت الباراه تساوي ثلاث اقجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في ادبار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فابطل مكس الحمارات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ثم ابطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم ويدفع المال عن ارباب يبيع ديناراً عثمانيًا كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ما كفا لذلك اليسق كيف اراد فادى ذلك الى تمويل الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك وابطل اليسق من باب القاضي ورتبت الانكشارية مالا على البضائع المجلوبة . وابطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنئين جديدة وعتيقة وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم . وهذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريش تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيارف والمرايين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادر والنصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاشراف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه . وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان نجرالدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة . ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بتشير كالا مير نجرالدين يحب البذخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة اضعاف . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام اموالا طائلة وصار جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادرة عامة تتناول من في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثساني عشر والتسالت عشر في سلسلة مغارم

ومطالم فقد تولى احمد باتا الجزائر دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ و كانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ينهبها من جهات و يطرحها على أخرى باسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا و احد قتل في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر و يأخذون منهم مالا غزيراً وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على اشبع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسج فهو كالجزار فيهم يذكر الله و يذبح  
قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل التام بالظلم واكرامية الباشا من  
البلاد واشتغل حسن آغا بالطلم في دمشق وارهاق القرى بالطردحة والاكراميات  
واقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق .  
وفي سنة ١٢٤٧ كادت محاولة سليم باتا والي التام وضع «مصريتين» ضربة على كل  
سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان ( اي في  
اوائل القرن الثالث عشر ) ليست لحفظ املاك ولا لحفظ ابدان وانما هي مجرد ظلم وعدوان  
فان غالب مصارف الوالي واتباعه وعمارات منزله ومبزل عساكره وما يدفعه الى رسل  
السلطان الواردين باوامر ونوامٍ وامثال ذلك كله يأخذه من القرى و يسمون ذلك  
بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين و يزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه وحواسيه  
من اعيان البلدة وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية وتارة يقسمونه على  
مقدار حق التسرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له  
ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً وكذا يجعلون منها على رقاب  
الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها وتحمن  
على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية  
تؤخذ من البيوت في التام في كل سنة ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس  
اشار اليها الاكرومي بقوله :

لحما لله ايام العوارض انبها هموم لروءياها تشيب العوارض  
يضيق لها صدري واني اشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انقلت بها في القرن الماضي قري رمزارع كبيرة في سهل الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن مدكها ورضوا بالاستعباد على ان يكونوا احراراً مالكين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتحلصاً من الصرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطلبة يوم تدق في قريتهم ويحییء اعوان الظلمة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من المولات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل العراة من جنس هذا النساطق المتمرّد ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تسزف دماء الامة واموالها وقلمافكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق ويقم بينها قسطاط العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذذاك يعطي رسوم كارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكسير ولذلك اضطر بعض التجار الى اتباع حماية الاحاب حتى يستطيعوا ان تحروا وهذا كان مبدأ امتداد الامتيازات الاجنبية . كذب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأيلة اجنبية يقتضي الانتفاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض مادفعه من المالب وجمع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقلاً كاهلهم بالصرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرثي جماعة الاستانة لتسقيم له الولاية مدة يواصل فيها اسذراف الاموال واملاء جيوبهم بها . قال : فذشاً عن ذلك مظالم لا تطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الايالة ولاة غير اكفاء للمنصب جائرون مرتشون ظماعون في جمع المالب لا تشبع بطونهم خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢هـ

كانت تقسم الى ايلتين ايلة دمتق وايلة صيدا ودخل الاولى التي هي عارة عن دمتق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعبك ومعة النعمان وعجلون والباق وحاصبيا وراشيا وهوران وجبل الدروز وحصن الاكراد والقنيطرة وايكي قهولي من الحراج والاعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وهوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعة النعمان وعجلون عيناً من الاعشار والرسوم وهو ١٨٧٥٩ اردناً من القمح و٢٥٨٨٤ اردناً من الشعير و٩٥١ من الذرة و١٣٣٩٣ اوقة سمن و٣٢٠ اوقة حرير و١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل ايلة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والاقضية الشمسية ١٥٤ ٣١ كياساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والتعير والذره والكرسنة والسسم والعس والسمن والزيت والفيالج والقطن .

وكان مجموع دخل ايلة دمتق ١٨٥ الف ايرة على ذاك العهد وايلة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً . كذب المستر برانت فنصل انكلترا في دمتق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة ايلة دمشق في ١٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب ماياتي : «ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استناب الامن وعدم نحل الحكومة على الشعب كانوا يكفيان لاقتناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها وكان الدخل يدار براهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد ونقوم بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً اماحالة اليوم ( اي على عهد الحكم التركي ) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق (١) مع انها أقل من ذي قبل والامن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراثة الاراضي وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السور بين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لولم يكونوا من عناصر واديان مختلفة قلنا ومن حسنات ابراهيم باشا انه ابطل الرشي والاصطناع وابطل المصادرات وقرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ اقرتاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولما عاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوها بضريبة على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتكاكات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات المحدثتة للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه يجبي منها عشرة آلاف كيس وبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه يتعذر جباية قسم منها .

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجنود فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال وما عدا بعض الرحال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل و بسوء تأتير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الحراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعتسار البلاد وقل البديل العسكري وحدثت ما شئت عن بلية «القائمة» فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقى النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى



الجنوب وحلب في أقصى الشمال على هذه الصورة أو أشد لأن روح المملاكة كانت واحدة وهي المركزية التديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها اسبه بالفوضى . ولم نغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارباعات زادت في العقود الاربعه الاخيره لانتشار الامن في الحملة بنأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيت في البلاد القريبة من المعمر بعد ان كانت تأتي لآخذ الحوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه النيار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتراد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كبا سلفت عنها الولايات التابعة تزيد في مقدار الحماية والمطالم على بلادها فالسحل ينقص على الدواب يسلم المالك من جسمها والحرج يزيد لان اهل الاستانة ناله على اهل الولايات يتقى هو لا ايعم اوائك وبنوا القديور وتمنعوا الرلدان والخور .

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العتور حتى بلغت ثلاثة عشر اربعا في المئة تؤخذ من الحاصل والحصول ندا ما لحقها من ظلم الملتزمين والعتارين وهو قد بلغ عشرين في المئة في بعض الاضحاء ولم يكنها زياده الاموال والضرائب الاخرى الى ضعفين بل الى اضعاف ما كانت تبلى عشرين سنة بل زادت في العشر والحراج زياده مبهمة مدة الحرب العامة دغ ما احده من التكاليف الحربية واستابته من اموال النلاحين وعروضهم ومواسيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من المانيا لعقها على الخمس الذي جمعته وبالبته من القاصية لولا ذلك ابقي عسرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامرا ولا ضت الحال اعس مما كانت قبل سنين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم اقله الايدي العاملة فيجدون اناسا من العبيد لا يخدمونهم في الحرت والكرث .

وبعد الحرب كبرت الحماية والمغارم في بلاد الشام خصوصا اقله الذهب في الايدي والاستعاضة عنه بالورق القدي فزادت الخباية في بعض النحال اربعة اضعاف فعالت

التكوى واخذت اسعار البياعات تعلو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا ينزل ويرفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة او لم تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من ذي قبل على صفار عمالها وكبارهم لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشي والتلاعب بحق المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة فانفجرت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واحذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاعشار والاستعاضة عنها بما لم مقطوع وزادت الضرائب على العقارات نسبة احورها .

لاجرم ان الاموال اذا حيت كما تجبي في البلاد المتمدنة بالرفق وبحسب طاقة المكلفين يتوازن مع الزمن الدخل والخرج بل قد يزيد الاول على الثاني ادا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكفي الشام بما تحرحه لها ارضها و يفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية و رصف الطرق و تعبيدها في المدن و بين القرى و على الاسلاك الرقية والكهربائية والهاتفية وتجفيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب . وكل مملكة تسب عجزها بالاقتراض ولا تستمر بايدي رحاها ما في سطحها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعداد الاقتصادي وهو اشع خسروب الاستعداد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبها بطرق العدل ، ولا تنذل على المرافق العامة منها الفصل ، نحل بل تشحول .

محمد كرد علي



## القضاء في الاسلام<sup>(١)</sup>

رأيت ايها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضاء في الاسلام  
لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضاء هو افضل مظهر يمتثل به العدل . وادل العدل الذي جعل به  
ارسطو « قوام العالم » الا ركن الملك الوطيد ، لا يثبت له بيان الا عليه .  
ولا يستقيم للدول امر الا معه . ولا سيما ان تأسيسها واوائل نشأتها كالدنيا  
الحاضرة . فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، نزيه . فلا عدل . واذا لم يكن  
عدل ، فلا سبيل الى البقاء .

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان . الى ان جعلوا يجرجونه عما وضع له . وتأولونه  
على غير ما أريد به ، خير قضاء عرفه الاس . ممتلا لروح العدل ، متكياً  
مع المكان ، متمشياً مع الزمان . وكان قضاؤه حتى منتصف العصر العباسي ،  
انزه قضاة عرفهم التاريخ ، لامستنياً احداً من مشارق الارض ومقار بها .  
في حاصر الانام وغايرها .

ثالثاً — ان المهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت التنام الذي كانت سداته القرون الوسطى  
- قرون الحمول والجمود - على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلافنا  
مما يدعو الى الاعجاب والمفاخرة غير . ان اكثر ما عرفناه فملاً لنا به الكتب  
الحديثة ، كان في الادب ورجاله . والآداب الرفيعة وذويها ، وما الى ذلك .  
اما القضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلاً مما لا يغني الغناء  
كله ، بل مما قد تكون معرفته تسراً من جهله . فاذا كانت الناشئة اليوم ،  
تعرف رجالات الادب . والتاريخ في العرب . محري بها ان تعرف شيئاً

(١) ألقى هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ و ٢٩ تموز ١٩٢١ م .

صحيحة عن القضاء وتاريخه ورجالهم وكيف كان ، وإلى أية حال صار . اتماماً  
للنأدب وخدمة للتاريخ .

رابعاً -- انا وان كنا نعلم ان الامجاد التاريخية القديمة ، لا تكفل الامة ارتقاها  
وتعزيز مكاثرها ، ان لم يمض الالمانا على سنن الآباء ، و يمشفوا الى تليد  
المجد طريقه . فلننا ننكر ان التحدث بانجد ، داع الى النشاط . داع  
للهمم من مراقدها . نواع بالنفوس . وقد عرفت سابق سرها . واسبق  
غرسها -- الى الاقتداء بالسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل الهمم  
العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معوان » .

، ، ،

ولا ارى لي بدا قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اتقول ان هذا  
القضاء قائم بنفسه ، لاصلته البنية الشرعية الرومانية . اما الذين يذهبون الى ان الشرع  
الاسلامي ، هو في جملة التمرائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه التريعة .  
فانما يذهبون مذهباً لا ينهض به حجة ، ولا يؤيده دليل . ومع هذا فقد احاب  
مدعاه شيئاً من القيمة في بعض العقول والنفوس . ونكي لا يحجى قولنا مجرداً عن الدهران  
كما جاء قول الغامخين ، نعززه بالادلة الآتية :

أ -- ان القضاء في الاسلام . وان كان احقر شيء مدة ، تباع الترتين . فليس  
يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن التريعة الرومانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة .  
بل بما مع الحاجة وعلى الآباء . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مدادره  
معروفة : الكتاب ، والسنة صراحة او استنباح او قياساً . ثم اسيف الى ذلك  
الاجماع .

وبل يصح في شرع عرفت مصادره ، و بيست فيه طرق الاستنباح ووجوه القياس .  
ان يقال فيه : انه شرع نقل عن غيره او استمد منه .

٣ - ان التاريخ ذكر انما احده العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم .  
من العلوم بعضها او كلها . كالمسعة والطب والفلك والمنجي ، وسائر العلوم الكونية .  
فعرفنا اسماء المترجمين والمربين . في كل فن وتعلم . وعرفنا المصادر التي اخذوا منها . واللغات

التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من ميل ذلك في القنا .  
 ٣ ان العلوم المنقولة بقيت عليها في اعتبارها . سعة من العجمة ، وفي معردياتها ،  
 غريبة عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد جاء عربها صحيحة مفردا ومركما . فادا  
 وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض النون العربية العجمة كالادب مثلا .  
 وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المولعون النرس . تماثقات منهم الى من اخذ  
 عنهم . او كانت مما اتمضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ - اذا كان بين التريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فدا ان التريعه في  
 كل امة تعقد في مصادرهما ايضا على العرب والعادات ، والالات الطبيعية . ويكثر  
 ان تشترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عند  
 اهل الدارة من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كالتقوا بين المرخوعة .

ثم لو صح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القوانين الروماني ، لما كانت سلمت  
 من ان يسرب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من الخرجات التي كانت تجري في  
 مواطن هذا القانون ، لذلك العهد وما بعده . كمن محاكمه النبيونات ، والقنا ، اليها شيء  
 ارتعذت او اصل . وكسبت الموتى ونحوها ، واحدا من الاحكام اليها . وهذا ما تمنا  
 عند هذه الشريعة علوا كبيرا .

٥ - لو صح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان  
 يكون موطن الاستراع الاسلامي ، او احد مواطنه . في اقل ما يكون . بلدا  
 من البلاد التي كانت خاضعة لسلطان روما ، نازله على احكام تايوتها . وهذا ما لم يكن  
 شيء .

ونمة وجه آخر لا يجدر السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ،  
 كان من قبل متبوسا معقدا . لم يطور بشكاه الاخير الا بعد ان لانت الفرنجة العرب  
 في الاناس ، احذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كثير من واوردوا عليه أدلة عقلية  
 واثمة . ليس من عرضة بالآن ان نأتي بها . وادان نحن . اننا بين هذين الرأيين : رأي القائلين  
 بان الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني . وهو رأي قد تكشفت مقاتله .  
 ورأي القائلين : ان الشريعة الاسلامية هي التي امدت هذا القانون فصيرته ما هو .

- لكانت كفة هذا الرأي هي الراجحة . وحجة القائلين به ، أقرب للعقل . وأوزن في النقل .  
 لذلك نستطيع ان نقول : ان القضاء الذي نكلم عنه ، هو قضاء لا اثر للنقل فيه .  
 ولا فضل في وضعه لغير ذويه . ولسلفه من قبله .  
 وسيدور بحثنا على أربعة أمور :
- ( ١ ) القضاء في العرب قبل الاسلام .
  - ( ٢ ) القضاة ، والقضاء وما يؤخذ عليه .
  - ( ٣ ) آداب القضاء والقضاة .
  - ( ٤ ) مقارنة بين القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام .

\* \* \*

القضاء قبل الاسلام -- كان العرب يسمون القضاء حكومة . والقاضي حكام .  
 ولم تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قرنتس . فكانت عندهم في جملة المناصب الخمسة  
 عشر التي كانوا يتولونها قبل الاسلام . وكان ممن تولى الحكومة فيهم داهم بن عبدمناف ،  
 وابنه عبدالله ، وابوطالب بن عبدالمطلب ، والعاص بن وائل .  
 واما في سائر القبائل ، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها . فاذا وقع خصومة  
 احتكروا اليه ، ويفصل بينهم بما أوتيته من الحكمة والعقل ، وما جرت عليه العادة .  
 كما كتبت من صيقي ، الذي كان يعد من رؤساء المحكمين . والحاجب بن زرارة ، والاقرب  
 ابن حابس في تميم .

وكانوا يرجعون ايضاً في خصومتهم الى الكهان . اذ كانت الحكومة تدرج تحت  
 علمهم الذي هو الكهانة . كسطيح الدئي ، المعروف بسطيح الكاهن . وثقي امار .  
 اما حيث كان يكون مالك او امير ، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جملة  
 الحكومة . الا ان يكل ذلك الى غيره .

وكانت الحكومة عندهم فطرية سادجة ، كحسائهم الاجتماعية . ايس لها قوانين  
 موضوعة ، ولا سرائع منبوعة ، الا ما كان من قبيل العرف والعادة . واعل الحكومة  
 كانت محملة عندهم في القول المأثور عن قس بن ساعدة « البينة على من ادعى واليمين على  
 من انكر » وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداء ، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

حارية في ايامه وقبلها . وهي انهم كانوا يسألون البيعة من ادعى ، واليمين على ادعى عليه .

\* \* \*

القضاء . والقضاء في الاسلام - - لما جاء الاسلام ، ظلت الحالة في بادئ الامر على ما كانت عليه من قبل . فلا يكن في ايام الرسول حكم غيرد . وكذلك كانت الامر ايام حليفته ابي بكر .

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قلاً ، منحصرأ في جنوبي الجزيرة . وكان قدمت في روع الناس آدانا سامية . وبعث فيهم أخلاقاً عالية . حلت لب من دخل فيه إغماً وافتناناً . وحركت قلوبهم رحمة وحناناً . وملكتم عليهم عواطفهم . فقلت الخصومات في تلك الفترة . وحف اعنداء هو لاء الناس بعضهم على بعض . وكان اذا وقع شيء من ذلك اجتمعوا الى صاحب الرسالة فيقضي بينهم ، او اسدنوا اصحابه ، ونزلوا عند قتيابهم .

بل بلغ الامر فوق ذلك ، وكانت الرجل اذا احترم جاء من ذات نفسه ، يقول : يا ببي الله : لقد كن مني كيت وكيت .

ان زوما هذا شأنه ، لا يحتاج الى قضاء اخفاء . ولا الى قوانين محددة . بل كان حسه ما كان فيه . من كتاب الله وسنة نبيه .

فلما امتد سلطان الخلافة الى العراق والسام . واتسعت رقعة الملك . اتلمت تلك الصراحة التي كانت في بأناة الاسلام . بعد ان دخل فيه كثير من الاقوام رغبة او رغبة . لذلك ، ولاشتمعال الخليفة عمر تشديراً هذا الملك ، رأى ان يجعل القضاء عملاً مستقلاً خاصاً . فعهد فيه الى ثلاثة تجبرهم من اهل الدين والعلم . فجعل ارا الدرء معه في المدينة . وبعث سريجاً الى البصرة . وولى ابا موسى الأشعري بالكوفة . فكانوا اول قضاء في الاسلام ، كما كانت عمر . على اصح الروايات . اول من دفع القضاء الى غيره .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

ان يسار بن ضنه العبسي ، وكان حكماً في الجاهلية . فابي كعب (١) . فولى عمرو ، عثمان بن قيس بن ابي العاص (٢) فاتخذها عمال مصر سنة . فكانوا هم يولون القضاء . واستمر ذلك الى ايام بني العباس . فلما قام ابو جعفر المنصور جعل لنفسه هذا الحق ، فولى عبد الله بن لبيعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥ هـ . اما الوظيفة (٣) التي كان يجر بها عمر على القاضي ، فمئة درهم كل شهر ، وموئله من الخنطة . وهكذا فعل عثمان وعلي . فولى الاول زيد بن ثابت . وولى الثاني شريحاً ، وابا الاسود الدؤلي .

وجاء بنو أمية فمضوا على ذلك ، فجعل معاوية على قضائه فضالفة بن عبيد الانصاري . فلما مات . استنقضى ابا ادريس الحولاني . غير ان وظائف القضاء زادت ايام بني أمية زيادة مذكورة ، فبلغت الف دينار في السنة .

وكان عدد القضاء ، يكثر ويقل حسب الحاجة . حتى ان بغداد لما تكاثرت عدد سكانها . وكثرت خصوماتهم . ولى عليها الرشيد جماعة من القضاة . وجعل ابا يوسف المشهور ، قاضي القضاء — وهو اول من تلقب بهذا اللقب — وفوض اليه تولية قضاء بغداد . ثم قضاة سائر الامصار . وجعل ابو يوسف للقضاة لباساً خاصاً يتميزون به . اما وظائف القضاء في ايام بني العباس فقد كانت اقل منها في عهد بني أمية . اذ دعت الى ثلاثين ديناراً في الشهر . حتى بلغت ايام المأمون مائتين وسبعين ديناراً في السنة . فلما ملك ابن طولون ، أعادها الى مثل ما كانت في عهد بني أمية . اي الف دينار في السنة . غير ان المطلب بن عبد الله الحزاعي ، والي المأمون على مصر ، أجرى على قاضيه المضل ابن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر . وهو اول قاضٍ أُجرى عليه هذا . وكان عيسى بن المنكدر مقلداً . وأجرى عليه عبد الله بن طاهر ، والي مصر سبعة دنانير كل يوم ،

(١) وفي « اخبار قضاة مصر » : ان عمراً قال لكعب لا بد من السمع والطاعة لامير المؤمنين فاقض حتى اكتب لامير المؤمنين فقضى لكعب حتى اعفاه عمر . وكان قضاؤه فيها شهرين .

(٢) وفي اخبار القضاة قيس بن ابي العاص بدلاً من عثمان بن قيس ولعل ما نقلناه هنا اصح لانه عاد فيما بعد فقال عثمان بن قيس .

(٣) الوظيفة ما يقدر لصاحب العمل من طعام او رزق .



او اربعة آلاف درهم في الشهر . وهو اول قاضٍ أُجري عليه ذلك . واجازه بالف دينار . واجرى المتوكل على بكر التقي في الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً . وكان ابوالجيش خمارويه بن احمد بن طولون يجلب قاضيه محمد بن عبدة بن حرب ويعظمه ويميري عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار .  
ثم اخذت وظائف القضاة — وقد وقع في الدولة من الضعف والوهن ما وقع — لتقلب من حال الى حال . حتى اصبح القضاء تجارة واصبح القاضي يضمن القضاء على مال معلوم يقدمه كل سنة .

\*\*\*

مصادر القضاء :— فلما ان للقضاء في الاسلام مصادر خاصة استقى منها واعتمد

عليها وهي :

- (١) الكتاب الكريم . وهو القرآن
- (٢) السنة الشريفة: وهي اقوال الرسول وافعاله .
- (٣) الاجماع: وهو اتفاق مجتهدي الامة بعد النبي في عصر من العصور على امر من الامور .
- (٤) القياس : وهو حمل معلوم على معلوم : اي الحاقه به في حكمه لمشابهة بينهما . وهو انما يستنبط من الثلاثة الاول .

كان الرسول يرجع في قضائه في الامور الدينية والدينية الى الكتاب الكريم، والى ما نزل به له فطنه ويوحيه اليه الحق . فلما توفي : كانت اقواله واعماله هدى لمن قضى بعده . فاضيف بذلك الى الكتاب — وهو المصدر الاول للقضاء — المصدر الثاني وهو السنة . ثم كانوا اذا اشكل عليهم امر فلم يجدوا له نصاً في كتاب ولا سنة . فاسوه بما شابهه : فكان القياس وهو قد بدى به قبل الاجماع : وان اخروه بالترتيب عنه لما ذكرنا من انه يستنبط ايضاً من الاجماع . يؤيد ذلك ما قاله الامام عمر في كتابه المشهور الى ابي موسى : يوم ولاء الكوفة :

« اللهم : فيما يتألمج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال

والاشباه : وقس الامور بنظائرهما . . . »

فنحن نرى ان القياس بدى به منذ ذلك التاريخ او قبله . يوم لم يكن اجماع بل

يوم كانت القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه . وكثيراً ما كانت يختلف احكامهم واقوالهم . لاختلاف في الآراء : او طرق الاجتهاد : او مناهج القياس .

### وقد جاء في الوسيط :

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين : ولم يدون فيه كتاب : الا ما كان من امر كتابة المصحف . وكان مرجع الناس في امر دينهم وديانهم كتاب الله وسنة رسوله . فاذا اشتبه عليهم امر من الامور ، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، او استخاروا الله فيه ، واستنظروا باجتهادهم رأياً عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتاوى الصحابة ، خشية ان يجرم ذلك الى الاعتماد على الكتب ، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولان الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتعريف . »

« ثم لما حدثت الفتن ، وتعددت المذاهب والنحل ، وكثرت الاقوال والفتاوى ، والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء ، ومات اكثر الصحابة . خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله . فاذن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن بكر محمد بن حزم — نائبه على المدينة في القضاء والولاية — ان يدون الحديث ، بعد ان استخار الله اربعين يوماً . فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار . فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة ، يستمدون منها ويقيسون عليها ، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا . »

فلما كان العصر العباسي ، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة . وجعل يحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقهاء . ولم يدخر وسعاً في الحوائز السنية في هذا السبيل . فمضوا فيما رغب فيه . واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية ، ومنها القضاء . وكانت القراءة والفقهاء والتفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً . فجعلت لتمييز على توالي الايام ، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر . فلما استقل الفقه سمي اصحابه الفقهاء وكانوا قبلاً يعرفون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجهد بها العرب في اول امرهم .

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس ، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث ، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثروا من القياس ومبروا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك بن انس ، والشافعي من بعده . » ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفريقان في معرفته . وتتأعن ذلك عدة مذاهب . اشهرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنبلي ، فكانا والمذهبين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رخصها الأمة في امر دينها وديانها الى يومنا هذا .

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عن شافه اصحابه ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صح عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأي والقياس »  
« وتابعه في ذلك اكثر ائمة العراق لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم »  
« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث »  
« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد »  
« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة متوابعاً بشيء من القياس والرأي »  
المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فقلده قليل . لبعده مذهبه عن الاجتهاد . . . . . واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث . واما ابو حنيفة فقلده اليوم اهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العجم

(١) ولد سنة ٨٠ — وتوفي ١٥٠ (٢) ولد سنة ٩٥ — وتوفي سنة ١٧٩ (٣) ولد سنة

١٥٠ — وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق وكان تلميذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستظرف وانظار غربية . »

« واما الشافعي فقلده مصر اكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر . . . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »

« واما مالك فاخص بمذهبه اهل المغرب والاندلس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقصروا عن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ و امامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ، ممن لم تصل اليهم طريقته . وايضاً ، فالبداوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البداوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ولم يأخذوا بتلقي الحضارة وتبنيها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بياناً لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .  
اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاذ العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد التتر .

والمذهب المالكي في المغرب كالأقصاء واوسطه وادناه

والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تلميذ وردت من خطب النساخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذ . (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .

بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لانتشار مذهبي ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجود الصواب — ليس بالسبب الذي استعمل بهذا الامر . بل اعل السبب الذي اتى به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى نال : ( ١ )

« مذهب ان انتشرافي مبداء امره بالرياسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كانت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه واستتمن اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكياً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يولي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره . ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يبل قضاء قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم : وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما اتفق لمذهب السافعي : من نصرة محمود بن سبكتكين ونظام المملك له في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

\* \* \*

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف النقباء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كأنه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا همته الى وضع الشروح والتعليق والحواشي . على ما كانت كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل الممل : والابحاث العميقة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من دلت الجمود والانحطاط . قال السيد عبد الله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تعمق الابحاث وتضيق الكتب حتى خرجت بالشريعة الحنيفة السمحاء عن

الرفق والسذاجة »

( ١ ) ان خلكن .

وفي هذا الصدد والمعنى: يقول بن قيم الجوزية في كتابه «الطرق الحكيمية»: معترضاً على الذين قصر واعقولهم واعمالهم على ما كان من احكام السلف: غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان:

« وهذا موضع منزلة اقدم ومضلة افهام . وهو مقام ضنك : ومعتك صعب فرط فيه طائفة فعملوا الحدود وضيعوا الحقوق . وجرأوا اهل الفجور على الفساد . وجعلوا الشريعة قاصرة لانقوم بمصالح العباد : محتاجة الى غيرها . وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والذبيذله . . . . . ظأمنهم منافاة التواعد الشرع »

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به :

«واقدم كان عبد الله بن عمر اذا احتجوا عليه بابيه يقول : ان عمر لم يرد ما تقولون فاذا اكتبوا

تاليه قال : افرسول الله احق ان يتبع ام عمر ؟

والمقصود : ان هذا وامثاله سياسة جزئية : بحسب المصلحة : تختلف باختلاف الازمنة .

فظنهم من ظنهم اشرائع عامة لازمة الى يوم القيامة »

ومن هذا الباب : ما ذكره المحطاي قال : ( ١ ) « كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي

قاضي مصر — يذاكرني بالمسائل فاجبت يوماً في مسألة فقال لي : ما هذا قول ابي حنيفة . فقلت

له : ايها القاضي او كما قاله ابو حنيفة اقول به . قال ما ظننتك الا مقلداً . فقلت له : وهل قلد

الاعصي . فقال لي او غبي . فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً »

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابي ثور ثم صار يختار . جميع احكامه

بمصر باختياره .

فغريب : ان يضيق الناس بعد ذلك على انقسم هذا الضيق . فيزعموا

ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم . ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان

قباهم . ولو انهم نظروا نظرة صادقة ، لرأوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة . ولو انه جاز

للسلف ان يضع الخلف احكاماً في امور دنياهم ثابتة راسخة . لا تتغير ولا تتبدل . لكان ذلك

حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين . بل بالرسول نفسه . اما وانهم لم يفعلوا ولم

يفعل . فذاك ان لكل زمان حوادثه . ولكل حوادث احكامها

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجاهدين :  
ما جاء في كتب السير :

« اراد النبي — صلى الله عليه وسلم — في بعض الحروب ان يعطي نصف اثار  
نخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لثلاثي جاربوه مع قريش . فلما سمع السعدان : سعد بن  
عبادة رئيس الحزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الاوس . قالوا : يا رسول الله . هل  
ذلك بوحى من الله ام رأي رأيت . قال بل رأي رأيت . فقالوا : لا وحقك لا  
نعطيهم نصف ثمة . فاجابهما الرسول الى ما رأيا .

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل  
للقض والتغيير . انما هي السنة المنفذة المنصوصات » .  
ومن هذا القبيل :

« ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول . وعمل خلفائه الراشدين . والصحابة  
من بعدهم منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابوموسى الاشعري وابن عباس  
وانس بن مالك ولا يخالف لهم في الصحابة . وقال بها من التابعين : سعيد بن المسيب  
وعطاء بن ابي رباح والزهرى واباس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه . ومن  
بعدهم : الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم »  
فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل . اباحنيفة واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا :  
ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه . وهو قد يقع بين الاجانب . وينبغي بين الاقارب . »  
واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل :

« السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد  
عن الفساد . وان لم يضعه الرسول . ولا نزل به وحى . فان اردت بقولك — الأما وافق  
الشرع — اي لم يخالف ما نطق به الشرع . فصحيح . وان اردت — ان لا سياسة  
الا ما نطق به الشرع — فغلط . وتغليط للصحابة .

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها .  
ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه . فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكيمية . والقافة : الحاق الابن بابيه لمشايبته له .

على شيء من مثلها . وان قضت به حالة زمانهم . بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة .  
ولكنه مجرد اجتهاد في الرأي .

لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم . و يفسروا الشريعة  
حسب اهوائهم . فاحتاطوا للامر بان جعلوا للاجتهاد باباً محددآ لا يفتح على  
مصراعيه . ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تضيقاً فصاروا الى ما صاروا اليه .  
واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليدهم الاعمى . حتى ضاقت حلقات الاحكام .  
عن ان تتسع لحاجات الايام . والزمان تتجدد احواله . والعالم تتغير اوضاعه . سنة الله  
في هذا الكون . فاضطر السلطان عبدالمجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية . و ٣١  
تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية . ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف ( بنحط  
كلخانه ) . فانشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية .  
واخذت الدولة تقلد اوربا في قوانينها بل ترجمها قانوناً قانوناً . وفي كثير من الاحيان  
فصلاً فصلاً ومادة مادة . وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي شاكل  
الحقوق ايضاً . غير انهم الفوا من الاحكام الفقهية خلاصة موجزة . سموها « الجلة  
العدلية » ثم قيدوا ذلك وبينوا وجوه المحاكمة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسية  
— كما اكثر ما نقلوا من القوانين — عرف بد ( اصول المحاكمة الحقوقية ) .

\* \* \*

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزآ ، واللسان قاصراً .  
واي امريء مما أوتي من ضروب البيان . يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء  
من العدل . وما كان عليه ذووه من قبل من الزاهة والفضل . وحسبنا ان نقول : انه  
قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه .

يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعي الناس لانفسهم كثيراً من فضائل  
الاخلاق وهم منها براء . وينسبوا لوضاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى  
في الكمال وهي اوضاع خرقاء . وقد ينفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث  
الوضع فحسب . ويكون بين القائمين بها وبين العدل والفضل . ما بين الشرق والغرب  
لذلك لاتقف عند ذكر ما اودعه هذا القضاء من الفضائل بل تتعداه الى ذكر



آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض  
فلا قد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثوقاً به في عفافه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . واقفاً على المسائل  
الفقهية ، مقتدرأ على فصل الدعاوي . مهيباً وقوراً . وحكياً وجيهاً صبوراً . يثق الله  
ويقضي بالحق . ولا يقضي هوى بفسله ، ولا لرغبة نغيره ، ولا لرهبه تزجره .  
لا صغيراً ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم .  
وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .

وان لا يكون فظاً غليظاً . بل شديداً من غير عنف . ليناً من غير ضعف .

وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة .

وان لا يُسَلِّم ، ولا يُسَام عليه في مجلس الحكم .

وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .

وان لا يسار احد الحصمين ولا يشير اليه ، ولا يكلمه بلغة لا يفهمها خصمه .

وان يقضي - - اذا امكن - من غير ان يوغر الصدور ، وان يبين للمقضي عليه وجه قضائه .

واوجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر

الرد لعدم معرفته ، او لبعده مكانه . وضعها ( اي القاضي ) في بيت المال .

ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان :

يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس او عضو . وتارة

يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون هدرأ وهو

اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس او عضو . كحد شرب مثلاً . وتارة

يكون في ماله ( اي مال القاضي ) وهو اذا تعد الجور .

وهذه قطعة من كتاب عمر ( رض ) الى ابي موسى الاشعري حين ولاه قضاء

الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء .

« ان القضاء فرضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم

بحق لا تناذ له . وآس بين الناس في وجهك ومجاسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في

حيفك ، ولا يأس ضعيف من عدلك . . . لا يتعك قضاء قضيته امس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، رهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التادي سيئ الباطل . . . واياك والقلق والشجر ، والأنف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق ، يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر .

ومن ذلك ما كتبه الامام علي ، الى الاشر النخعي عامله في مصر :

« ثم اختر للحكم بين الناس ، افضل رعيته ممن لا تفيق به الامور . ولا تمسكه الخصوم . ولا يتبادى في ازالة . ولا يحصر من النبي الى الحق متى عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع . ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . او قفهم في الشبهات . واخذهم بالحجج . واقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكسف الامور ، واصرمهم عند تضاح الحكم . ممن لا يزهده اطرا . ولا يستميله اغراء . . . تم اكبر تعاهد قذانه . وافسح له في النذل ما يزيل نلته ، ونقل معه حاجته الى الناس . واعطه من الزنة لذيك ، بالاطمع فيدغيره من خاصتك ، لياسن بذلك اعتيال الرجال له عدك . »

هذه طائفة من الآداب ، التي اوجبها التسريح وحماته على القضاة . نبي نايما ان تنظر الى هؤلاء فرى ، اقامرا بحق هذا الامر ؛ ام كان نايما ان سطرته بطون انكتب وظل العمل به من قبيل الخيال ، او تدوير الخيال ، شأن العالم بمرته وغربه ، في كير من الامور رلا سيما ما يتعلق منها ، المنازل والآداب .

جعلوا من شروط التوايعة . . . كاسبق فذكرناه . ان لا يطاب القاضي القضا

بقلبه ولا يسأله بلسانه .

ولكن قضائنا السابقين ، لم يقنوا عند هذا الحد ، بل تخاموا القضا . واح: بواقي

ذلك كل عذاب وبلاء .

فلقد كتب عمر بن عبدالعزير الى نايبه بالعراف وهو ندى من اوطاة :

« ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة البصري . قول قضاء البصرة

اندهما . فجمع بينهما .

فقال له اياس : ايها الامير ! سل عني . عن القاسم فقيه المنصر . السنن البصري

ومحمد بن سيرين . وكان القاسم ياتيها واياس لا تاتيها . فعلم القاسم انه ان سألها آتارا به

فقال: لا تسأل عني ولا عد! فوالله الذي لا اله الا هو ان آياس بن معاوية افقه مني وأعلم بالقضاء. فان كنت كاذبا فما يجعل لك ان توليني بانك كاذب. وان كنت صادقا فينبغي لك ان تقبل تولي. فقال له آياس انك جئت برحل وانتم على سبب جهنم فنجي نفسه منها بيمين كاذبة استعفى الله منها ونجى مما ينال. فقال ندي بن ارطاة اما اذ فهمتها كانت لها واسطة قضاء» (١)

واراد يزيد بن شهر بن هبيرة النزازي - امير العراقيين زايام مروان بن محمد آخر بني أمية - اراخنية على قضاء الكوفة، فابى فخر به مائة سوط وعشرة اسواط: كل يوب عشرة اسواط، وهو على الامتاع. فلما رأى ذلك منه على سبيله.

والربيع :

«رايت المنصور، ينازل اراخنية في امر الامتاع، وهو يقول: انق الله! ولا ترع في امانك الا من شاف الله. والله ما لنا بما مؤمن الرضا، فكيف اكبرن ما مؤمن الغضب. ولو اتجه الحكم انت ما تبدى ان مرقتي في الثمرات اولى الحكم. لا خبرت ان اغرق، ولك حاشية يمدون الى من يكومهم لك، ولا اصلى لندك. فقال له كذبت انت تصلىح. فقال له: نعم حكمت عن عني نصا. كتب يجعل لك ان تولي قاضيا على امانتك وهو كذاب؟ (٢) ثم دسي ابو حنيفة ان القضاء مرة مائة، فمات حتى استتير اصحابي، فاستشار ابا يوسف. فقال لو فعلت لمحت الناس فظن اليه ابو حنيفة نظر المغضب وقال: ارايت لو امرت ان اعبر اشر سباحة اكننت اقدر اليه؟ ومات وهو على الالباء.

ودني محمد التميمي الى القضاء فابى. حتى قيد وحبس واضطر فنقله.

ومن افروا من القضا عد الله بن وهب بن مسلم استهد عباد بن محمد بن حيان راوي المأمون على مصر سنة ١٩٧ ان يوايه قضا ما فاستنرمه. قال احمد بن عبد الرحمن وتعبت عني في مزل يحين من حرمله فهذه عباد بعض داره. قيل وسمع ان وهب اتاه ذلك يقول: يا رب يقدم عليك اخواني عدا علماء حلما فقهاء واقدم عليك قاضيا لا يارب ولو قرضت بالمراض.

وكن جمع آحاءه وادله فتسارده فقالوا له: اعمل ان يعيا اسق على يدك فقال لهم:

(١) شرح مقامات الحروري للشمريسي وان خالكان (٢) ابن حلكان.

أكله في بطونكم اردتم ان تأكلوا دهنى .

وحياة أرادته على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حياة : لست أفعل فافعل ما انت صانع . فتركه وولى ابا خزيمه الرعيى وسمع حياة يقول بعد ذلك : ابو خزيمه خير منى اخترت فصيح ولم أختبر .

وسعيد بن ربيعة اخذه الوليد بن رفاعه بالقضاء فامتنع فقيل لسعيد : استعجم عليهم حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين .

وسفيان التوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب . وعلي بن معبد بن شداد العبدي عرض عليه المأمون قضاء مصر فابى . والحارث بن مسكين عرض عليه الفضل بن مروان وزير المأمون قضاء مصر فامتنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه .

وفي هذا الاباء عن تولى هذا المنصب — على ما كان من رفعتة وعظيم شأنه وسعة وظيفته — دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من التخرج والتأثم ، ان يشبهه لهم ، فيخرجوا في احكامهم عن محبة الحق والصواب . وتخوفوا على نفوسهم مما ناله الرسول ( ص ) : « من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » . ولقواه :

« القضاة ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة . ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار . ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار . »

اما وقد نوهنا بهذا النفر ممن ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً . وعدلوا عدلاً نقصر الهمة عن ان تطامع الى ما وراءه . بل تعجز النفوس — مهما بلغ منها العدل — ان تطمع في مثله .

وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد الحميرية — والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر — فاستقدمه الخليفة وقال له :

« يا غوث ! ان صاحبكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، . قال غوث : فقلت ايرضى امير المؤمنين ان يحكمني عليه ؟ قال نعم . فقلت : ان الاحكام لما

شروط أفيحتملها امير المؤمنين؟ قال نعم . قلت يأمرها امير المؤمنين ان توكل وكيلا  
وتشهد على وكالته خادمين حريين يعدلها امير المؤمنين على نفسه ففعل . فوكلت خادماً  
وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها . فقلت قد تمت الوكالة فان  
رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم .  
قال غوث ودفعت الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأته عليه وقلت . يقر امير المؤمنين  
بما فيه ؟ قال نعم . قلت ارى في الكتاب شروطاً مؤكدة بما تم النكاح بينكما ارايت  
يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تشتط لم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟  
قال لا . قلت فهذا الشرط تم النكاح : وانت احق من وفي لما بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم امير المؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان . وكان الحكم في  
الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك . فقال الهادي لابي يوسف - ما صنعت  
في الامر الذي نتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير  
المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كان  
ان ابي ليلى يراه . فقال اردد البستان عليه . وانما احتال عليه ابو يوسف لعلمه ان  
الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه . ولقد  
نال عنده المازلة التي لا تعلق بها درك . ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة بينه وبين  
نصراني . وروي انه قال حين ادركته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى بالقلب  
الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسوء بينها وقضيت على الرشيد ، وبكي (٣)  
وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الربيع وزير الخليفة فرد شهادته فعانبه  
الخليفة في ذلك قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً  
فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكيمية (٣) حاشية ابي عابدين (٤) ابن خلكان

واقبل صاحب خراسان يشهد عند اس فقال له : مالك وللشهادة ؟ انما يشهد  
السوقه . قال صدقت وانصرف ، فقيل له خدعك انه لا يقبل شهادتك . (١)  
ولما ولي القضاء على مصر ، توبه بن نمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ ديا  
امراته عنيرة الأصبجية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .  
قال فاسمعي ! لا تعرض لي في شيء من القضاء ولا تذكري بخبره ، ولا تسألني عن حكمه ،  
فان فعلت شيئا من هذا فان طالق . فاما ان تقبلي مكرمه ، واما ان تذهبي ذممه .  
فكانت لترى دواته قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها ان تمدا ، خوفا من ان يرحل  
عليه في بينه نبي .

وسرط محمد بن صالح الهاملي العنابي لما ولي قضاء الهند سنة ببغداد واخبره اليه  
قضاة مصر والشام وغيرهم ، سره ضامها ان لا يمارس على الدنيا حراما ولا يدل تنازعا  
في فعل ما لا يجوز ولا في ابيات حق .

وقد بلغ من استقلال القضاة في آرائهم ، وعدا انقيادهم الى اسماء السان ، السطان  
ان احدهم كان يربأ بنفسه ، ان يرسل على امر سلطانه ، اذا خالف معتقده . وقد ركبنا  
عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبالغ في اكرام قاضيهما نكار من قتيبه السبي ،  
حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان نكار يتركها لخدمها ولا  
يتصرف فيها . فلما دناها الى جامع الموفق زالموكي ، وهو والد العبد ، من ولاية العبد .  
امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم حازه ، عند المبلغ الذي كان يأخذه كل سنة ، شمليه

(١) العقد الفريد (٦) اخبار القضاة (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكارا اجاب  
الى جامع الموفق من ولاية العبد وسار الى الماكين واسهد على نفسه حور سائر قضاة الشام والعمور  
واكنه امتنع عن اعنه وكان احمد قد امر به . فأج عليه فاحصر نكار على الامام الى ان مال  
الا له ذلك على الظالمين . فقال ان شاعها ، كان تقييب الطالبين بمصر : ابها الامر انه  
عاداك . فغضب باحمد وامر بتزيق بيانه وجروه برجله وايس عليه الاسراويل وخزان  
وقلنسوة ، مساور البيات تم حمل من يرب يديه الى السجن . واقامه للناس يطالبونه بظالم  
يدعونها عليه وكان الطحاوي يقول ما تعرض له احد فافلح بعد ذلك .

اليه بحتمه ، وكان نائبة عشر كيتاً . فاستى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها  
وانه يعجز عن القيام بها . (١)

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتمين اخلاقهم ، وانى يخاف امرؤ  
ان يضيع عندهم حقه وهم بهم وحالم . ما رأينا مع الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع  
الامر . بقي ان نرجع بصرنا قليلا الى ذلك العهد . ارى ماهي الاسباب التي سمت بهذه النفوس  
فرفعتها الى ذلك المستوى الباذخ . حيث نزهت عن الاغراض وتجردت عن المآرب .  
ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

- ١ — الفطرة العالصة التي كان قريبا عهدها .
- ٢ — الدين وما كان من اثره في النفوس من حيث التربيته الدينية والديوية .
- ٣ — ما كان عليه دور السلطان : خلفاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ،  
من العدل الصحيح الذي كان مثلا لقضايتهم وللذين جاؤا من بعدهم على الاثر :
- ٤ — ما كادت عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او انام على مظلمة .
- ٥ — تميز القضاة من رحالات لم . من ابناء النفس وسرف الصيت وصحيح  
العلم ، ما يخافون معه على عرضهم ان يثانه لسان بحق .  
ونحن نقص على مسامعكم شيئا يوجب ما قلناه .

« جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب  
كل رجل برود واحد . ونصيب عمر كمنصيب واحد منهم . قيل ، واعتلى عمر المنبر  
وطيه الرد وقد فصله قميصاً . فمدت الناس الى الجهاد . فقال له رجل لا سمعاً ولا  
طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك اسناثرت علينا : لقد خرج في  
نصيبك من الابراد اليمية برد واحد ، وهو لا يكفيك توباً ، فكيف فصلته قميصاً .  
وانت رجل طويل ؟ فالتفت عمر الى ابنه قائلاً : اجبه يا عبدالله . فقال عبدالله لقد  
ناولته من بردي فاتم قميصه منه . قال الرجل : اما الآن فالسمع والطاعة (٢) . »

وحديث من اراد ان يقوم اعوجاجه بجد سيفه مشهور .

والا ضرب ابن ملعم علياً جمع الامام ابناءه وقال لم :

(١) ابن خلكان (٢) الفخري .

« يا بني عبد المطلب ! لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، نقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن بي الا قاتلي . انظروا اذا انامت من خسرته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : اياكم والمثلة ولو بانكلب العقور . »  
 ودخل علي بن ابي طالب مع خعم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال :  
 « هذا اول جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له يا ابا الحسن الى خعمك فقام مفاضياً فقال له وقد قضى بينها — اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خعمك وانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسوئي هذا وانما ساءني ان تدعوني يا ابا الحسن ، اهل الخصم يداخله شيء من الرهبة او التحفظ ان كنت كنيثي .  
 ومثل ذلك ، ما وقع للأمون ، في قضية رفعتها اليه امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونحن نجتزئ بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احدهم يعلمه موجب للتهمة ، فعملوا ينصرفون عنه فلقد روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري  
 وعن الضحاك ان عمر اختصم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم اقض . وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي . انه قال : لا اكون شاهداً وتاضياً (١)

\*\*\*

٤ ما يأخذونه على القضاء — أكثر ما يأخذونه على هذا القضاء — حتى بالنسبة الى المصدر الاول —

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المسلم  
 شهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي اتمن المرأة وصغر من شأنها اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل  
 ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احتقاراً لها ولأنها اعجز في ذاتها من



الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يعذر غالباً حضورهن بجاس الحكم . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية :  
 « انا لانسلم ضعف شهادة المرأتين اذا اجتمعتا . ولهذا نحكم بشهادتهما مع الرجل . وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لا يبدل ، والمرأة كالرجل في الصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بثلاث . وذلك قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الظن المستناد من رجل واحد دونها ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة النساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجزى شهادة النساء . فظاهر هذا انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الاتفراد اذا لم يحضره الرجال .  
 وذكر الجلال عن احمد : انه سئل عن الرجل يوصي باشيء لا قاربه ويعتق ، ولا يحضره الا النساء هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .  
 وقد حكوا بشهادة امرأتين و يمين المدعي . في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك . فانظر ! اين هذا من قول العابثين على هذا القضاء ازدراء والمرأة . ثم اليس هذا الذي يأخذونه على هذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ اليس هذه الشهادة هي اليوم ايضاً موضوع بحث رجال القانون في اوربا ؟  
 وهذا المسيو ( كيلر ) الحامي امام محكمة باريز الاستثنائية ، عقد في كتابه ( السر في خطأ القضاء ) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث عن ذلك من الخطأ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة . ولكنه يقضي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كان اكل دين آداب خاصة . فقد يكون العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا اختلفت المال لم تجز شهادة بعضهم على بعض » ( ١ )

( ١ ) روى ذلك بن ابي شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يويد ما قلناه ان القضاء كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١) ولكن هذا المنع لم يكن جازماً باتاً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة الطبيب غير المسلم على المسلم للحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او آخران من غيركم انتم ضربتم في الارض » قال ابن قيم الجوزية : في كتابه ( الطرق الحكيمية )

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهادتهم ( يريد غير المسلمين ) في هذا الموضوع . هو ضرورة ، يقتضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهادتهم على المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : تقبل شهادتهم مع ايمانهم ، في كل شيء عدم فيه المسلمون . لكان له وجه . ويكون بدلاً مطلقاً . »

فيري المنصف ، ان امر هذه الشهادة ، سواء أكان في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟ لم يجبي ازدراءً وتعصباً ، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امرؤ اوتي الرشد والنصفة .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه بقيود يتخرجه عن الطريق اللاحب والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية :

« والمقصود ، ان البيئة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بيئة المفلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامرأة واحدة . ونكولاً وميئناً . او خمسين ميئناً . او اربعة ايمان . »

الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فتم شرع الله ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان ينخص طرق العدل وامارته واعلامه بشيء . ثم ينفي ما هو اقوى دلالة ، وابين اماره . »

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جا - هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي اقبل بابه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عن مثله هذه القوانين . واليك أدلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتبّع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعبث به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في دعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلاصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة او ضمناً . كأموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة الر . ورد الحكم . والتكوى منهم . ودعاوي من هم قيد الوصاية ، والغائبين . الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعام ، ويجب على ولي الامراقاتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل النسق والفجور . قال ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) مانصه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لقوم معين ، بل منفعتها لعامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فهذه من اهم امور الولايات . »  
ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » . وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم ( اي الحد الذي يتعلق به حق الله ) يجب على الولاة البحث عنه . واقامته من غير دعوى احد به . وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق، هل ينظر الى مطالبة المسروق به . اكنتم ممنقون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل اشترط بعضهم المطالبة بالمال لئلا يكون للسارق فيه شبهة «

تزيد على ذلك ان المدعي العام - وهو في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها ( وكييل الامبراطور ) او ( وكييل الملك ) - فهم قد جعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسموا وكييلهم في هذا الشأن صاحب الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بحقوق الله . وهي ما قلنا عنها انما الحق العام نفسه . وكما ان المادة ال ١٥٥ من اصول المحاكم الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ، ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام - ليس رجوع المدعي عن دعواه بمؤثر ، في ما يتعلق به الحق العام - الا في امور معينة - وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن دعواه ، سبباً بترك من اجله او الحق الالهي الذي هو الحق العام جاء في (السياسة الالهية) : « وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قریشاً اهتمت بان الخزومية التي سرقت . فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فقيل : ومن يجتري عليه الا أسامة بن زيد . قال يا أسامة ! اتشنع في حد من حدود الله ؟ انا ملك بنو اسرائيل انهم كانوا اذا سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اتاموا عليه الحدود . والذي نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرقت . لقطعت يدها . »

ومثل ذلك ما رواه بن تيمية ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن أمية نائماً على رداء له . فجاءه لص فسرقه . فأتى به الرسول . فامر بقطعه . فقال يا رسول الله . اعلى رداي لقطعه ؟ افي اهبه . قال فهلا قبل ان تأتيني الاستنطاق - وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من اجراه على ما يقرب من اصوله الحاضرة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شاباً شكاه اليه نقرأ فقال :

« ان هؤلاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . وترافعنا الى شريح ، فاستخلفهم وخلي سبيلهم (١) فدنا علي بالشروط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احداً بكبير . ودنا كاتبه . ودعا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، وبأي علة مات ، وكيف اصاب بماله ؟ وسأله عمن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه واين دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دعا آخر بعد ان عيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بصدقه . اخبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقرروا بالقصة : فاغرمهم المال ، واقاد منهم بالقنيل »

التفريق بين الشهود — وكان الامام علي ، يفرق بين الشهود ، ويستشهد كلاً على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان الشهود يؤدون الشهادة فرداً فرداً »  
السجن بالدين — وكان لا يحبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقريته انه قادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي تاضي مصر يسجن بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد لبيه اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة ، تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة ، الى ان ثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد نال ابن قيم الجوزية :  
« وقد كان القاضي يجيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال النبي جبي عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس المخرج من ذلك »  
الترجمان — في اصول المحاكم الجزائية المادة ال (٢٨٦) ما نصه :

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهلهم فأتتهم اهلها اصحابه فرفعوه الى شريح فسأل الاولياء البينة فعجزوا عن اتمامها . واخبروا علياً بحكم شريح فتمثل بقوله :  
اوردها سعد وسعد مستمل باسعد لا تروي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم او الشهود او احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . فرائس المحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا أقل من احدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »  
وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الا اعلان كالشهادة »

وفيه عن مالك : « ويشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، اميناً ، عنيقاً . »  
فالشروط التي اشترطها الشرع تشمل الاغراض التي رسم اليها القانون ، ونفصاها من وجوه .  
انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدرة للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والقصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجناية — والعقوبة غير المقدرة لما دون ذلك . ويرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس او الضرب او الصفع او الكلام العنيف وما اشبه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وشبه عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جميلاً »

درجات المحاكم — جعلت القوانين المحاكم درجات ، صيانة للعدل .  
« وكان الامام علي قد انشأ ديواناً سمي ( ديوان المظالم ) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً معلوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على متشكل رده الى قاضيه ادريس اليربوعي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الآمر (١) . وكان سائر الخلفاء بين من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كما فعل علي بن ابي طالب وعمر بن عبدالعزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرسيدي والمأمون ثم المهدي من بني العباس .

وفي المنهج السلوك : لما قضى ملك التام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين امر المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من امور الشرع (٢) .

وبين من يكله الى قاضيه »

الظنين واليمين — حظرت القوانين ان يحلف الظنين او المتهم . وعدت ذلك أثراً من آثار العجمية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدى خطتين : كذب كما مر من نخوته ، او صدق مضيع لحرته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه ( الطرق الحكيمية ) :

« وقد استثنى من التحليف في الحدود صورتان : احداها اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتحليفه في غاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قد اتى الفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأله الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سوء الاله . ولا يجب عليه الجواب . وفي تحليفه تعرضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعرضه لفضيحة نفسه ، واقراره بما يوجب عليه الحد . او فضيخته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادغام العقاب — لما ارتقت الهيئة الاجتماعية رقت قوانينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة الـ ( ٢٩٩ ) من اصول المحاكمة الجزائية تقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنائيات وجنحات معاً . فتجزم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة »  
ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) .

« وان لم يكن القاذف ضرباً للاول ، حتى قذف آخر ، فانه يضرب لها جميعاً حداً واحداً . »  
« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرباً بعد ما قذف حتى أعتق ، ثم قدمه الى الحاكم فانه لا يزيد على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف »  
وهذا وفاق ما ننظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها المجرم يوم وقوع الجرم « فان لم يكن ضرباً بعد العتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول والثاني ثمانين . اي انه عوقب للجرمين بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من الحد سواطاً ، ثم قذف آخر . كمل له الحد فقط . ويحتسب بما مضى . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوطاً . فان كملت له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يجبس حتى يخف الضرب »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »  
السرقه وانواعها — للمادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جعلت احدى فقراته للسرقه  
 وسوء الأثمان واخذ المال بالحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسه . عقوبة دون غيرها .  
 « وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء النافه » وفي الحديث لا قطع في الدغرة :  
 وهي اخذ الشيء اختلاساً .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقه . وهو ما جرت عليه القوانين  
 الحديثه . اذ رتب على السرقه نفع ( اخذاً ونشلاً ) جزاء اخف من السرقات العادية .  
 ومن هذا القبيل الفرق بين السرقه نفع في مكان محرز ، وبينها نفع في مكان غير  
 محرز . فواجبوا القطع في الأولى فقط . وهذا وفاق تقسيم السرقه الى جنابة وهي  
 ما صاحبها خلع او كسر او فتح بآلة خصيصه . والى جنحة وهي السرقه العادية .  
 على انهم اشترطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا  
 القيد خير من الاطلاق الذي جري عليه القسانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح  
 باباً بمفتاح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الحرب .  
 يكون من الجنابة ان يعد فعله جنابة .

السرقه بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .  
 « اذا اخذ الزوج او الزوجه مال الآخر في حالة الاجتماع او الاقتران . او اخذ الاولاد  
 وسائر الفروع مال آبائهم واهبائهم وسائر اقربائهم من الاصول . او اخذ الآباء والامهات  
 وذوي القربى من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ ويعطي  
 لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه ( الحراج ) :  
 « ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه ولا من ابنه ولا من اخيه ولا من أخته  
 ولا من زوجته ، ولا من ذي رجم محرم منه . ولا تقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »  
المحاولة — جعل القانون لمن صم على جنابة — ثم حالت اسباب ناهرة دونها —  
 عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجنسية لو انها خرجت الى حيز الفعل . وهذا  
 ما إنظن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه ( الحراج ) :



« ومن وجد قد نقب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتساع ولم يخرجه . حتى ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويجبس حتى يحدث توبة »  
ومثل ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) .  
« واما اذا شهروا السلاح ، يريد الاعراب وفسقة الجند وغيرهم ( ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه او هربوا . وتركوا الحرب . فانهم ينفون . واختلفوا في النبي فقيل هو تشريدهم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو ما يراه الامام اصلى من في اوحبس او نحو ذلك .

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اشخاص متخدين ، جناية او جنحة . او كانت احدهما مؤلفة من عدة افعال . فاتي كل منهم فعلاً او بعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المستقل »  
وقبل ذلك جاء في نويز الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، و اصاب كلاً قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . » وفي الدر المختار : ( ولو قبيهم صغير او مجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد ) وزاد في الحاشية قوله : قال في الفتح ( وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم )

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب ما فيه .  
الرشوة — في المادة ( ٧٧ ) من قانون الجزاء .

« اذا اكره انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوتاً لنفسه وماله وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامره . استردت تقود الرشوة واعيدت لصاحبها . وعوقب أخذها عقاب المرتشي . »  
وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الآخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأمور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لا تستند الى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من المرتشي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقربي ، فتعمل الطرفين او احدهما نزوة من نزوات الغضب ، فيرفع الامر الى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون فيه غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العداة . فاستدر كوا الامر ابقاء للمودة وحفظاً للحقوق ، بان جعلوا للمادتين ال (١٧٩) وال (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما تشمله هاتان المادتان .

واذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدناهم ما يقرب من هذا كثيراً ، بل ما يرد واياه شرعة واحدة . ففي حاشية ابن عابدين . يبحث ( هل للقاضي العفو عن التعزير ) :  
« قال : لا خير يا زاني ! فقال الآخر بل انت . حذاً لغلبة حق الله ( الحق العام ) فيه . بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقها ، وقد تساوا . اما اذا تشامتا بين يدي القاضي ، او تضاربا ، لم يتكافأ لهنك مجلس الشرع »  
الاقرار — في الاصول القانونية لا يكون مداراً للحكم .

« وقد قال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة ، او غير ذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او بجدا او بقتل وقد فعل ذلك به فليس اقراره ذلك بشيء . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بمأمون على نفسه ، ان اجعته او اخفنه او حبسته ، ان يقر على نفسه . »

« وكذلك لا يعتبر اقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يزدده . ثم يسأل عنه ، هل به لم ؟ هل به جنون ؟ هل في عقله شيء ينكر ؟ فان لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد »  
الاتهام والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل اتهمه يتهم بها ، او بينة قلقة ترد عليه . وواجبوا في كل قضية يتردد فيها وجدان الحاكم بين البراءة والحكم

بل بالغوا في ذلك، حتى قالوا : ان تبرئة جماعة من المجرمين اولى من تجريم بريء واحد .  
ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة .  
وقال عمر لئن اعطل الحدود في شبهات . خير من ان اقيمها في الشبهات . »

تحلية السبيل والكفالة -- شرعت تحلية السبيل بالكفالة، صيانة للحريبة الشخصية ان  
تقضي عليها الشبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه  
الام الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائلين بهذا الشرع . قال ابو يوسف :  
« ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقام عليه حد الا  
بيينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يحل ولا يسع ان يجلس  
رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع  
بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بيينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى  
عليه كفيل . وخلي عنه فان اوضح المدعي بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . »  
ولم يجوزوا السجن بالتهمة .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهمة السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور  
مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة ، فتحدد مدته راجع الى  
الرأي والاجتهاد »

جلب الظنين — ان القانون الذي فجرى عليه في يومنا، قد اوجب على الظنين ان يحضر  
المحاكمة بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى  
التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجنابة : وكانت تستوجب — ان هي ثبتت عليه —  
جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد، اذ لا يندر ان تكون الدعوى — انما  
اقيمت نكايه بالظنين وخطا من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمتنع حق التوكيل  
ويحاكم غياباً — فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون  
وانصف اذ كان مالك . على ما جاء في كتاب الحراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويق  
من جنس الحبس فلا يجب حضور الخصم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعي  
ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والدم — في قانون الجزاء عن الافتراء ما خلاصته :

« من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل آثاراً ودلائل مادية لكذا جرم يجبس الخ... »

وفيه عن الدم والتحجير .

« من ذم انساناً باسناده اليه ما يجعله عرضة لاحتقار الناس وخصوصتهم . يجبس او ما يحط من قدره وناموسه . . . يجبس الخ »

قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لأئحة دعوى مكتوبة او مطبوعة او في ضبط يودعه المخبر اخباره .

واليكم ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واتهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه وتسمه . فيؤدب »

فالحكام الشرعي والقانوني في هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما يجازي حيث يراد الاثنتان على آخر ، والنيل من كرامته .

الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة جزاء الاعدام ، اذا اخرت بانها حامل وتحقق ذلك وتبت ينفذ فيمسا العقاب بعد وضعها »

وفي رد المختار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان حدها الرجم ، رجمت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يريه . فتمتى يسعني . وان كان الجلد فبعد النفاس (

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهادة لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية . وقريب من ذلك ماورد في الشرع ( من ان الرجل اذا حد في قذف ، لم يقبل شهادته )

سن المجرم — راعت — المادة ( ٤٠ ) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاة يتخذون دفاتر وسجلات يقيدون فيها اقضيتهم .

وأول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر النجدي (١) قاضي مصر : وذلك انه اختصم إليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم ثناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . ثم جا المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السحايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢)

\*\*\*

هذا وقبل ان نختّم الكلام نرى حقاً ان نشير الى بعض اصول ، تجري ايها اليوم وقد سبق للسلف ان جروا عليها من قبل . من ذلك :

كتابة العدل -- فهي ليست مما حدثه المتأخرون . بل كانت قديماً . اخذها الفقهاء من الكتاب الكريم . وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم . قال ابن خلدون : «العدالة . . تابعة للقضاء . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم عند النزاع وكتاباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة . الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والراءة من الحرج ، ثم القيام بكتابة السجلات والعقود من جهة عباراتها ، وانظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها . فيتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه . وينحى على القاضي تصفح احوالهم والكتف عن سيرهم . . فيقولون (اي القضاة) غالباً ايها (اي بالبيانات الموثوقة) على هذا الصنف . ولهو لاء ، في سائر الامصار دكاكين ومضايط يختصون بالجلوس عليها ، فيتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد ونقيده بالكتاب .

دار القضاء -- كان الحكم قبل الاسلام والقاضي في الصدر الاول . يؤتى في بيته فيتم بين المتخاصمين . او كان حيث يكون فيمناك مجلسه . ثم اتخذ القضاة المساحد ندوة للحكم ، يقضون فيها بين المسلمين ، فاذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين او جعلوا لهم يوماً في منازلهم . فلما انتهى قضاء مصر -- ايام الرشيد -- الى محمد بن سروق ادخل النصارى المسجد الجامع في خصوصياتهم .

السجن -- كان الرسول يسجن في المسجد ، وتبعه في ذلك ابو بكر وعمر

وعثمان . ثم احدث علي سجنًا خاصًا . وأجرى على من لا مال له ولا شيء له ، ما يقوته من بيت المال . ومضى على سننه الخلفاء من بعده .  
وكتب ابو يوسف ، مخاطبًا امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وادمهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولأه السجن . . . . . وول ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهراً . ويقعد و يدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده . . . . . وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجنين . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا أقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

\* \* \* .

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدوث وطيب النشر . وأنا لا أدعي اني قد أحطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون ما فالتني ذكره ، لا يقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الآداب . وموافقة لروح العصر ، ومماشاة للقوانين الحاضرة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ما تعرضت له في هذه المقارنة لسببين : ( اولاً ) لان القانون المدني عندنا هو الجملة ، وهي مستمدة بجماتها من الشرع . فليس ما يدعو الى التنويه بها ، وهي لا تزال واحكامها هي هي . لا يعوزها الا قليل من التعديل . حتى تتجدد تضاربتها . وتصبح خليقة ان ينسج في القوانين على منوالها .

( ثانياً ) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غربياً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رأيتم

ما بينهما من الصلة والعلاقة . ولو انه أتيح هذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك السلف . لانفردت عن الاشباه ونزهت عن النظائر . وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه مسلماً كان او غير مسلم .

لهذا ولا مثاله لقبّت هذه الشريعة بالشريعة السحرة وهذه هي المفاخر الصحيحة التي يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريقة بالوهم . فاذا استفاق الخلف . واقفى سنة السلف . ونبذ القشور . وعاد الى اللباب . فقد عاد الى هذا الوطن . عصره الاول . الاغر المحجل .

عارف النكدي



## (١) العلم

لاجرم ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الامم الى اعلى درجات النجاح والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر و بان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصابيح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجهل بانه موت النفوس وعمى الازهان وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بهيمة في صورة انسان و بأن عينيه في ظهره . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من استغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماءهم ينقنون رصد الكواكب بمنهى التدقيق واخترعوا الهال المزاول المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى النرس والفينيقيين والصينيين والهنود واليونان والرومان وكما سطعت انواره في أمة ارفع شأنها وعظم عمراتها . وكما تقلص ظلها من مملكة نقاص معه مجدها وافل سعدتها وتزعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مرت ذكرها . فلما جاء العرب ادر كوا العلم من المنزلة العالية في الحالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوا بنشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي انتقى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرص الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افرريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الآفاق العربية حتى



جمع في ما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما ينغالى به . وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة .

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان الخلفاء انفسهم كانوا يصبون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقاتهم بين المحابر والدفاتر وبنون بيوت العلم كما يبنون بيوت العبادة . ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية والفحوا فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها وما زالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فألقيت مقاليدها الى الغربيين وقد كانوا خابطين في ظلمات الجهل فاهتدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في انقائها وزادوا عليها وبعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا يجدهم ومثابرتهم وثباتهم اساتيد العالم بأسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاتيان باعجاب الاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حدائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : ( ا ) تحسين الصحة العامة فان العلماء كجذر و باستور و كوخ وغيرهم اكتشفوا ادوية وافية وشافية من الجدري والحناق والهواء الاصفر والحميات المتنوعة . والجراحين ثفنوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في انقائها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يفتحوا البطن ويستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدهم على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الى كشفها حديثاً فقلت الوفيات بنقدم الطب والجراحة ومراعاة القوانين الصحية وطال معدل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاء الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين . قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة نذك بنا فتكاد يبعاً لجهلنا طرق الوقاية منها وسائط منع انفسها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد جمة لا يسع احداً انكارها فتحسنت عندنا الصحة العامة وزادت موليدنا على وفياتنا . وهو قول حري بالاعتبار وكفى به دليلاً على ان العلم لم ينشر في بلاد الافاد اهلها فوائد

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أهم من كل شيء ولا يغني عنها شيء .

(٢) تقوية العقل وترقيته بتمرينه على الحذر والانتباه والملاحظة والاستقراء والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها الحقيقية وادراك النسبة بين العلل والمعلولات . وجملة القول ان العقل المستنير بغياض العلم الصحيح يكتسب مضاءً وقوةً ويتحرر من عبودية الحرافات والحزبيات والترهات التي كانت تحيف الناس كالاغتراب ان الحسوف والكسوف وظهور ذوات الاذنان وهبوط النيازك مما يؤثر في احوال البشر ويجلب عليهم الحروب والابوثة والمجاعات وغيرها من البلايا . وكما ان الرياضة البدنية بالالاعاب المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والحمول والوهن وتقوّم كل اعوجاج فيه . فعلم الهندسة بقي الذهن من التشتت وعلم المنطق يعصمه من الخطأ في الفكر ويدرّبه على إقامة الحجج . وعلم الحقوق يعينه على استمضار القضايا والاستشهاد باقوال الفقهاء وانبات السعوي بالنصوص الشرعية والقانونية . غير ان الرياضيات أشد العلوم ثقيلاً للعقل لانها قائمة بالقياس والبرهان ومتعمنة احسن ما يبيّن به العقل الاستدلال واقامة الحجة .

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فيحافظون على حقوقهم ويقومون بواجباتهم ويحترمون انفسهم فيعتزلون المنكرات وترفعون عن الدنيا ويتزينون بالاخلاق الحسنة ويتسابقون الى الاعمال الشريفة والمسامحة الحميدة فلا يريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب ويحسن الصيت ويجعل الحصال ويقلل الجرائم في البلاد . ولذلك قيل اذا امتلأت المدارس فرعت السجون . وكما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت اخلاقهم وفسدت آدابهم وقبحت أعمالهم كما يري ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل اواسط افريقية التي تأكل لحوم البشر وتعمل القبائح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولاحياء لان غير المتدنيين لا يفرقون عن الوحوش المفترسة الا بكونهم يقبلون العلم والتهديب اذا أتيج لهم ذلك وتوفرت لديهم الوسائط الكافلة به . فان قيل ان بعض اهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقترن ابدأ بالاخلاق الناضجة فلا يصدر عنه الا الصلاح فهو كالشمس التي لا بد من در عنها الا النور

(٤) اخذاع الامور الطبيعية اسلطة الانسان فالدين تعمقوا في العلم عرفوا كثيرا من اسرار الطبيعة وكتفوا خفاياها واطلعوا على سننها وخبياها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستسطوا دخالها ومكنوناتها واستخدموا لمافعهم قوتها فسخروا برق السماء وتسلطوا على الماد والهواء واخترقوا الحجب ببعض الاشعة فراوا ماخفي على الابصار وولدوا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من احناء كثير من الفوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء .

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبيان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزييد علال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد العرب وبعض بلاد الشرق كمصر التي اصححت نقيض ذهبها وهاحا على سكانها بفضل تحسين الري فيها . ويعلم المعادن استخراجها كنوز الارض التمينية وذخايرها المدفونة . ويعلم الكيمياء رقوا الصناعة وبنفنونوا فيها على اساليب شتى حتى انهم انتفعوا بالنفاسيات كالخرق البالية والاقذار الجارية والعظام وقصاصة الجلد ونشارة الحشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الصقيل والطيوب الذكية ومقابض السكاكين واوتاراآلات الطرب الى غير ذلك من الاشياء التي ينفع بها وياقمانها . وحازت المانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من قطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا -- النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية . وجملة القول ان العلم هو الذي افاض الغنى العظيم على سكان اوربة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وهاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقين هو انهم هم يحتالون على الارض ليستخرجوا الذهب من تراها ومائها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقين يحتالون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

ليسلبوها بالفش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين  
تنقص بالكسل والجهل .

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستنادام القوات الطبيعية مثل  
قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها  
بالايدي واستخدام البخار لتسيير القطر في البر بدلاً من الخيل والجمال والسفن في  
البحر بدلاً من الاشرعة وتسخير البرق لنقل الانباء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة  
الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة . وانارة البيوت والشوارع بالاضواء  
اللوامع بدلاً من الشموع والسرج وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام باكثر  
الحاجات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكنس وغير ذلك مما كان يهمل باليد اصيحت  
قوة الكهر بآء تعمله بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم . وزد على ذلك اختراع الآلات  
العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الحياطة وآلة النسيج وآلة الطبع وغيرها  
مما تضيق المجلدات عن وصفه . فالمطبعة تطبع في ساعة ما لا يستطيع الانسان ان يكتبه  
في شهر والمنسجة تنسج في يوم ما لا يقدر الانسان ان ينسجه في سنة وعلى ذلك فقس . وخلاصة  
ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة  
اخبار العالم في ساعات معدودة ومخاطبة من يشاء على امد الوف من الاميال في لحظة والحصول  
على الوف من الكتب باثمان زهيدة . وقدم له الجليد في ايام الحر الشديد والدفء في  
ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله وراح جسده وافكاره وازال من سبيل  
سعادته اكثر العقبات وهوّن عليه في حياته اعظم الصعوبات .

(٧) الابراج بآيات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون العجيب من الآيات  
البيئات من ا كبر دواعي المسرات لانه يكسب صاحبه لذة عقلية تفوق كل لذة  
جسدية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول او الغابات  
بسمتله الازهار ورحبت به الاتجار واطربت سمعه الاطيوار لانه درس خصائصها وعرف  
طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها  
او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز  
الشاعر طرباً لنفيس الاشعار ويترنم الموسيقي عجباً لنغمات الاوتار ويجد كل عالم او

مؤمنين في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لاشيء يبهج القلب ويملاه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقول بعضهم من زاد علماً زاد همماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبديهة لانه كما ان النور يبهج البصر بكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب بكشفه الحقائق الثمينة للعقل فكما زادت المعرفة زادت اللذة .

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهدة الهوان الى ذروة المجد فبعد ان كانوا خطابين او خزافين او صانعي احذية ارتقوا الى مراتب الوزراء او السفراء او رؤساء الجمهوريات . والامم التي عنيت بالعلم ورفعت الويتة في بلادها بلغت اعلى ذرى العز والنعمة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سوؤدها وخدمها السعد قروناً فمدت صولجانها على الخافقين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للملك السالفة وللدول العربية فانها لما عنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت من المجد ما ارادت ولما أهملته انحط شأنها وتهدم عمرانها . والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغته من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اتياناً لهذه القضية ما نراه من البون التاسع الادبي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الصين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة . واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لا تقل شأناً عن دول اوربة العظمى وكفاها فخراً انها غلبت اعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وما سر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل ضارباً اطنابه فيها وذلك من البديهيات التي لا ريب فيها عند العقلاء . قال زوج الملكة فكتوريا في احدي خطبه حين كان رئيساً للمجمع العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد الثنات الدولة الى العلم كما نرجو وستجد فيه عنصراً جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » . وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنيتها التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم في الغد » . وقال واشنطنون في خطابه الوداعي لبلاده « احلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهذب عقولهم قبل ذلك» . وقد حفظ الامير كيوت هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانفقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانفقت قناطير من الذهب على المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة لتيقنها ان العلم هو الدعامة الكبرى في بناء الممالك والسيادة الوحيدة الموصلة الى درى الجهد والعظمة فلا عنى عنه في السياسة كما انه لاغنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة . هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسباب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملاً الجملدات الضخمة . وهنا يحذر بنا ان نسأل ماذا كان نصيننا من تلك المنافع واي اختراع او اكتشاف مفيد ينسب اليها في هذا العصر ؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حيا يرزق نحو النفي اختراع مفيد غير بها حالة المجتمع البشري وورق شؤون العالم العمرانية وهو رجل واحد فهل اخترع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كماهم وهم يعدون بالوف الالوف ؟ أليس البتسر كماهم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربين العلمهم أسرف منا اصولاً ام اسمى عقولاً ام اصنى أذهاناً ام اقوى أنداناً ام أعز نفوساً ام أكر رؤوساً !! لا لعمري فقد أثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائل الارتقاء وجال في ميدان العلم حارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السور بين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سقوا رفقاءهم من ابناء الغرب وامتازوا عليهم بالتحصيل فمحن لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والثبات . اننا لا ننكر ان حاننا العلمية اليوم أحسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية . فبعد ان كان ظلام الجهل محيماً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتهمون عجباً بتلك المعرفة التليسة ويمشون في الارض مرحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماً وبعدان كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية بزغت فيها انوار العلم فتشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبيسة وتجارية وصناعية وحقوقية تخرج منها كتيرون من شبان البلاد النجباء فشفغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرها وانتشت الصحف والمجلات وظير في هذا القطر  
 الكتاب والخطباء والصيادلة والاطباء والحامون والمعلمون والمهذبون كما يشهد هذا  
 المخئل الحافل . وكان ابن نحن من الغربيين الذين جاؤا بالعجب العجيب وحيروا باعمالهم  
 الاباب مجمعوا الر بجرأ والبحر براً وذلك بفتح الترع كترعة السويس وترعة تاما العجيبة  
 واشاء المرائى كمرفاً بيروت ومرفاً نيويورك وكثير غيرها ومشوا على وجه الماء وغاصوا  
 في ليج الدماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب  
 السماء بالمراسد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من  
 الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من  
 آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى القاطرة البخارية التي تجر  
 وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كسر  
 بروكلين الذي تجري عليه القطر وتسير من تحته السفن . قيل ان بنا هذا الجسر تغل  
 نحو ثلاث عشرة سنة ونفقاته بلغت بلانة آلاف الف ليرة انكليزية وهو من اسلاك  
 قوة كل منها اثنا عشر الف وسق وعليه طريقان حديديتان وطريقان للترامواي  
 وطريقان للمركبات الحيلية وطريق للمتاة عرفها ثلاث عشرة قدماً فهو من غرائب  
 المصنوعات البشرية . وقد فتحوا الاتفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار  
 لتسيير مركبات البخار وبنوا الخزانات الكبيرة لحفظ المياه الغزيرة والانتفاع بها وقت  
 الحاجة . وحملت القول انهم دكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد وورقوا العباد  
 بل جعلوا الصم يسمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فاين نحن منهم بل اين نحن  
 من اسلافنا العرب الذين وسقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم  
 على كل الامصار فقد الفوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا وضربوا في مناكب الارض  
 بحثاً عما ودعتها الطبيعة من الآتار وتطلعوا الى آفاق السماء طلباً لمعرفة ما فيها من  
 الاسرار وكانت عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة وعمو الزراعة  
 ما لا يتسع المجال لذكره في هذه المحاضرة المختصرة . ويكفي ان أقول ان العلم كان  
 مصاحباً لجنودهم في كل بلاد افتتحوها حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسية الى  
 أقاصي أفريقيا وقلب اوربة . فلم لم ننشبه بهم في طلب العلم ونشره ! ولم نرض

بالتأخر عن مجاراة الامم الغربية الراقية في سلم التمدن الصحيح والتهديب الكامل وماهي أسباب عدم رواج العلم في بلادنا ياتري ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرةً أخصها ما يأتي :

١ - اعتقاد اكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري للذين يريدون ان يشتغلوا به لا كتساب الرزق فقط كأساتيد المدارس والكتاب والمشئين والاطباء والمحامين وغيرهم من أرباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع والزراع وسائر العامة فهم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونهم . وهذا الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من أفراد الامة كبيراً كان أم صغيراً اذ يحتاج اليه الصعلوك كالملك والفقير كالغني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال عبد الملك بن مروان لبنيه « يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقم وان كنتم وسطاً سدم وان كنتم سوقة عشم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً ويقدمك كبيراً و يصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميلك ويصح همتك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالاً » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم لان العلم عصمة الملوك فهو يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية . والخلاصة ان البشر كلهم على اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم منفقرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان يسنوا الشرائع العادلة الكافلة بسعادة الامة وينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم مسك الدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان ينجحوا في تجاربتهم نجاحاً تاماً . واهل الصناعة ينفقرون الى معرفة الرياضيات والطبيعات لكي يتمكنوا من انقان صناعاتهم والنفنن فيها حسب الحاجة . والزراع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي يعرفوا خواص الاتربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والفرس والتطعيم والتلقيح وتربية المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة وتوفير الغلال



والنساء يفتقرن الى علم التربية وعلم التمريض وعلم تدبير المنزل لكي يستطعن ان يربين اولادهن تربية صالحة ويخدمتهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويدبرن بهوتهم التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال محتاجون الى العلم ليعرفوا مايجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حتى القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعتزت حكومتها وارثتي وطنها الى اسمي درجات العمران . فلا احد يسغني عن العلم بوجه من الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعمى الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

٢- زعم فريق كبير من الناس انه لا فائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يعني عن العلم وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدرهم في المواضع كلها      تكسو الرجال مهابةً وجلالا  
فهي اللسان لمن اراد فصاحةً      وهي السلاح لمن اراد قتالا  
وقول الآخر :

فصاحة سبحان وخط ابن مقله      وحكمة لقمان وزهد ابن ادهم  
اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلسٌ      ونودي عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخروقة وتضليل . والحق ان العلم هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال علي بن ابي طالب : « العلم خير من المال . العلم يحرسك وانت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . ومما يؤيد ذلك اننا اذا نظرنا في العلم منفرداً رأينا خيراً محضاً لانه علة الاتحاد والالفة والتعاون والناصر . واذا نظرنا في الغنى منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات المحرمة والتمنافر والتفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم مقترناً بالغنى رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهلٌ عذبٌ وشجرةٌ مثمرةٌ والغني الجاهل بلية عظيمة واضراره للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال وينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجهلاء .

٣ — توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تبسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحقر العلماء الكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مستقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحرر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من تضلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص تربتها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتواريخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناء جنسه . فمعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ — ادعاء شرذمة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين ظناً منهم انها تحالف العلم . وكلا الفريقين مخطىء لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يؤيد الآخر ويخدمه ولي على اثبات ذلك أدلة . الاول انه لو كان العلم والدين تقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلا منهما ثابت بالادلة القاطعة الجلية فلا تناقض بينهما لان مصدرهما واحد فالدين وحي الله على محيا الشريعة والعالم وحي الله على صفحات الطبيعة . وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يستغربه السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان مخصص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكا يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية ويسيرون في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خيراً الاعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية ويسيرون في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيجيشون بعجائب اختراعات وغرائب المكتشفات . فالايان من أعظم قوى العالمين وبه تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رباط متين .

الثاني : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان كل عالم كافر وكل دين جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من أهل الجهل كافرون . بل ان الذين يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يحشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا تبتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كنهه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبني بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انها حليفان لا تقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعربية والهندية والارسية فضلاً عن تجرعه في الفاسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان نقيماً ورعاً . وان سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كتب ايضاً مشهوراً بالعلم الالهي والتمسك بدينه . ونفر الدين الرازي عبدالله المعروف بان الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اماماً في علم الكلام نقيماً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكاز العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والناطقة الاميركي الذي خدم سورية سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فاندريك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنيين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الانقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوف الالوف وكاهم من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل دين جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروقهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء وما كان العلم الا كاشفاً لذلك المروق لاسبابها وعدم التناقض بين العلم والدين لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان يكون كل عالم غنياً وكفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق .

الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كما تبجر في العلم توغل في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كما تبجر في العلم زاد تدنياً اذ ان العلم يعينه على كشف أسرار الكون وكما كشف منها سرّاً تقرب من رب الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كراقي سلم قصر شامق كما صعد درجة تقرب من المقيم باعلى غرفة فيه . وقد شهد العلماء الانقياء ان العلم لم يزدحم الا ايماناً بمخالق الاكوان لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة . وهم الذين اثبتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا أعلام عظمتهم ومزقوا حجب الظلمات عن محيا حكمته وقدرته وجودته . منهم العلامة كلفين احد أعيان الانكايذ المتوفى سنة ١٩٠٧ الذي اشتهرت مباحثه الكور بائية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجواهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكتب بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في المعقولات والمشية والاختيار والعواطف والانفعالات والقوة والعقل والعلة العاملة وامثال ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالانفاق ( الصدفة ) واما بالضرورة واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل . اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا علة . واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل . والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على نسبتها المعلومة ولما ذا كان الذهب أقل من الحديد والحديد من الصلصال . وكيف استنسبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشارها ونموها وكيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل حي قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » .

وهذا من الأدلة العلمية التي لا يسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا ينفيه بل يثبتهُ ويؤيده ويقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان كفرهم لقلّة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشتغلوا بهادون غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولو عرفوا ضرره فمثلهم مثل الذي اُدمن المسكرات حتى صار شربها من طبعه واخلاقه فيستمر عليها ولا يرجع عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايمانا والكافر كفرا . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليفان ولو كره الكافرون . ومما يؤيد ذلك ان كلاً منهما نافع للآخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم بتشبيد معاهده ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الذين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والابنية كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في انحاء الارض المختلفة انما تأسست باموال المحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كنا ولا يزالان حليفين ينصر احدهما الآخر ويؤيده لا يناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستخفون بالعلم والخائفون منه كلها باطلة والحجج التي يوردونها كلها فاسدة . واذ قد اثبت ان العلم من قومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية ووضحت فوائد المعنوية والمادية ومكانه من الجامعة الانسانية اتقدم الآن الى بيان الواجب المفروض على الطلاب والعلماء والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوتهم من ابوابها ويأخذوا فروعهم من ابوابها ويجهدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة ويواظبوا على كل ذلك بلا ملال ويحترزوا من الكسل والاهمال متذكرين قول من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدر كها متى شاب الغراب  
وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالبيغاء ويحفظوا ما يفهمونه لان العلم في  
الصدور لافي السطور . والعرب تقول حرف في قلبك ولا الف في كتبك وما احسن  
قول الشافعي :

علمي معي حيثما يمت ينفعني صدرى وعالاه لابطن صندوقي  
 ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق  
 وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل ليشار كوا في فروع كثيرة منه . قال  
 يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو لما جهل وانا اكره ان  
 تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنة

انما العلم بعيد غوره فخذوا من كل علم احسنه

و يجب عليهم ايضاً ان يعاشرروا العلماء و يذاكروهم في المسائل العلمية و يستفيدوا  
 من اختباراتهم الكثيرة » قال الشاعر :

واطل في العلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

و يحسن بهم ان يدونوا ما يسمعون من الفوائد لان الانسان عرضة للنسيان و يثابروا  
 على ذلك الى نهاية الحياة مذللين كل عقبة في سبيلهم و غالبين كل صعوبة نتبظ عزائمهم  
 و غير معتذرين بضيق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجد وقتاً كافيًا للتعلم  
 اذا اراد ان يجد وقتاً كافيًا للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ باشباع الشهوات  
 ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنه . قيل ان فكتور يا ملكة الانكليز  
 شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة و الثمانين من عمرها . ومئات من العلماء المشهورين  
 لم يشرعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من  
 اعمارهم كما بي بكر الرازي فقد قيل انه لما سرع في تعلم الطب كان قد جاوز اربعين سنة من  
 العمر . و منهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من  
 تخصيصها في المدارس ايام الحدانة . و كل من جدَّ وجد فلاتي يمنع المجتهد من اكتساب  
 العلم معها حال دونه من العقبات . و يجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين  
 جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كالمراقي التي تعكس النور فان لم  
 يفيدوا غيرهم او استفيدوا منه كان عليهم عقياً . و العالم الحقيقي من لا يبخل بالافادة  
 ولا يستنكف من الاستفادة . وعليهم ان ينهضوا الهمم الوانية و يقودوا العزائم الواهية  
 و يدعوا الناس الى ورود مناهل العرفان و يحببوا اليهم السير في مناهج الفضيلة و يبينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويحذروا العجب والكبرياء ويحذروا التملق والرياء فان ذلك ينافي الفضل ويدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

و يجب على الوالدين ان يعثروا بثقيف عقول اولادهم وتهذيب اخلاقهم كما يعثرون بتربية اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين الامناء المعروفين بطهارة السيرة ويضعوهم في ارقى المدارس التي تُنفخ في تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادئ الشريفة التي تؤهلهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً من القاتل لان قتل العقل افظع واضر بالمجتمع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

و يجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وتنظيم احوال الامة بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لا تحيا سعيدة ولا تجاري الامم المتقدمة الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولا بد للوصول الى ذلك من اتفاق الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يخدم مدرسة قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذ تتمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجانياً فلا يمر وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ما ينفق من الاموال في هذا السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يغزون شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فحصدت مبالغ طائلة من دخلها للاتفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة انفق نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دراوين الزراعة والمساحة اكبر علمائها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه انفق على التعليم اكثر من الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها كلها ومثلها حكومة بلجيكة وامتازت حكومة سويسره باتفاقها نحو ثلث دخلها في هذا السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدارس الاهلية والاندية الادبية والمجامع اللغوية وغرف القراءة و تنشيط المؤلفين واصحاب المجلات وغيرهم من ذوي الاقلام وتكافئهم باعطايا الجزيلة لانها تحسب ذلك من افضل الذرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن امتن الدعائم التي يبني عليها العمران . وقد حذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحقت الثناء الطيب . الا ان البلاد لاتزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس الكافلة بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه الثلمة في القريب العاجل بمنه تعالى وحسن توفيقه .

اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها ونهض من كبوتها وثيقن انه لاجل الحياة لها الا بالعلم وان العلم لا ينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يعاونوا الحكومة على بث المعارف بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي تنور الازهان وتشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصاً ان يبذلوا شيئاً من اموالهم لمعاوضة المشروعات التي تنفع الاوطان وتضمن لها النجاح وعلو الشأن ذلك خير من بذل اموالهم في سبيل التمتع بلذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينفع بها احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي او خزنها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينفعوا هم بها ولا نفعوا غيرهم . ان بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الاتفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر ولكن باقي الاغنياء لا يزالون مهملين هذا الواجب غافلين عنه وهم يباهون بايلام الولاثم الفاخرة وركوب الخيول المطهمة بينما يباهي اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية ومعاوضة الملاجئ الخيرية ولا يقتصرون على معاونة اوطانهم بل يرسلون باموالهم الى غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمةً للانسانية كما تشهد آثارهم في هذا القطر وغيره من اقطار الارض البعيدة والقريبة فتمت ابيهم اغنياؤنا



بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبه الكلية الاميركية او الكلية اليسوعية في بيروت بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف من سكانها يجهلون القراءة والكتابة . ربما يعنذرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا ببذل اعمالهم ولكن قللة ثروتهم لا تمنعهم من القيام بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لا تطالبهم بما هو فوق طاقتهم بل المتوقع منهم ان يتعودوا البذل في سبيل العلم شيئاً فشيئاً الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع وما ذلك عليهم بعسير . فيا أيها السوريون النجباء والاخوان الادباء اجبهوا نداء محب مخلص يدعوكم الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز . وسيرها في سهل التمدن الحقيقي بالمجد والنشاط والعزم والتبات تبلغوا ذروة النجاح . وثقوزوا بالخير والفلاح . والله المسوؤل ان يوفقكم لكل سعي مشكور . ويعضدكم في كل عمل مبرور . انه ولي الامر والتدبير . وهو على كل شيء قدير .

عصر القمقر قد مضى واتاكم  
 فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم  
 وابذروا المدارس وانشروا الكتب التي  
 فالجهل ايل ماله من هازم .  
 عصر بانوار التقدم ساطع  
 في العلم ان العلم فيه منافع  
 من النهي والفضل فيها يانع  
 الا صباح بالمعارف لاعم

انيس سلوم



# الحقوق المدنية

## في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اهدت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ماوقفنا عليه من الكتب السماوية . ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لا تخرج عن ثلاثة بغد اليث والاسنقراء .

### اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية . ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية . وقد اشتير على السنة العموم ان الحاجة اصل الاختراع . ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، ومما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم .

### ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل انفاق آراء العالم كافة او اهل محيط بتمامه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكاليات من الحقوق والارنفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك . او المهايأة زماناً او مكاناً على الانتناع به قالوا ومن ذلك توريث الابن مال ابيه . وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بجمالة فقدان النص من الكتاب او السنة اللذين اعتبرهما الاصلين الاولين لانواع الشرائع والاحكام .

---

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي

وذلك في ردهة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢١ م

### الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قديماً أعليه من المعاملات الكمالية ما لا يكون مبرماً مع عدم انفاق الآراء والنظر على تعبين ما يقع ملائماً من صورها و كيفياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ بآية صورة تحظر لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبق اية كيفية يتمكنون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المقصد الحيوي من تلك المعاملة و يغلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات .

و بعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكيفيات لمصلحة الفريقين المنفقين على ايجاد تلك المعاملة بينها ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغلب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولاً عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله من وجب عليه ان هو حق له .

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على ممر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور .

### علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخصه ماهي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية . والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل العظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق الفاضلة وتطوير الامم من سحيق الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي وتقوية الروابط القلبية فيما بيني البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحب الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساويء والقبايح باختيارهم بعداً عن اضرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين .

وقد اقتدر كل واحد من السارعين على ان يتطور بنفسه وتلامذته الملايين من

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع .  
وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يجاريهم فيها احد سواهم من اكابر الفلاسفة واناظم نوابغ الامم .

### الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

مما تقدم علم انه لا بد لاية أمة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لا يمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان التماثل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في نبراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وماوصات اليه من درجة البعد عن التمس واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تستخرج بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والقبح .

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكتشاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي المدياة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسه قبل الميلاد بالذنين واربعمائة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عندا كثر المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلا من الرجل والمرأة انما يقترن بمن يساويه في الطبقة الاجتماعية لا بمن هو فوقه او انزل منه طبقة .

وقد كان يقع نادراً اتحاد السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملوكي فيجوزون لهم التزوج بنات الاحرار .

وكان زواجهم بعقد يكتب ويدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن الشريعة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينفق عليها فيسوغ لها ان تلجأ الى من تختذه زوجاً فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولادها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مبرراً يسمى تمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابيها ايضاً وكلا المالبين يحفظان للزوجة عند الزوج الحاجة .

ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وحينما يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده ويطاقتها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يتزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طيل حياتها .

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشرة الزوج ترفع امرها للقاضي فينزعهامن الزوج جراً اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء .

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية . ولا تفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمنع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة اقيم السلع وتقدير اجور الصانع حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والمحامين .

وكان عندهم عقود وصكوك للمعاملات العامة .

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاحبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظبر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانظام ارتقى بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقدورتوا عن هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهر واعنات الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بداع وبدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة من سببا الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عد دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان .

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المقدمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

بدن ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبات الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي التجاوز على العرض .

ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة وانحصار الكسب في طرق بسيطة كقتليل من النسخ وتربية المواشي وما شاكلها .

### الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي « لاواسط القرن الحادي عشر »

اما الرومان اصحاب الملك الضخم والمالك الفسيحة فقد كانت الحقوق المدنية وفي جملتها دلائل القضاء عندهم على اتعس ما يمكن ان يتصوره الانسان . فقد اعتبروا من ادلة القضاء المصارعة ما بين شخصين قوبين من اخفاء المتداعين وامتحان الحق من الباطل في الدعاوي بالحديد المحمى في النار الذي كان يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالقوق أخرى والطرح في الماء البارد في الشتاء حتى وبالصاب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة او البراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة .

ولأيستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برايرة افريقيا . وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يتغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف .

### الحقوق المدنية في الاسلام ومنابعها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السماوية ولا مطرداً من كافة الرسل العظام .

ومن الدواعي على انه اوحى للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي للمحيط الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل الحكيم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السبب .

غير ان ما اوضحه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي الانسانية المطرد حسب سنة التدرج .

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك . وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن لحي الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . بقرنين ثمرين من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستطباً من مياهها المعدنية .

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً للمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس والبغاة وهذا النوع لا يمحصر كثرة .

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كالبيوعات والاجارات التي ادخل عليها من الشروط في العقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتها ويرفع النزاع فيما بينها ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطال ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأييد الظهار والايلاء وابداله بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصراً على قوله ولم يرجع عنه واوجب عليه عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل والتجاسر عليه .

وشرع احكاماً جديدةً لاعهد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعان ما بين

الزوجين الذي عاقبته الفراق الدائم فيما بينهما عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل تقع به القناعة .

وقد كانت عرب الجاهلية تهرع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتقاداً بان لهم صلة مع الملائة الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الظاهرة للوقوف عليها .

وشرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم .

ووسع طرق القضاء واوضح اسبابه على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديم تفصيل ذلك والاحاطة به متمسرين لمن وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك .

ثم ان الاصول والمنايع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة ندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي الكتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله ونقريه ما يراه من عمل غيره ويعبر عن هذين الاصلين بالنص التشريعي وما في معناه .

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي ويعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً باهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنايع العامة والمنبع الرابع القياس المختص الاستنادة منه بهؤلاء العلماء المتقدمين في الاجماع ومن هذا يتضح ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كما ان نصوصها قد صرحت بمراعاة الاعراف والعادات في التشريع وبمباشرة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المتحددة بتجدد اطوار الحضارة وال عمران .

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد غزيرت اي السلوستر الثاني الافرنسي الذي جلس



كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة .

وعليه فكروا في ان ينقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واقنعوا بضرورة ذلك ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم .

وبعد ان انفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصيل خوفاً من نفرة العسامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام . مما كان حسناً ونافعاً فاجمعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية من تلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او (القانون المدني) وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم بنتيجة البحث والدرس .

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتي :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث المنقب مفضل بن رضى الاسفرنكافي ما نصه :

كتب ابو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيره نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم هربرت والبرت فانها طلبا مساعدة العلماء لابرار مقصدها وقد ساعدها حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لاتزل رديئة وسيئة في العدو الشمالية من بلاد

الافرنج اء المقصود نقله من عبارة الاسفرنكافي من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ما وراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :

قال العلامة المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بمعرفة العالم هانري جيب الاميركافي المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي مانصه : ان هربرت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفاسفة والطب والتعاليم لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكانت تليذ علماء العرب في قرطبة وسفلا ( اشبيلية ) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وتترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعاليم التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التسديق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضع قرناً بعد قرن في كتاب موسيم المحدث عنه وعدم تجويز العقل ما يلقفه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة او خمسة قرون فانه من المحال ان تجهل أمة تانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القانوان المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولولم يدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . والمخلاصة انه لا يوجد سند تاريخي ثابت

يدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجود به الآن او قريب منه قبل رحلة سلفستر ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينظر وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي اصرح مما تكلم به المؤرخ موسهم مع الجزم بانه ما كان من الممكن للاخذين التصريح الواضح بنسبة ما اخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكليروس الكبرى وتضطرهم ضوضاء الامة المتقادة اليهم للعدول عما يرونه من انفع الاعمال لبلادهم ومن اكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانها أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح يأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مفضل الاسفرنكاني المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اواسط القرن الخامس انما دونت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من ثلثائه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما اكتتموها عن قومهم قصداً لمقصد سام لا يعابون في الكتمان من أجله بل يمدحون وانما حدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تازة بدون قصد لعدم وجود التصريح بها في ما أخذ علماءهم وأخرى بقصد لمن وقف عليها من المأخذ العربية حبا في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يجلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .  
وانني لموقن بانه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين متأخين متحابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .



# حقائق تاريخية

## عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها  
واجناسهم — حضارتها وعمرانها .

### ١

## توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) ف قيل  
في اسمه الشام لان السين والشين تتبادلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر  
بشغره الذي كان مدينة صور ( صخر ) سمي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين  
افتتحوه فرأوا الاشوريين يتولون شؤونه فنسبوه اليهم وقالوا ( اتورية ) ثم حذفت  
الهمزة وأبدلت الشين سيناً ف قيل فيها ( سورية ) واول من ذكرها بهذا الاسم  
هيرودوتوس المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر  
استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها اي ( سورية ) .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: ( أولها ) سورية  
الشمالية وهي تبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن  
أمهات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة . ومن أمهاتها الساحلية اسكندرونة  
ومرسين واللاذقية . و ( ثانيها ) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة  
المتأخرون اسم سورية الخوفة تعريب كلمة ( Cœlé-Syria ) والاولى ان يقال

---

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف أحد أعضاء مجمعنا

العاملين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م .

(٢) وضع المحاضر معاني بعض الاسماء بين هلالين لئلا تنسى الفائدة .

في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في أرض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق . وهي بتبديء من مدخل حماة شمالاً ونتهي جنوبي صور جنوباً . ومن أمهات مدنها الناخلية دمشق وتدمر وبعبك وحمص . ومن أمهاتها الساحلية طرابلس وجبل وبيروت وصيداء وصور . و ( ثالثها ) سورية الجنوبية وهي ما بقي من سورية ويدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان ( المنخفض ) واليوم فلسطين ( المتغربين ) وسميت بعد ذلك بأرض الميعاد والأرض المقدسة . واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الناخلية اورشليم او القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرية وطبرية ونابلس . ومن الساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها من التشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩٥٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف . فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع . ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجاد  
ومن جسر المسيح يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المراد  
ومن يافا كذلك الى معان فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغلباً نسبة الى آرام ( المرتفع ) وهو ابن سام ان نوح النبي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية . والعرب جاروهم بذلك ثم غابوا اسم الشام . ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب ( رضه ) ودع البلاد بلغته اليونانية قائللاً ( سوزه سورية ) اي ( كوني بسلام يا سورية ) . وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

## ٢

## دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظرفي ( الحجري ) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلماذا كانت هذه المدينة العربية في القدم اشهر مدن سوريا وانغمها آثاراً ( ماعدا مدينة بعلبك ) واوفرها خصباً واغناها خيرات واكثرها منزهات واغزرها مياهاً ولقد ذكرتها آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات تل العمارنة بعد قرنين كما ذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة . وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني ( جماعة ) من الكنعانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح ( ١ ) خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقبل له جبل الصالحية والى هذا أشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرموت ( القمة العالية ) وعلوه — ٩٤٠٠ — قدم وهو يرطب جوها بندها البليل المحمول

( ١ ) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدية الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي و باب توما قرب التبخ ارسلان خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على اجنحة النسيم وحوطها الفوطتان الشرقية والغربية وهما من مآثرات الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى ( الباردا او الوردى ) ( ١ ) وينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة و يتوزع عليها انهر أسبعة بهندسة بديعة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان بلغتهم مجرى الذهب ( Chrysorrhoeas ) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فليل له ( مجرى الذهب ) .  
والمدينة مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة و بقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري ( ١٨٣١ - ١٨٤٠ م ) فسلمه السكان مغايب المدينة عندما فتحها ودخل من ( بوابة الله ) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلين فبقي الآت بعض السور والابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابراج ولها سور وحوطها خندق يرد عنها الغارات فجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنيثها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعتُ اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخرًا مختصرة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات تاريخ الشام ودمشق وعمرائها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تعييص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخطب الباحثون في تفسير الاعلام و بقي الاشكال غامضاً فبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغناً للمؤرخ يجتق فيه الآراء و يصحح النقول في عمداً لا تون على اقواله . والله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ماهو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن » . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من جعل لكلمة اصبهان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (معجم البلدان ١ : ٢٧٠) بانصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصي وفر . قيل له : فالطفشيل . قال : لانه طفا وشال — اه » .

( ١ ) نسبة الى ( لود ) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون ( روت ) كما سترى .

فرايت في اول محاضرة انندبت لالقاءها على منبر هذه الردهة بعد عودتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محصاً — على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه الذرع — بعض ما كان مستوراً بحجاب الالهة في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على انني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندر كها بابداهة راجياً من لطفكم ايها الكرام الاغضاء عن الهفوات . فليس ما تسمعونه الآن من الآراء الحديثة في التاريخ الا نذبيهاً الى البحث والتنقيب للتحقيق والتمحيص ليكون تاريخنا كاملاً مبنياً على الحقائق والرايين الدامغة . فلا تحملوه يارعاكم الله على غير حسن القصد والله حسي .

### ٣

#### اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية النادرة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحلل الآن أسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في معجمه ( صبح الاعشى ) المطبوعة حديثاً — دمشق وجلق وحكي في الروض المعطار تسميتها جيرون والعدراء . الخ . اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسائها لانه اسم أب الدين احتلوا واخبطوها من اللوديين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنننا الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم أب الآباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتبهر ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة (١) فان بالشام اقدماً واوصالا  
وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عمماً ولا خلا

(١) اي زالة وواقعة .



فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .  
وقال صاحب مرصدا الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد  
مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان  
البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الا ما كن التي نزلوها تيمناً باسم  
جدهم ( سام ) .

بانيها دمشق = لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية  
انها لودية او ارامية ( اي كلدانية او سريانية قديمة ) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات  
تل العمارنة باسم ( تماسكو ) باللغة الهيروغليفية ( اللغة المصرية المقدسة ) ومعنى الكلمة  
المزهرة او المثمرة تسمية بغوطتها الحصيبة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم  
منهم ابو عبيدة الجعفي بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا

اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة ( Damascus ) وعنه نقل الافرنج تسميتهم  
للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا ( دمشق الشام ) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة  
( دمشق العرب او الاندلس ) لان سكانها كانوا من طواريء دمشق الذين ذهبوا اليها  
مع من ذهب الى المغرب فاختروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها ولجبل الثلج المطل  
سايها فكانت اتسبه بمدينةهم الاصلية . وكن ابن جبير الكنافي الرحالة فرقى بين  
الدمشقيين بقوله :

يا ( دمشق الغرب ) ها تيك لقد زدت عليها

تحتك الانهار تجري ( هي ) نضب إليها

وورد اسمها مؤثماً في شعر عبد الرحمن بن صهيب الحجيمي لما حاصر عسكر يزيد

ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا على خير حال كان جيش يكونها

وانا على بابي ( دمشقة نومي ) وقد حان من بابي ( دمشقة ) حينها

الثالث جلق = لقد غمض اشتقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المريمية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر فقبل فيها (جنّيق) ثم بالابدال (جذّيق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) . وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك منها قوله :

لله درء عصابة نادمتم يوماً (بجلق) في الزمان الاول

يسقون من ورد (البريص) عليهم يردي يصفق بالرحيق السلسل

واما البريص او البريص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منزله او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنزه او الفردوس ولعل اسم برزه من هذا وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط (ولعله منحوت من مقام الصلاة) وهو موضع النحاسين الآن . وارى اسم بردى من هذه الكلمة وقال في مرصد الاطلاع : (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس . ثم قال : (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصاه من جهة الغرب . (اه) وهذا دليل آخر على حمل الدمستقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبياً وحينئذ الى وطنهم الاول .

الرابع جيرون = اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلًا لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم . وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (الوفرة) وهي الفوارة المنشأة سنة «٤١٧ هـ ١٠٢٦ م» . ولا تزال آثار السور الذي كان يمدق به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية . وفي داخل باب جيرون « محل الجيرونية » كما تسمى الآن . وعلى جانبي باب جيرون عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الاعمدة لسير الناس والسوق بينهما للعجلات والحيوانات . وحوله كابات يونانية على يمين الداخل في موضعين ( ١ ) . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته « عتبه العليا » نقوش بدبعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً : ومثلها الى شرقي الجامع عند باب الريد ثلاثة أعمدة عليها طنن وكثيراً ما ذكر التعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر « دمشق » بشق اقلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلاً  
واجرد « بجيرون » ذيولك واختصص معنى تآزر بالعلى وتسربلاً  
وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب « جروند » بمعنى السراج وهو بعيد  
كما لا يخفى .

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مرصد الاطلاع : جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالمحلة . وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان « اه » . ولا تزال آثار الاعمدة حولها ظاهرة .

( ١ ) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القميرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة « جيرون » طبرت في الجدار العربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الان الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة . وفي بيت البردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدى الى البيت طمست بالبناء فوقها . وكذلك في بيت السمان في القميرية كتابة أخرى يونانية كنت اول من اطلع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المستري « جوبتير » وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض .

قلت : واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثرأ في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها تصفحت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « حبرون » المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتصحيف حارون « جيرون » .  
 الحامس اسماؤها الأخر = سميت دمشق باسماء أخر ك بيرة نسير اليها نتمه للبحث فساها يولييانوس الروماني « عين الشرق كله » لعمرانها . ومن اسمائها العربية « إرم ذات العماد » وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو لقبيله لالمدينة والذي أراه ان العرب لما رأوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العماد » ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها « ناصمة أرام » و « أرام دمشق » تميزاً لها عن « أرام صوبه » في وادي سورية المجوفة . و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة زمان السرياني » وهو احد سكانها . و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان يدمم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانه في ظاهر دمشق . و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيسها القديمة المعروفة بالمريمية . و انها تعرب كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفاً . و « قاعدة وادي سورية » المعروفة بسورية المجوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القاها « الفيحاء » لاتساعها و « الغناء » لانناف اتجارها الكيفية و « جنة الارض » لكثرة حدائقها وغزارة مياهها .

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كبير من الحقائق الغامضة التي يتمثلها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن الأسماء باللعنة الفنبقية « دمر » تحريف دامور او تامور او تامار وهو عندهم الاله الحامي فكأنهم اتخذوا حسناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارتهم الشهيرة . و « بلاط » تحريف « بعل باليت » . وفي جبل القلمون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق .  
 والاسماء الآرامية أكثر من غيرها مثل ( بيت لهيا ) اي بيت الآلهة . و ( المعرة ) بمعنى المغارة . و ( ديرمُرَّان ) اي موران بمعنى سيدنا و ( آبون او قابون ) بمعنى ابنا لدير كان فيها و ( حلبون ) بمعنى الحصيبة و ( معربا ) بمعنى المغرب و ( تلفيتا ) اي تل النبي

أكثر غاباته • و (معرونة) أي المغارة الصغيرة •  
ومنها الأسماء الخثية مثل الشاعور (بمعنى الصغير • و (قطننا) تحريف (كننا)  
وهو اسم الخثين وكذلك (الغوطة) فإنها تحريف (الكتنة) •  
والهبوسية مثل (هبوس) و (كفر بيبوس) نسبة إلى الهبوسيين من الكنعانيين •  
و (جديدة الجرش) نسبة إلى الجرجاشيين منهم أيضاً •  
واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر • و (بيت اوراس) أي بيت السماء وهي الآن  
أطلال خربة • و (عين ترما) أي الحمة وهي العين الحارة المياه • و (اقريس) تحريف  
(فاراتريس) أي ضارب الأعداء ومبدهم وهو من أسماء المشتري • و (الفيجة) وهي تحريف  
(فيج) بمعنى اليبوع • و (مقرا) من منزهاتها أصلاً يوناني (مكرا) بمعنى المستطيلة •  
و (نهر تورا) أي نهر النظر في اليونانية وقيل أنها باسم حكيم اسمه (نورا) أو نسبة  
إلى تاج الملك (بوري) (١١١) •  
والرومانية مثل جبل (القلون) بمعنى المساح أي جودة الهواء • و (بانياس) من بان  
إله العبابات وهو من أسماء أنهارها اليوم • •  
والعبرانية (المزة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه «الحواف» أو هي يونانية بمعنى التل  
أو الرابية وقربها (الربوة) المدينة الحربية الآن بعد أحراق الصليبيين لها •  
والتارسية (جوبر) من جو بار بمعنى مسيل النهر الصغير • و (حراستا) من (خر) بمعنى  
الشمس أو حور اسم الله و (روستا) بمعنى سواد وقرى أي قرى الشمس ومنها  
عرب الرستاق عندنا و (منين) فإنها مركبة من (مه) كبير و (نين) زحل فمعناها  
رحل الكبير أو من أمي) بمعنى الحجر فتكون بمعنى باخوس •  
وذكر أن عساكر كبيراً من أسماء القرى العربية مثل (صعاء) وهي خربة الآن  
دون المزة مساة باسم (صعا العين) العربية • ومثلها قرية (الحمر بين) الخربة وفيها مسجد  
كان مشهوراً وهذا من الأدلة على أن اليمنيين نديروها •

(١) هو زوج زمرد خاتون أم تيمس الملوك تحت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ

(١١٦١ م) وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المسوبة إليها •



## سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العالقة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي . ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء اعمامهم كالبوسبيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الارض على ضفاف خليج العجم وماليها في القرن العشرين قبل الميلاد دامت قلوب سكانها من القبائل السامية والياثية والحامية ففرتوا منذعرين من نقويض مساكنهم وتدمير عمرانهم فاساحوا في الارض الى ان رأوا نجعتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظفروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم النيبدييون الذين غلبهم اللوديون والآراميون والعبانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووثقت اواصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم قليلاً فنشبت بينهم مشاحنات وعتت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة .

ومن سكت عنهم المؤرخون او اغفلوهم او اشاروا اليهم من طرف خفي ( ١ ) اللودانيون اخوة الآراميين لان سام بن نوح رزق خمسة ابناء هم عيلام وأشور وارفاكشاد ولود و آرام .

وبما ان مملكة ارام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على السنة المؤرخين فآثاروا اليها بالتفصيل واغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من ارام فلما قبله واشتهر . وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبها . فأسسوا مملكتهم الضخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الآراميين او معهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولاسيما هيكل رامون المنيع الذي حوّل الى هيكل المشتري ( جوبيتر ) ثم الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بآثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة . ولهذا أفرد هذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن اصلهم ولم أر احداً تعرض لوصفهم بالتطويل

( ١ ) راجع ليرمان ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الاترية منها . وكتب السياحة ونحوها .

غيري في مانشرته في مقنطف السنة الماضية بعنوان ( اقدم سكان سورية اللوديون ) وهو بحث مستفيض .

نقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلماذا اذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر أرائنا صفحات جدرانه انطالعها فنقرأ فيها اخبار غزوات الفزاعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (روننو) لان اللام والداد تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والناء فيقال في اللودان الروتان . مما يثبت ان سكان سورية حين غزا تحوتموس ( او توطميس ) الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوديين او الروتين لاغيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين . وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلماذا كانت دمشق عاصمة اللوديين وحصنهم المنيع في ( بلودان ) اي بيت اللوديين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارثاعيا ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدام منها فهي تشرف على جميع المضائق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصريين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية .

ولما استظهر المصريون على اللوديين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضائق وادي يحنوفا لدفع غزوات اللوديين لهم من دمشق وضواحيها وسموه ( بريتان ) اي بيت الزوتيين بلقتهم المصرية كما سبق وهي الى اليوم قرية عامرة . وقرية قرية ( حور تعله ) وهي مركبة من ( حور ) الاله المصري الذي يقابل ( ابلون ) عند اليونان و ( تعله ) بمعنى تعالي . مما يدل على نزول المصريين فيها واتخاذها هيكلًا لآلهتهم . ومن غريب ما قرأت في تاريخ ابن عساكر ان خربة ( حور تعله ) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نفراً من الروتين جاؤا من بعلبك واستعمروها وسموها باسم بلادتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل ( تربل ) في البقاع . فان سكانها في زمن الايطور بين ( الجلبين ) الذين غلبهم بومبي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاضرتهم كلثيس او خلقيس ( مدينة النحاس ) اي عنجر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل تريبل فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .

واذا اردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الرومانية في انحاء سورية نرى ان اسم ( بيروت ) يقرب من ( بيت روت ) فكأنها كانت تغرم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا اولى من تسميتها « بالابار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا ينبع فيها بل انار فقط . ولما خضت بيروت بذلك الاسم دون غيرها ؟ . وانما في الانار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الابار .

ومن اوجه ما هنالك ان نير الليطاني الذي تتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس الا تحريف كلمة لوداني اوروثاني وان شئت فقل « لوثاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الافيج . وكذلك نير الرذوني المتخلل زحلة ونير بردى الذي ينساب في هذه المدينة يتروح انهما من هذا الاستقاق فقيل نير « بيت روده » ثم نحت وابدل فصار بروده او بردى وحذفت كلمة النير . و يوجد في سهل بعلبك قرية ( حوش بردى ) او ( حوش الذهب ) والاسان من اسماء نير دمشق كما مر . وتوجد قرية برقي في جزين ايضا وهي من هذا القبيل وقس عليها .

والمرجح ان اللوديين هم الذين سيدوا الحصون والمعقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركيس وحلب وسيزر و قدس وحماة وحمص ودمشق وكرك السويك وغيرها اكثر غزوات المصريين لهم . وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما ( كركيش ) المركبة من ( كركو ) اي حصن و ( كموش ) الاله القاهر . ومثلها قرية ( عر حوش ) في القاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالفيسة . وعرفت كركيش هذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرا بوليس فجرا بوليس كما هم الآن .

وعاصمتها الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على خفة بحيرة باسمها تدعى الآن ( قطينة ) نسبة الى الحثيين الذين سمو ( كتهين ) وهي في محل النبي مندو



في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحفر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الروتية ان الآثار المصرية لم تدون في مادونه من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروتو اسي اللوديين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثيين استظهروا على اللوديين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانهمز الاراميون — الذين امتزج بهم ابناء عمهم اللوديون — الفرصة للاقتصاص من غالبي انسابهم فضربوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل الينا اليونان ذكر الاراميين في منازلهم ايامهم ولم يذكروا اللوديين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا تعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العالقة ولا سيما الجرجاشيين والبيوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللوديين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفعت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكان منهم قبائل الضجاعم والفساسنة والقضاعيين والاياديين والايطوريين وغيرهم متخلفين حكم تلك الدول باماراتهم وملوكهم .

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحفرتة ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزيل اكتشافاتها كثيراً من الالتباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

وغزاه ملوك اشور و بابل هذه البلاد ولا سيما عاصمتها دمشق هذه وكان تغلث فلاسر تاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ ق م وحلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها سمناصرو ضايق اهلها وقطع اشجارها . وكانت الدول العبرانية قد طمعت نفوسها اليها ففتحتها داود الملك وحالته ثم انقضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عرر ملك صوبة الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من ارامي دمشق ٢٢ الفا واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وادوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بيد الاشور بين الى سنة ٧٢١ ق م فانفق سكان دمشق مع اليهود على الاشور بين ثم استولى عليها البابليون والفرس . وقال استرابون: ان دمشق كانت اسهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وكنزت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفاتها . واسقل بعض سكانها الى تلك الاصقاع سنة الله ( وان تجد لسنة الله تبديلا ) .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزحوا سكانها وخفيت اصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرحوز الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى ( مجرى الذهب ) كما سبق القول آنفا . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الآباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتا تعرف فيها باسم آل الخوري الكثرة الكهنة الذين تأسلوا منها والله اعلم .

وكان انقلاب عظيم عند نصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في ايام نيودوسيوس الكبير الذي شدد الكبر على الوثابة وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رمه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم ( بمقام سيدنا يحيى ) داخل حرم الجامع الاموي وفي وقت قصير ننصر اهلبا كلهم ما عدا اليهود فكثرت بينهم الحصوات .  
 وفي سنة ٤٤٠م فتحها العرس ودمروا معظم ابنتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد قليل الى الرومان وعمالمهم الفساسة مجددوا شيئاً من حضارتها وابنتها .  
 ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ هـ ( ٦٣٤ م ) حدث انقلاب آخر في الحاضرة فهاجر منها واليها كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فتازحت اصولهم . ولم يطل الوقت حتى هاجر كثير من سكانها ايضاً الى المغرب والاندلس . ثم اكب فيها العباسيون الامويين فحربوا مساكنهم وقتلوا منهم خلقاً كبيراً فزادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة .  
 وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين اليها وسكنوا فيها بأمرهم ونشروا فيها الصناعات الجميلة .  
 ولما كانت الحروب العباسية وحوصرت النعمور والمدن رحل كثير من الامم الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقاياهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم .  
 وفي حلال ثلاث العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوريين الوطنيين . والقباسيين او المصرين والجنين . والامويين والعباسيين . والمشاركة والمعارفة . والسنة والتبعة . الى ان كانت حوادث الاكتسارية والقبول فاضطرب حبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من امكة مخلفة .  
 ومن اكد كتابها غررة تمور امك ( الاعرج الحديدي ) فضايق الدهشقيين وتدد عليهم وامنهم حتى سلوا وبنهم ان حلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه انه قال له :  
 دعني اقبل يدك التي اناملها الاقاليم الخمسة . و اراد بذلك انه كان قد فتح خمسة اقاليم .  
 فدحل تمور المدينة ولم يوءزها اولاً . واكنه حاصر القلعة وبكت بوعدة . فتكب الاهلين تركمة وسلب أموالهم وأحرق البوت وكان يعذب الامراء فيستقيهم الرماد ويعطيهم الماء والملح والكس ويكويهم بالسار ليقرؤوا له ناموالم فاستخرجها منهم استخراج الزيت بالمعاصر . ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والاحراق والاسر على الاطلاق فزق شمل السكان كل ممزق وسبي المخدرات وبقي على هذه الحسالة من الضغط ثلاثة ايام فاحرق المدينة وغادرها ملهبة غيظاً ونقل جميع صناع السيوف والزجاج والاواني

الفاخرة والاعيان . ففرّ من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى . وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولاسيما بين القيسيين واليمنيين فقصدتها كثير من الأسر المسيحية فلبثوا فيها مدة و بعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب و عكار والحصن و لبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلهذا نشأت اصول أسرها وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك و فرس و يهود و كرج و قبط و سريان و ارمن و يونان و اوربين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح و اهل البيوتات المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بأل الحكيم قدمت اليها من بلاد العم . وآل الرحي من اطبائها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطبائها و علمائها ومؤلفيها ومشاهيرها من الطائفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما ستري ولذلك ترى معظم اسماء أسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهرو جوهري و مسابكي و صيقل و حداد و نحاس و قزاز و مباردي و قساطلي و ساعاتي و هو او بني و منير و خوام و مراياتي و جرائحي و طرايشي و حفار و طباع و نحاس و مساميري و مشاطي و صباغ و نو بلاتي و محاري و صانع و خياط و ترزي و بارودي و بنا و حكيم و مسدي و دقاق و نقاش و حجار و سماك و فراء و فراية و نجار و قصار و حائك و مخشن و قباقيبي و نشواتي و اشباهها . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لاتزال مخطوطة معدة للطبع .



## حضارتها وعمرانها

لقد أسس حضارة دمشق اللواديون والروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعراقيون والاشوريون والبابليون والماديون (الفرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى .  
ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والتاغور (الصغير) والقوطة وقطيا حتي ودمر بمعنى تamar اي الاله القادر فينيتي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة (١) كانت حضارتهم اساسا لما بعدها لانهم استجروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وتدية فشيئت فيها الابنية الضخمة منها « هيكل رامون (٢) » ونحت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك يا قوت في معجمه والارمن ازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل وهو في غربي الصالحية تحت قبة السيار .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعبادتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعليك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجا تدل عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة (٣) » فكان الفينيقيون يعبدون علاتيون وهو

(١) من سنة ٤١-١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١-٧٤٩ م

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ

وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما اكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و(بسمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما انتصر اليونان والرومان تقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحنظموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المنتصرة ومعظمها كان من غسان وقضاة واباد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورمت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من روتقها القديم طعمة للنار فرمت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القميرية) وهي على مايلوح لي بقية كلتي (ايكوز— ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صليبها مقابل باب الفراديس . ودير مران ودير هند ودير ايا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيين وكان وقربها جامع خرب .

واكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠م فخرّبوا ابنتها وغيروا

ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدنها (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يعني .  
ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولإسبها في  
زمن الدولة الاموية التي اتحدت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية  
بمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة  
بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في  
الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي  
فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية  
والقبطية فانشأ ( دار الترجمة ) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في  
قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رفوف بالعربية والسريانية والعبرانية  
والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى  
الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما  
تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله  
في تسع سنوات كان يشغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما  
شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : نقولون ونقولون وفي بيت مالكم  
عطاء ثمانى عشرة سنة اذالم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ  
في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي  
فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب  
الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالى عليه الحرائق

(١) اقدم بنا من تسميات الفرس ( جلق ) و ( جوبر ) و ( حرستاومنين ) في صفحة  
١٤٩ . و بقيت اسماء كثيرة منها اسم ( الزبداني ) ومن رأي صديقي ورضيبي الاستاذ  
انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي ( سيب ) بمعنى رائحة التفاح و ( ستان )  
او ( دان ) بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب :  
من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل  
كفر زيد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان . وروي غير ذلك ايضاً .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من  
الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .

ولقد شيد الوليد ابنة اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية ( القسطنطينية )  
ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع  
بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع  
و بلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار  
ابنه مسيلة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما  
هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف ( بالميدان ) وهو من  
احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان  
الحتم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمينيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال  
اي السيوف وهم مشهورون بها قانقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا  
يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من دار يا حيث آتار المعامل . ولا تزال  
محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي  
من أسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال  
ان بني ( بولاد ) الاسرة المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها  
كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من  
مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .  
وبقي الدمشقيون منفقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس  
عشر فأمات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان  
العجم كان اهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم  
ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة



بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملون المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرة ابداع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج وتجربها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . واخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة . والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره وصناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة بأكثر تفصيل وادق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحوت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخلفت تدمر ( ملكة البر ) واشتهرت بنجاج ارضها الخصبية فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدتها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمعاً للحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فتحت ترعة السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلماهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادهن الرائع سبي في ذلك العصر و بينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينه ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلاها

مقدمة له الآراء الجديدة . ورابعة العدووية المشهورة بزهدا و برها وادبها الى غير ذلك  
من كانت بهوتهم بمجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها له علاقته  
بها . على انه لما اضطرب جبل الامويين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرّب  
دورهم وشتت شملهم فحما كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة  
وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حلّ في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل  
الذي نوى نقل دواو بنه اليها ثم نقض ما برمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .  
ودخلها سيف الدولة بن حمدان بتولى شوؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة  
ما اوجع عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق  
خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية)  
فقال له الملك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام  
كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها .  
فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فغيروا على سيف الدولة . وكاتبوا كافوراً يستقدمونه  
اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة ونافسها في التجارة ونقف  
في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامويين الذين سيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها  
فثققت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شوؤونها بيد الدولة الابوية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع  
منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأسست فيها المدارس الكبيرة  
والمستشفيات والملاجئ واختلف اليها العلماء والاطباء والصيادلة . حتى كان عدد مدارس  
القرآن الشريف سبعمائة والحديث ثمان مائة والشافعية سبعمائة وخمسين والحنفية احدى  
وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية اربعاً والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري  
وصيدليته والبيمارستان القيمري . و بين تلك المدارس تسع استسما فاضلات النساء

من المدكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والحوائق والزوايا والتكايا مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وسيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشائخة . وانشئت الخزائن الفاخرة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبع منها العلماء والشعراء والادباء والمؤلفون على اختلاف ازمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها بابنية منيعة . مثل الملك الظاهر والعاقل ونكز والاشرف ومصطفى لالاباشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصرية التي اولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجرانكاهة الذين اولهم الظاهر برفوق والثمانين الذين اولهم السلطان سليم وامراء القميرية كلهم يجهلون العمران .

ومن متأخري دول الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيّدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر والياً في انحاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث مجدهم الباقي مثل دار اسعد باشا وبعض ابنتهم وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم واولقافهم .

واشتهر ابن المشقّين من ارباب الصناعات الاخرى والحذق من ذاع اسمهم في النوارخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكروا ابن ابي اصيبعة في كتابه ( الحكماء ) مهذب الدين احمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك نجر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق . ومن ذكروا غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

ولقد انابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفنوق وغيرها من النكبات فمحت كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرائها القديم في الشوارع والبيوت فاذا اريد اظهاره احتيج الى نفس الاماكن وتقويض الابنية لاستشارة دفائن مجدها القديم وكفها انها كانت آية البناء الشرفي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرائها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويحرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والاخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفيه التارح العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (النوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب النوفرة . ولما حفر اساس الثكنة في حي النصارى الممتد الى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة السحيم الى الباب الشرقي باعمده وهندسته . وكان عند مأذنة السحيم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهيه

اما ترك ابوابها قد جعلت ثمانية

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عمر في وسطها مرادباتا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .  
ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابوالبقاء عبدالله البدرى ابواب المدينة بقوله :  
وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نورالدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأُقفلت الابواب ، يستغني اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة بالحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعان هذا كان ابرص او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له :  
عندي ابانة (بردي) وفر فر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل

الباب الشرقي مجذمة ( قعاطلة ) المسيحين ايضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم ( مقعطل ) او ( مقلعط ) وهي حظيرة المسبك الآن .  
وفي احياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخية وكتابات كثيرة ولاسيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجوامع . واعمدة ومدافن للصلحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعةً اذا اصول ضبط واتقان فتدور المياه باقنية وانايب نافذة من دار الى أخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة تفريع المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه منفرعة من سبعة انهر هي اقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه .  
وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصفير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير ونعب الغراب وسقطت حصة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياها في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحمار فضلاً عن ابراجها وقلعته وآثارها ومرصده الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ان النبطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستمراء المظالم والتسكوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها .  
ولقد نقلت الدول التي توالى عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحف هذه المدرسة المعروفة بالعادية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها .  
وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كما ذكر النجف الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده .

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) بزمن ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فحلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة مز

فلاحيتها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عائق السكان فجدد عمرانها بعودتهم اليها .

اما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من منزهات الدنيا الاربعة فكان عدد بسايتها في القرن الثامن مائة وواحد وعشرين الف بستان كذا ذكر شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر) على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عدداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير معنى على وجه الارض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فبخدا لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار . وكان ارناع دمشق سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ثلاث مائة الف وستين الف دينار . وفي زمن المأمون كان خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار .

فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها . واعراض الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسرها معلومة انقرضت او اهملتها من اهم الضربات في تاخر الصناعة ومنافسة المدن والتفورها لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم ان التجارة تقوم بجناحها الدين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها او شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المندبة والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدينة الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى كندر  
المدرّس

## أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ (١)

دُعِيتُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ لِاسْتِمَاعِ مَحَاضِرَةٍ فِي مَوْضُوعِ تَارِيخِي أُدْبِي . وَسَيَكُونُ الْمُنُورُ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ رِجَالًا مِنْ عِظَمَاءِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ اسْمُهُ (أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ) . وَإِذَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ لَمْ تَسْتَعِذْبُوا هَذَا الْاسْمَ فَانِي أَرْجُو أَنْ تَسْتَعِذِبُوا الْمَسْمُومَ . وَيُهْجَبُكُمْ مَا أَقْصَاهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَخْبَارِهِ . وَمُخْتَلَفِ أَطْوَارِهِ .

نَحْنُ بِصِفَةِ كَوْنِنَا عَرَبِيًّا وَلِنَا حِرْصٌ عَلَى لُغَتِنَا وَأَدَابِهَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُنْصَفِحَ أَشْعَارَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا يُوَثِّرُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَمْثَالِ . وَبِذَلِكَ نَفْقَهُ أَسْرَارَ لُغَتِنَا وَأَدَابِهَا . وَبِصِفَةِ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ يَجِبُ أَنْ نُدْرَسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَاحْوَالَهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . لِنَعْرِفَ مَاذَا سَخَّ الْأِسْلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ . وَمَاذَا أَبْقَى وَقَرَّرَ . وَفِي الْكَلَامِ عَلَى (أَحِيحَةَ) . يَكُونُ أَنْ نَسْتَخْرِجَ فَوَائِدَ مِنْ كِلْتَا الْوَجْهَتَيْنِ : الْوَجْهَةَ اللَّغَوِيَّةَ الْإِدْبِيَّةَ ، وَالْوَجْهَةَ التَّارِيخِيَّةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ . وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ يُعْطِينَا صُورَةً لِلنَّوَابِغِ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَسْعِ ذَلِكَ الْمَحِيطِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ أَنْ يُبْرِزَهُمُ لِلْوُجُودِ .

إِنَّكُمْ سَتَعَلِّمُونَ مِنْ تَرْجُمَةِ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِيِّ — أَنْ فِي تَارِيخِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ رِجَالًا كَثِيرِينَ ذَوِي أَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ وَهُمْ عَالِيَةٌ كَانُوا جَائِزِينَ بِأَنْ يَكُونُوا مَشْهُورِينَ بَيْنَنَا . لَكِنْهُمْ لَمْ يُرْزَقُوا السَّعَادَةَ فِي الشَّهْرَةِ كَمَا رُزِقَ غَيْرُهُمْ .

يَنْبَغِي أَنْ لَا نَقْلَ شَهْرَةَ أَحِيحَةَ عَنْ شَهْرَةِ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ الَّذِينَ تَوَصَّلُوا بِالشَّعْرِ وَخِيَالِهِ إِلَى تَدَاوُلِ أَخْبَارِهِمْ فَاسْتَبْرَأُوا . أَمَّا أَحِيحَةُ فَاتَّكَلَّ عَلَى التَّارِيخِ فِي نَقْلِ خَبْرِهِ . وَكَثِيرًا مَا بُطِئَ التَّارِيخُ أَوْ يُقْصَرُ فِي النُّقْلِ . وَأَنْ نَسْبِئَ التَّارِيخَ إِلَى الشَّعْرِ فِي نَقْلِ الْأَخْبَارِ . كَنَسْبِئِ الْإِبْلِ إِلَى الْكَهْرِبَاءِ وَالْبِخَارِ . وَقَدْ مَدَّتِ الْأَسْمَاعُ تَرْدِيدَ ذِكْرِ أَشْخَاصٍ مِنْ رِجَالِ الْجَاهِلِيَّةِ كَأَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ وَقَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ وَحَاتِمِ طَيْيِّمٍ وَالنَّعْمَانَ ، أَمَّا مِثْلُ

(١) مَحَاضِرَةُ الْأَسْتَاذِ (الْمَغْرِبِيِّ) الَّتِي الْقَاهَا فِي رَدِّهِ الْمَجْمَعِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي ١٠ تَشْرِينِ

الثَّانِي سَنَةِ ١٩٢١ .

(أحيحة) فان اخباره لم تزل كعدن ماس ، لم يمسه ماس . ولم يضرب فيه بفاس .

\*\*\*

### ( موطن احيحة ونسبه )

موطن أحيحة مدينة ( يثرب ) في الحجاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلم) وعُرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا احداً ممن بلغ الحلم الا من دخل في اليهودية . فقاتلوهم وقتلوهم كلهم . لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجمل الناس ، فعادوا به اسيراً . وكان موسى قد قبض قبل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع من هذا الفتى ؟ فأخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد . فرأوا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه .

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الأزد اليمانية وهم الاوس والخزرج فأما وا يثرب ونزلوا فيها ، فقاومهم اليهود في أول الامر . فاستنصر الأوس والخزرج اليسانين اخوانهم الذين نزحوا معهم الى الشمال . فاعانوهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحيين : الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى آف الاسلام بينهم ، وامتنت القرآن بذلك عليهم .

وكان (أحيحة ابن الجلاح) سيد قومه الأوس ، ولم يُعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه . اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (أحيحة) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأح ايضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال (فح) اي سعل توهم ان همزة (أح) محولة عن (قاف) كما يُفعل في لغتنا العامية



مذُ تحول القافات الى همزات . او ان ( قح ) مأخوذة من ( قَعَبَ ) بمعنى سعل . ومن هنا سميت القعبة قعبة . .

اما ابوه ( الجُلاح ) فهو من الجَلّاح ومعناه انحسار الشعر عن مقدم الرأس ويحتمل ان يكون من الجُلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء يصادفه أمامه .

كان أحيحة زارداً وعقل ، كما كان ذا جدِّ وعمل . وقد توصل باخلاقه هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حربٍ وكيدٍ . رجل أدبٍ وشعرٍ ، رجل مالٍ واقتصادٍ ، رجل تنظيمٍ وعمرانٍ . ونعني بالعمران العمران الذي تستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد .

\*\*\*

### ( أحيحةُ رجل حربٍ وكيدٍ )

روى مؤرخوا العرب ان ( تَبَعًا ) الاخير ملك اليمن واسمه ( ابو كرب بن حسان ) مرَّ يثرب قاصداً الشام والعراق فخاف فيها ابنائه ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنه ، فكرَّ راجعاً اليهم . مجعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح أحد . ودعا اليه أشرفها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد أن يذكنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خباءً وخمراً وقينة له تسمى ( مُليكة ) فضرب الخباء وتترك فيه خمرة ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . واجلسه معه على زريته ( بساط منقوش بالالوان جمع زرابي ) وجعل يحادثه و يسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ أحيحة يخبره عنها . وتبع يقول له : « كل ذلك على هذه الزريته » ففهم أحيحة من قوله هذا أنه يريد قتله فخرج من عنده الى خباته وقينته . فنظم لها قصيدةً وداعيةً . وجعل يشرب وهي تغيثه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

( يشناق قلبي الى مُليكة لو أمست قريباً ممن يطالبها )

( ما أحسن الجيد من مليكة واللبات إذ زانها ترائبها )

( ياليتني ليلةً اذا هجع النا سٌ ونام الكلاب—صاحبها )  
 ( في ليلة لا يُرعى بها أحد يسعى علينا—الاكواكبها )

وهذه الايات مما كانت تُغني به القينات في عهد الخلفاء . ولما نام حرس الملك  
 أزمع أحيحةُ الهرب . وعلم قينته مليكة ما تقول لتبع اذا سأها عنه ، ثم انطلق الى  
 حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تبع الاشراف الذين دعاهم اليه أرسل حراًسه  
 في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ،  
 وانه يقول له : « اغدُرُ بقينة اودع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كلماته  
 الاخرى . نجف الملك السُّبَّةَ والعار بقنلها فتركها وأرسل كتيبةً من خيله الى أحيحة  
 فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . وبالتمر والزاد ليلاً ، فرجعوا  
 الى الملك وقالوا نحن ما فهمنا معنى هذه الحرب التي بقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . وضيفنا  
 ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاتل عرب المدينة  
 ويهودها اياماً ثم رحل عنها اخيراً عملاً بنصيحة حبرين من اليهود أخبراه انها ستكون  
 مهاجر نبيّ يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة الرود الياينة عملاً  
 باشارة الحبرين ايضاً اللذين اخذهما معه الى اليمن . وتهود هو وقومه . ويقال ان  
 هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحربه في الحجاز . وكيف تخدّص  
 أحيحة منه بدهائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه ادهام رجلاً .  
 وكانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعدّحه الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة  
 صوابه . ولعمري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعرب ان كانوا يقولون أن مع من  
 نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والناطقة المنفوق من رجالهم—  
 «جيني Génie» ألا ترون ان بين الحكّمين او بين التسميتين نسباً واضحاً . واتصالاً  
 ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكثر صوابه وبصدق حدسه ( المعياً )  
 وقد قال شاعرهم :

( الالمعيّ : الذي يظن بك الظنّ كأنّ قد رأى وقد سمعا )

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعلوه شيء - عبقرياً . فيحسن بنا اذا ان نعرب

كلمة ( جيني ) النرسوية بكلمة ( الالمعي ) لقربها منها أو ( العبقرية ) . هذا اذا لم تعجبنا  
كلمة ( نابغة ) .

ماصر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية . أما حروبه الداخلية  
فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف قهرته السيدة سلمى الخزرجية جدة النبي ( صلعم ) :  
قتل رجل من الأوس قوم أحيحة رجلاً خزرجياً من بني النجار قوم سلمى  
زوجته فثبتت الحرب من جرّاء ذلك بين الحظين . وكان أحيحة قائداً قوميه فعزم على  
تبييت الخزرج ، واخذهم على غرة . فشمرت بذلك زوجته سلمى بنت عمرو الخزرجية  
النجارية . وكانت امرأة شريفة لانكح الرجال الاوأمرها بيدها : إذا كرهت من رجل شيئاً  
تركه . فدبرت حيلةً أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك انها في تلك الليلة  
التي ازمع فيها زوجها تبييت الخزرج قومها بطلت ابنها عمراً من ذبذبه بخيط . وكان  
فطياً حتى اذا ارجعته تركه فبات يبكي ، وبات ابوه مؤرقاً ينقلب في فراشه . ويقول :  
« ويمك ياسلي ! ما عمرو لا ينام » فنقول « ما أدري والله ! » حتى اذا ذهب الليل  
حلت الحيط عن ابنها . ولكنه لم يكد ينام زوجها حتى صرخت سلمى : « واراأساه » فقال  
أحيحة : « سرّاً ما لقيت في هذه الليلة » وقام اليها فجعل يعصّب رأسها يدلك براحتيه  
ظبرها ويقول : مابك من بأس . حتى اذا لم يبق من الليل الا أقله . قالت له قم فقم ،  
فاني أجدي . مستريحة . وانما فعلت ذلك ليشقل رأسه . ويشتد نومه . فلما استغرق  
في النوم اخذت حبلاً متيناً واوثقته برأس الحصن ثم تدأّت منه الى قومها . وانذرتهم  
بالذي اجمع عليه أحيحة وقومه من تبييتهم . فحذروا وتأهبوا . واما جاءهم ( أحيحة )  
لم يقدر ان ينال منهم نيلاً . فعاد خائباً وجعل يقول : ( آه لك ياسلي !! خدعني حتى  
باغت ما أردت ) وسمّاها قومها من ذلك اليوم المتدلية . ولأحيحة في هذه الحادثة  
اشعار كثيرة كان يعتب فيها على سلمى . وسيأتي بعضها . ثم ان سلمى لم تعد الى أحيحة  
كما هو شرطها في ان تخنار نفسها متى شاءت . وبعد ذلك تزوجت بسيد قريش وإمام  
البطحاء ( هام بن عبد مناف ) فولدت له عبد المطلب جد نبينا ( صلعم ) ومن هنا جاء  
ما تروونه في كتب السير من ان ابا النبي عبدالله مات في المدينة عند اخواله بني النجار  
وان السيدة آمنة كانت تذهب به ( صلعم ) وهو صغير الى المدينة فتزيره اخواله بني

النجار — يعنون بذلك احوال جده عبد المطلب من امه (سلى) هذه . واذا كانت سلى جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين سنة على اقل تقدير .

ومما له علاقة باخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اثناء الدروع واستكثاره من العتاد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عبس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعدة . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكها وخالد بن جعفر الذي يقول :

( اذا ما اردت العز في آل يثرب	فناد بصوت يا أحيحة فاسمع )
( رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره	بييت قرير العين غير مروّع )
( ومن يأتيه من خائف ينس خوفه	ومن يأتيه من جائع البطن يشبع )
( فضائل كانت للجلاح قديمة	واكرم بفخر من خصالك الاربع )

\*\*\*

### ( أحيحة رجل شعر وأدب )

مرّ في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب . من ذلك قطعه الادبية التي غننه بها قينته مليكة واولها :

( ما احسن الجيد من مليكة والآيات اذ زانها ترائبها )

وان له كلمات سارت في العرب مسير الامثال من ذلك قوله للملك حمير بلسان مليكة ( أغدر بقينة أودع ) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما ستمتع — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل الينا كغيره من محول شعراء الجماهيلية :

فمن شعره قصيدته المذهبة الممدودة بين المذاهب في كتاب (جمهرة اشعار العرب لابن زيد القرشي) وقد عدّ ابو زيد أحيحة في اصحاب المذاهب وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

(صحوتُ عن الصبا والدرغُول ونفسُ المرءِ آؤنةٌ . تقولُ )  
 (ولو أني انشاءً نمتُ جالاًً وباصحكرني صَبوحُ لوشيلُ )  
 (ولاعبني على الانماطِ أمْسُ على أفواههن الزنجيلُ )  
 ومنها :

(وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيلُ ؟ )  
 (وما تدري وإن ألقمتُ شولاًً أتلقح بعد ذلك أم تحيلُ ؟ )  
 (وما تدري وإن أنجيتُ سقباً لغيرك أم يكون لك الفصيلُ ؟ )  
 (وما تدري وإن أجمعتُ أمراً بأي الأرض يدركك المقييلُ ؟ )  
 وأشار في هذه القصيدة الى كيد زوجته سلى له واحتياها عليه فقال :  
 ( إذا ما بتُ أعصبا فبات علي مكاثرها الحمى النسولُ )  
 ( لعلَّ عصاها يبغيك حرباً ويأتيهم بعورتك الدليلُ )  
 وأشار الى حصنه فقال :

( وقد أعددتُ للعدتَانِ حصناً لو ابَّ المرءُ نفعه العقولُ )  
 ( طويلَ الرأسِ أبيضَ متحفرأً يلوح كأنه سيفٌ صقيلُ )

\*\*\*

### « أحيحة رجل عمران »

بقي علينا أن نتكلم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران . ونعني بال عمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعترضنا علينا معترض بأنه لا يُسبى عمران عمراناً الا اذا كان مثل عمران لندره و باريز اليوم !! على انه لو كان أمثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسهون سعيه في الزراعة و جمع المال و انشاء القصور كان للمدينة شأن غير شأنها المعروف .

( الأظُمُ ) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم . و يُجمع على آطام . و كأن أهل يثرب قبيل الاسلام يبنون آطامهم بالجنادل والحجارة و يتخذونها أحياناً . معقل وقلاع دفاع . كما سمعت في خبر أحيحة مع تتبع . وكانت هذه الأظام عنزاً العرب

ومذمة تهم وحصونهم التي يتحرزون بها من عدوهم . ومن اشهر أطام العرب واعظمها شاتنا  
أطمان كانا لأحيحة . احدهما ارباه في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصن فيه حين  
قاتل ملك اليمن والآخر سماه (الضحيان) وقد بناه في مزرعة له يقال لها ( الغابة) وهي  
على بعد نحو فرسخ من المدينة . وكانه سماه ( الضحيان ) لانه ضاح بارز للشمس بخلاف  
( المستظل ) فقد كان مبنياً في ظل المدينة وبين بيوتها .

و بني (أحيحة) أطمه ( الضحيان ) بحجارة سوداء ثم بنى فوقه نرة بيضاء مثل  
الفضة . والنرة كل شيء مرتفع . ثم جعل على هذه النرة نبرة أخرى مثلها بحيث  
يرادها الراكب من مسيرة يوم او نحوه قالوا : ولما شيد (أحيحة) أطمه ( الضحيان )  
على هذه الصورة أشرف من فوقه ومعه غلام له وقال ( لقد بنيت حصناً حصيناً ما بنى  
مثله رجل من العرب أمنع ولا أكرم ولقد عرفت موضع حجرٍ منه لو نزع لوقع الحصن  
جيماً ) فقال الغلام المسكين انا اعرفه يا مولاي . و اشار اليه . فدفعه (أحيحة) .  
من رأس الأطم فوق مبيتاً . وانما قتله إرادة أن لا يعرف سر ذلك الحجر غيره .  
وهذا ما حكي عن سننار المعمار الذي شيد الخورنق للنعمان وجعل فيه مثل ذلك الحجر  
الذي وُضع في حصن (أحيحة) فإن النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لثلا  
ينكشف سر الحجر . وقد ضرب بسننار المثل فيقال ( جزاه جزاء سننار )

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظل أطمه الضحيان . وكان في اوتات الحوف  
يرسل حواليه كلاباً له تنبج دونه على من يأتيه ممن لا يعرف حذرأ من عدوٍ يصيب  
منه غرة . وقد نجته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي :فانه تسدل اليه  
ليلاً يريد الفلك به وجعل يرمي للكلاب تمراً فوقفت ساكنة فاحس (أحيحة)  
بالشر وأسرع الى حصنه تحت وابل من السهام . وهكذا نجما من الموت الزؤام .

هذه عناية (أحيحة) بتشيد الابنية اما عنايته بانشاء المزارع والبساتين فعظيمة  
ايضاً : قالوا كانت له مزرعة تسمى ( الزوراء ) وأخرى اسمها ( الغابة ) . وكان له في  
( الجُرُف ) وهو موضع على ثلاثة اميال من المدينة لجهة الشام أصوارٌ من نخل قل يوم  
يمر به الا يطلم عليه . والاصوار جمع صور وهو النخل الصغير . ومعنى انه صغير ان جنسه

صغير . او انه فسيلٌ يُزرع ثم يُنقل من منبته الموقتة الى مغرسه الدائم ؟  
ومن شعر ( أحيحة ) في مزرعته ( الزوراء ) :

( كل النداء اذا ناديتُ يخذلني الا ندائي اذا ناديت يامالي )

( اني أقيم على الزوراء اعمرها ان الكريم على الاخوان ذوالمال )

( اسئغن اومت لا يفررك ذو نَسَبٍ من ابن عمٍ ولا عمٍ ولا خال )

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وانشد الابيات . فدلوه  
عليها فقال : ( ان اباعمرو يراه غنياً بها ) فعجب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب  
حتى علم ان ( أحيحة ) يكنى ( اباعمرو )

وكان لأحيحة في مزارعه تسعٌ وتسعون بعيراً كلها يُنضح عليها اي ينقل الماء على  
ظهورها الى مزارعه وبساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى ( ناصحاً ) ويسمى ايضاً  
( سانية ) ومنه ( سير السواني سفرٌ لا ينقطع ) . ولم يقنصر أحيحة في الزراعة على  
غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله :  
( قد كنت اغني الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم )

ومراده بالفوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم  
( قوِّموا لنا ) اي اجتبزوا لنا خبز حنطة . ولا يمكن ان يريد ( أحيحة بالفوم الثوم  
الذي هو معناه ايضاً ، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة تُغني صاحبها لعدم حاجة  
الناس اليها . بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون اليها . فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها  
وقوله تعالى عن بني اسرائيل ( واذا قائم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك  
يخرج لنا مما نبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ) اخلفوا في المراد  
بالفوم هل هو الثوم او الحنطة ؟ فذهب ابن عباس الى انه الحنطة وان العرب تعرفه  
بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت اغني الناس الخ ولا يعترض على هذا بانه  
قرئ في الآية ( وثومها ) بالثاء مكان ( فومها ) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقلوبة  
عن الفاء كما قلبت في ( مغافير ) و ( جدف ) فيقال فيهما ( مغافير ) و ( جدث ) .  
تم يقال من جهة ثانية ان الفوم قرن في الذكر بالعدس . فيكون ضرباً من القطاني  
يعني الحبوب . ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم .

## ( أحبيجة رجل مال )

قالوا : كان ( أحبيجة ) رجلاً صنيعاً للمال . شحيحاً عليه . ومعنى قولهم صنيعاً انه حاذق بجمعهم : حريص على ثمنه وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق . اما قولهم ( انه كان شحيحاً ) فلم يريدوا انه بخيل لا يجود بالمال . كيف وقد تقدم في خبره مع ( تبع ) انه كان يجارب عسكره في النهار . ويضيفهم بالتمر في الليل : ومنه أيضاً قول خالد بن جعفر فيه : ( ومن يأتيه من جائع البطن يشبع ) . فلا جرم ان يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حريص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون ان يستثمره وينتفع به . وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي بعينه . وروى انه دخل جائطاً له فراى تمرة ساقطة فتناولها فعوتب في ذلك فقال : ( التمرة الى التمرة تمر فذهب قوله مثلاً يضرب في استصلاح المال .

ومما قالوه عن « أحبيجة » انه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يحيط باموال أهلها . اي انه كاد يستولي على اموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هذا تعرفون مقدرة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتيايل على جمعه . ومثله في ذلك كثير من سلوات العرب واثرافهم في المدينة ومكة قبيل البعثة : فقد اكثروا من المراباة حتى كاد الفقراء يهلكون . ولم يكن احد يقرض الفقراء قرصاً حسناً لوجه الله . بل كانوا اذا طلبوا قرصاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا . وكانوا اذا حل الاجل وعجزوا عن الاداء يقول المرابون لهم : نؤخر لديكم المال وزيدونا في فائدته . فما كانت تمضي سنون حتى يعجز هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدهم على عقارهم واموالهم ويستصفونها لانفسهم . حالة مزعجة مخربة للعمران . مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فانكرها على ذويها . ونهى عليهم فعلهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم . وان يقرضهم القرض الحسن . وبذلك يعتدل الميزان . وتهدأ الاحقاد والاضغان .

فالربا في الجاهلية كان مداره انظار الغني طروداً حاجة على الفقير وثقوب ضائقته المالية . حتى اذا سخط له الفرصة استغل هذه الحاجة والفقير من دون رحمة ولا شفقة .



ومن العجائب ان يكون الفقر مصدر الغني : فتبرُّمٌ يحتاج في قصد غنياً يشكو له اوليسنقرض منه فينتهز الغنيُّ الفرصة فيدينه بالربا ثم يحلِّبه كل سنة الى ان يُترب ولا يبقى عنده شيء . فما أعدل الاسلام وما أرحمه من حرِّم الربا . وانقذ هؤلاء المساكين . من براثن اولئك البغاة الظالمين .

هنا أهبها السادة نختم القول عن حياة ( أُحِيمة بن الجلاح ) الذي تبين لكم بحقِّ انه رحل حرب وشعر ومال وعمران في آن واحد .  
ومها سمحت لكم ايها السادة ان ننسوا شيئاً من محاضرتي لا أسمح لكم ان ننسوا ( سلى الحزرجية ) التي تددت من ثمرات الحصن الشامخ . وخاطرت بنفسها زاهدة في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من اجل سلامة قومها . وفضل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم ان نقفوا بها في حب وطنكم . لاسيما انها ليست عربية عنكم . بل هي جدة نبيكم .  
( المغربي )



# كيف تحقق الآثار التاريخ<sup>(١)</sup>؟

## جزئيات المحاضرة

التمهيد — ماهو علم الآثار — ما هي انواع الآثار — كيف قسم العلماء الآثار —  
ما فائدة الآثار — ما علاقة الآثار بالعلوم — هل عرف العرب التماثيل والصور —  
كيف جمعت الآثار — ما هي قيمة الآثار — كيف تحقق الآثار التاريخ — الختام

## تمهيد

تصفُ الدارُ لنا قُطانها والمعالي والمساوي والنجارا  
واذا لم تدر ما قومُ مضوا فاسأل الآثار واستنبِ الديارا  
لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ اهاب بالناس ان يقتبسوا  
تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين  
والاثر بين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكرٍ اذن  
فائدتها في تاريخ الام والممالك والبلدان ؟  
وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها  
الجهلة . او ينقلها غيرنا الى متاحفهم ويستفيدوا منها علماً وعملاً ؟  
وهل يجوز ان نبيعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينواهم متاحفهم متجربين  
بها وراجمين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟  
وهل يُعد كلفنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر  
والمغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في ردهة المجمع

الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وهل يبرئنا التاريخ من هذا التقصير وقدمرنا علينا الدهر باحقابه المتطاولة ونحن  
معمولون هذا الأمر الخطير؟

وهل يصح لنا تاريخ او يعرف لنا شأن او تذكرنا حضارة اذا لم تؤيد آثارنا اقوال  
كتابنا عنها؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلا متحف يجمع عادياتها ويستقدم اليها السياح والمفرجين  
وفيهما من آثار المدينة ما فيها؟  
وهل ٠٠٠؟ وهل ٠٠٠؟

لا لعمرى لا يسوغ لنا شيء من ذلك لان الآثار تحقق التاريخ وثبت ما كان  
صحيحاً منه ونقض المكذوب فيه .

### ما هو علم الآثار؟

الآثار لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان  
المنشئة . فيكون الاتر ما بقي بعد الداهين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شئون  
الام البائدة او القديمة اما من ابيية سيدها او صناعات انقنوها او تماثيل نحتوها او  
كتابات نقشوها او نقود صكوها او اختراعات ابتكروها او علوم دونوها او فنون  
اهتدوا اليها او كتب خطوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهياكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات  
التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والفضار  
( الأجر ) والصفائح المعدنية او العظمية او الرديية او الرقية من الانباء . وتحت  
النقود ما عرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكها واساليب طرازها .  
وتحت الاختراعات ما عرفوه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم مادون على الفضار  
والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير  
والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها  
واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلته منقنة التجليد او مهملته .

فغاية علم الآثار اذنب معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم . وبالجملة كل ما يعزى اليهم وينتقل بهم مما يبيط النقاب عن الحقائق الغامضة و يبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تشوه او تحسن بل يجب ان نقل كما هي لا كما يجب ان تكون. مثلاً ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثلها بلامحه الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من براه انه هو هو بعينه ومشخصاته والآضاعت الاصول وفسدت الحقائق والتبست الاعيان .

فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احيانا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او شظفه والهمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات .

فلنا بالآثار عبر لنقندي بن احسن العمل ونعرض عن اسائه ونسفيد من المجتهدين والمتمدنين حضارةً نضمها الى ما عندنا ونربأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانها آفة البشر وعامل التأخر .

وسمي العالم بالآثار ( أثرياً ) . وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين ( أرسيو ) اي الآثار و ( لوجيا ) اي الكلام فالمعنى ( البحث عن الآثار ) ومنها استنقت بقية الصيغ .

اما كلمة ( Antiquité ) اي انتيكيتته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين . وقد شقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء . كما اخذنا نحن مشتقات مختلفة من تلك الأصول .

### ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف ويكتشف . وما هو معروف غير موجود كمنقود ملوك الرعاة المصر بين المعروفين بالمكسوس . وكنقود

الفينيقيين وكتاب سنكلياتون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابوت العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كآثار ادوم ومواب ونقودهما ونقود تيطس قيصر النحاسية التي صكها في اورشليم تذكراً لانتهاره يوم حاصرها ولم يقف الاثريون الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ما هو كثير الوجود كنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول روفيه الفرنسي وكنقود قسطنطين الملك ونقود الرومان والمومياء المصرية واشباهها .

### كيف قسم العلماء الآثار ؟

اقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين ( احدهما ) بالنسبة الى القبائل واللغات القديمة و ( الثاني ) بالنسبة الى الزمان . فمن ( اقسام الاول ) آثار المصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفاستينيين واليونانيين والرومانيين والعرب والصابيين والبنديقيين والعثمانيين . ومن ( اقسام الثاني ) اقدم العصور المعلومة مثل عصر الخليقة الى زمن موسى النبي في سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفينيقية والآشورية والمادية والعبراية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية . والعصور المتوسطة كلقصرية الشرقية والمغولية والغوتية والعربية . وكالعصور المتأخرة كاصليبية والبنديقية والافرنجية والثمانية .

وفي كل منها بحاث مستفيضة وتفاصيل وافية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

### ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتحيص الآراء المضطربة وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فلولاها لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيروdotus اليوناني وسنكلياتون الفينيقي وما نيثون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجبيلي . والتوراة . والتواريخ الاخرى كاستري .

## ما علامة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية ويجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكولوجية . والبحث عن التاريخ والآثار ما يسمى علم الاتروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكالينولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود وصورها التوميسماتيك . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليوثولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية الخ . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة ( الاول ) وهو العصر الطري اي الحجري الصواني و ( الثاني ) النحاسي و ( الثالث ) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالنواميس العامة في البشر والطبيعة . وفتح التاريخ بحسب الشؤون والابحاث والمواضيع الى فروع لا تحصى الآن لسردها . ولكن التاريخ كيفما كان لاغنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركانه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام البخاري المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه صحبته » . فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الحبرية . والمخطوطات القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

## هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما صك سنة ٥٩٧هـ ( ١٢٠٠م ) وعليه صورة فارس منقنة . وقد ذكر بول كازانوف : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد (صلم) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفيسفاء . وذكر المقر يزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خراج البلنسي سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان تجماع الدين بن ضياء صاحب السلطان بپرس قد حمل الي بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل هيأة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارتات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشعراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواين العربية (ديوان الصباية للتلساني) رأى منه نسخة فيها صور ابناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باريز (المقامات الحريرية) بخط يحيى الواسطي سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون بابواق فارسية ضخمة . وبعضها رعييل جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر نفخ ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعندى بعض امثالها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة (التصوير في الكتب) ومقالة (المرايا عند العرب) والباقي معدة للنشر .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمي (المختار) كانت فيه صور بينها صورة بهة فيها رهبان واحسنها صورة شهر البيعة حتى قال الواثق يصفها :  
ما رأينا كبهجة المختار لا ولا مثل صورة الشهار  
ووجدت تياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وآدميين وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المتحاربة ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :  
فيه الغواة مصورون فاجل منهم وراقص  
والفيل يرتكب الردا ف عليه والاسد القصاص  
وقول ابي الصلت امية الانداسي في وصف قصر (منازل العز) المصري :

وبارجائه مجال طراد ليس لئفك من وغى خيلاء  
تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمى من الطعام قناه  
وترى النابل الموصل للزرع - بعيداً من قرنه مرماه  
وصفوقاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مره  
سكنات تحالها حركات واختلاف كأنه اشباه  
ومما يدل على نقودهم المصورة قول البيغاء في نقود سيف الدولة المهداة اليه:  
نحن بجود الامير في حرم نرتع بين السعود والعم  
ابدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرم  
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم  
وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الاسلام منها في بيزا بايطالية تمثل تديع  
النقش من صنع الفاطميين في مصر .

وفي معجم البلدان ان اوس بن نعلبة التيمي صاحب قصر اوس في البصرة كان نادماً  
الى الشام فمر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قريحته تمثالا جاريتين من حر فقال:  
فتاتي اهل تدمر خرافي اما تسأما طول القيام  
قيامكما على غير المحتايا على جبل اصم من الرخام  
فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وطام بعد نام  
وانكما على مر الليالي لابقى من فروع ابني بسلام

الى آخر الابيات فلما انشدها يزيد بن معاوية بن ابي سفيان في هذه العاصمة قال:  
يزيد: « الله درُّ اهل العراق هاتان الصورتان فيكم يا اهل الشام لم يذكرهما احد منكم  
فربها هذا العراقي مرة فقال ما قال » . ولقد وصفها ابو الحسن العملي بقوله :

ارى بتدمر تمثالين زانهما تائق الصانع المستغرق الفطن  
هما اللتان يروق العين حسنها يستعطفان قلوب الخلق بالفتن  
وقال الجعفي في وصف صور ابوان كسرى في المدائن من قصيدة بديعة  
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس  
والمنايا موائل وانوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس



تصف العين انهم جد احياء لهم بينهم اشارة خرس  
 يغتلي فيهم اريسياني حتى نلقواهم يدايي بلس  
 ونال ابو عمران الكردي في شمال ابرويز ملك الفرس ممتطياً فرسه شبديز وقربه  
 حاربه شيرين بالوان بدبعة :

وهم تقروا شبديز بالصنار عبدة وراكبه برويز كاليدر طالع  
 تلاحظه سيرين والحظ فاتن وتعطو بكف حسنتها الاشاجع  
 يدوم على كرا الجديدين تنخصه ويبقى قوييم الجسم واللون ناصع  
 وقال شاعر اندلسي في شمال ججري كان في حمام التطارة في اسبيلية :  
 ودمية مرمر تزدهو بحيد لناهي في التورد والبهاض  
 لما ولدت ولم تعرف حليلا ولا ألت باوجاع الخناض  
 ونعلم انها حجر وكن تيمنا بالحافظ امراض  
 وقال التطيلي الاعمى في اسد ينج الماء من فيه في بركة :

اسد ولو انا قشه الحساب لقلت صخره  
 فكأنه اسد السما ينج من فيه الجره

ونال صاعد اللغوي في صورة حارية في سفينة تجذف :

واعجب منها عادة في سفينة مكاللة يهفو اليها المهاتف  
 اذا راعها موج من الماء ننتي بسكانها ما اندرته العواصف  
 متى كانت الماء اربان مركب تصرف في يني يديها الجادف  
 ولم تر عيني في البلاد حديقة بنقلها في الراحتين الوصائف

وحكى ابن خرداذبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول :  
 ليس حائي مسلك . وقال : ان في مدينة طليطلة تصاوير افراس مكتوب عليها : لانفتح  
 هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير . وكانت تلك التصاوير تمثل  
 العرب على خيولهم بعائتهم وقسيهم .

ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية في مداواة العيون في المكتبة التيمورية  
 نسخت سنة ٥٥٩٢ (١١٩٥م) بخط عبد الرحمن بن يونس ابن ابي الحسن الانصاري

في ثمانين رسائل قديمة منها تذكرة الكحالين للموصلي فيها دوائر رسوم للعين واهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعللها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان .  
ومن اغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من ( قانون ابن سينا ) شيخ الاطباء في مكتبة السلطان محمود في الاستانة فيها رسوم نباتات واسماك وحيوانات نسنت في القرن الخامس للهجرة . (وعجائب المخلوقات) للقزويني رأيت منه منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طهران بانقان في الرسوم والخط . (مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد الكرمانلي العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة منقنة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صدقي جرجس بك صفا في لبنان . (حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الآدميين وطبع في العجم مصوراً .

وذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم الادباء ( اي ارشاد الارباب الى معرفة الاديب ) مانصه : «و كنت سنة ٦٠٧ هـ ( ١٢١٠ م ) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم اُجبر فيها وفي جملتها كتاب ( صور الاقاليم ) للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتجهير المشتري من غير كسب » اه .

وفي مكاتب باريز و بطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم بانقان وتلوين . ومنها ( كتاب الكواكب والصور ) لابي الحسن عبدالرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة وانسخه المصورة المنقنة في باريس و بطرسبرج والاسكوريال واكسفورد . وادق نسخة في كوبنهاغن وهي ملونة الرسوم وكواكبه بهيأة ما تمثله من آدميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩ م وقد كتبت ١٠٠٥ هـ ( ١٥٩٦ م )  
وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخليل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق . وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الاقمار) الارتوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة . وفي مكتبة بطنا الهندية كتاب ( التصريف في الجراحة ) للشيخ ابي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) وفيه صور الآلات الجراحية بانقان تام ( ١ ) ولقد ظهرت آثار قديمة في الابنية شتقى معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نقب عن آثار الصناعة الاسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناه المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانها نقوش وصور ترقية بارزة وغائرة في الجص ( الجصين ) وهناك تصاير ملونة في مواضع الجص المغتلة من النقوش مختلفة الالوان والاشكال بينها صور الآدميين ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة .

### كيف جمعت الآثار ؟

ولع الناس منذ القديم بجمع آثار من تقدمهم من الامم في متاحف وكن اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وعدوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) باللغة الافراسية و (Museum) بالانكليزية منسوبا الى ( موزه ) إلهة الفنون . واندتم متحف انتهى في سورية متحف بيروت بزمن اغربها الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نقائس التماثيل والنقوش والنفون الصناعية من جميع المدن السورية فاغناط منه سكان المدن الاخرى ولا موه على ذلك وكان سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب انشأوا في دمشق متحفًا بزمن الامويين لآثار القدماء معنيين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وكذلك كان في بغداد ( سوق الطرائف ) لبيع النفائس فضلاً عن اسواقهم في عكاظ ومريد البصرة مما كان اشبه بالمتاحف او المعارض . واول متحف اعلمت به حكومة عربية متحف مصر بزمن الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي .

(١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزانة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا انشئ متحف القدس سنة ١٩٠١ م ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م  
ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف  
بيروت سنة ١٩٢٢ .

### ما هي قيمة الآثار ؟

لا نقدر قيمة الآثار بحسب كبرها او معدنها او نقشها او جمالها او اشكالها وانما بحسب  
فائدتها التاريخية فمن الآثار ما هو نادر جداً فهو ذو قيمة تينة ومنها ما هو مفيد تاريخياً  
ومنها ما هو مفيد صناعياً ومنها ما هو مفيد علمياً الى امثال هذه الفوائد الرائعة ولولا هذه  
القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدتها في المتاحف والاتفاق على حفرها وجمعها  
وترتيبها وانشاء المجلات لوصفها ووضع المعاجم لتفصيلها وتاريخها وحفظ صورها .

ففي سنة ١٩٠٤ م ظير في قرية تل المتسلم التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم  
لي تسم ( ابي يربعام بن سليمان ) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاغرافه  
وعلى اطرافه اسمه بالعبرية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقدر ثمنه بخمسين الف  
فرنك اي الفين وخمس مائة ليرة افرنسية .

وجمع احد اغنياء سان فرنسيسكو في اميركة الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها  
بعشرين الف ليرة انكليزية منها ساقل فضة من ايام داود الملك وهو من نوادر  
الآثار واقدمها .

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كايوتيرة من مصر الى لندن ونصب على خفة نهر  
التيمس فانفق عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية .

وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري بانى الهرم الثالث في  
الجزيرة قدر ثمنها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية . وسمو رشيد الذي قرئت به الهير و غليفيه  
يقمن بعشرة آلاف ليرة . ورخامات اليجن اشتراها اللورد ايلجن سفير انكلترة في  
الاستانة بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف  
بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له .

وفي متحف براين الالماني نحو سبع عشرة جثة مصرية محنطة أنفقت الحكومة

للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . وانفق متحف الاستانة سنة ١٨٨٧ م على نقل آثار صيداء اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٧ م كثير من الآثار بأثمان عظيمة مثل تمثال ائينة الذي يرجع انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال انتينوس يحمل الكاس لاريانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيجيه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكأس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكراً بتمن ٣٥٧٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م تمت مجموعة النقود القديمة التي كان يحرزها ( دوق ) كليارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز ألفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تحفة مصرية هي رأس صغير للملك امنميات الثالث من الدولة الثانية عشرة وهو من السبع ( الحجر الزجاجي الاسود ) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

## كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اتبنت العلوم والصناعات والاختراعات ما احفر من عاديات المصريين والبابليين والاسوريين والفينيقيين لمحقق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل الكبريات او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والخطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتحاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون وانقنوا التطريز والتمويه بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالطلاي وصلوا الحجارة الكريمة ونقشوها بانقان وحفروا الترع وحنطوا الموتى و برعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسموالنهاري الى ساعات ودقائق وتوان لاتزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفواالسنة الشمسية واقمرية وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاول و برعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل . واتخذوا المكاتب والذاليف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلوبيديات او دوائر المعارف والمدارس العالية . ووضع الشرائع او الاشتراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا .

وعثر بعض المنقبين في المكسيك ( اميركا ) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس للميلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركة قبل الاخوة المغرورين ( Magrorim ) وهم ثمانية من العرب تركوا لشبونة لاكتشاف اميركة كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندي والشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في لشبونة ( درب المغرورين ) الى يومنا وذلك قبل كولمبوس بستين سنة . وكشفت كتابة اسكنديناوية على حجر بتاريخ سنة ١٣٦٢م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطموا اميركا ووصلوا الى بلدة ( ميناسوتا ) قبل كولمبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركة كان للصينيين . وربما ظير ما ينقض هذا ايضاً .

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بمعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي طمست آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة رحماها الى كروانفند الالماني سنة ١٨٠٢م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط المسماية التي كتبت في وادي الرافدين اي دجله والفرات . فقرئت اخبار الامم التي ملأت تلك البقاع وعرف عمرانها وتمدينها . وكان هنري روانسون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون المسماية في كردستان سنة ١٨٣٧ ايضاً .

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها . والفضل في ذلك عائد لسامبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغليفي سنة ١٨٢٢م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الآثار الكتشفة وستحقق ايضاً كل ما غمض من تاريخ مصر بين وبلادهم .

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغنين ان الخط المسماية له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغليفي له علامة تدل على لفظة واحدة . واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسه في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيما صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها و برعوا بقراءة القلم المساري فاجاز المسيو بولن ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فرنك لانه نجح بقراءة اللغة المسارية . وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من توارينخ الامم القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كونيكيك في شرق الموصل الجنوبي . وكالغ في محل اخر بة نمرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى .

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان و برج بابل و يوسف في مصر و تفسيره حلم فرعون و حدوث سبع سني جوع و مثلها شيع و بناء سليمان الملك بلدة ماجد و ( تل المتسلم ) التابعة حيفا و حروب مواب و اسرائيل و اشور فاكتشف جورج سميث الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الغضار تثبت التكوين و السقوط و الطوفان بنعاصيل اشبه بما دون في التوراة . و سنة ١٩٠٢ م اكتشف دي مهلي شيتاغ عن برج بابل يدل على بقائه في القرن الرابع بعد الميلاد وان يختصر ملك بابل ريمه في القرن السادس قبل الميلاد وانه مبني قبل ذلك العهد باثنتين واربعين قرناً و عرف ان قياسه كان غريباً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً و علوه ٢٢٥ و ساحة التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة و عين محله قرب طيسفون ( المدائن ) و وجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثيبة حجراً عليه خطوط هيروغليفية منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفيض ماؤه سبع سنوات » و ذلك يؤيد كدسني الجوع بزمن يوسف . و سنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاظهر في تل المتسلم ( اي مجدو ) اطلال قصر شيده سليمان و ذلك يوافق كتابات تل العمارنة في مصر : ان سليمان شيد بلدة مجدو و بنى فيها قصرآ .

و سنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو قنصل فرنسه في القدس حجر ديبون ( ذيبان ) قرب مادبا شرقي البحر الميت وهو من الحري ( Beselet — الاسود البركاني ) و عليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة تتضمن سرد حروب مواب و اسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا و يورام ملك اسرائيل ( ٤ مل ٣ : ٤ ) كتبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة .

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سميث الانكليزي كتابات على الاجر من عهد شلمانصر  
النابي توؤذن مخبر حربه مع حزائيل ملك الشام .

وسنة ١٨٧٤ م بحت الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب  
جبل اولبوس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر اناخمون في .يسينا . وشاهد  
كثيراً مما يؤيد قول اوميروس في الياذته .

واكتشفوا منذ بضع سنوات قرب بورديو (فرسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول  
الميلاد ففتحوه ووجدوا هيكل عظام بالية واناخزفياً سورياً فيد حمر فاستدلوا منه ان العلاقات  
التجارية كانت متصلة بين اوروبه وسورية في ذلك العهد .

وسنة ١٨٧٩ — اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كاساً مكتوبة تدل على ان  
التجارة كانت رائجة بين الصين واوروبه قبل الميلاد بالف ومائتي سنة . ووجد ضمن  
تلك الكاس نسيجاً صينياً .

واكتشف في صيداء منذ سنوات قبر الاسكندر المكدوني ونقل الى المتحف  
العثماني في الاستانة وبقى العلماء على شك من امره الى ان ظير قبر هذا الفتح العظيم في  
مفيس في القطر المصري فقطعت جبهة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول وابت الثاني .

ولما اكتشفت اثار تل العمارنة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨ م وهي سجلات

الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتهما في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس

الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لاتزال على حالها الى يومنا مثل عكا

وصيدونا (صيداء) وصورتي (صور) وبيروتا (بيروت) وحبله (جبيل) واروادا

(ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل

البترون وجونيه وشكه والاعلام البقاعية مثل شتوره ومكسه فتبت قدم هذه المدن

وسنة ١٨٨٠ م ظهرت اثار بواسطة نقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي

الى وادي جلال اباد في افغانستان دلت على انه كان في ذلك الوادي قديماً من

المتزهدين البوذيين اكثر من عدد سكانه اليوم .

واستدل هذا الاثري من نقود رومانية وحدها هناك ان بلاد الافغان كانت

في القرون الماضية طريقاً للتجارة من اواسط اسيا الى بلاد الهند .



واستخرج الاستاذ ستفنسن اثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينها صنان مجنحان مصري الشكل و آثار أخرى تشبه اثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شؤن تاريخية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فتحقق لم امرها . وذكر بروشيوس المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العالقة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دولتي الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان كشف دهمرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الآجر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموية العربية خلفت العيلاميين واشتهر منها حامورابي وشريعته وكانت القابه « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوس و صح تاريخه . وهكذا قل ان الاثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس) الذين يرجع انهم من عمالقة العرب ايضاً . فصحح تاريخ مصر بعد اضطرابه . وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقضة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنان سنة ١٨٦٠ م ونفق آثاره والف كتابه ( البعثة الفينيقية ) فصححت الاثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهنًا . ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرمون كنيستهم فظهر عند الحفر فيفساء كثيرة لم يسالوا بها اولاً فشيّدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لم قطعة فيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً ( خارطة ) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى وأسمائها بديةة التلوين والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سائماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد . وفيها أسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة باللوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمججاته

وتعاريجه الكثيرة وفي مجراه الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي . وترى في بحيرة لوط المراكب السراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غرالة يطاردها اسد الى اشباه هذه المتخصصات البديعة .

وأهم ما بقي منها صورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وتوارعها وانيتها بالوان تأخذ بمجامع الابصار رواء .

فانار هذا المخطط علم رسم الارض ( الجغرافية ) والتاريخ فوائده حمة و صحیح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسمائها فهكذا تحقق الآثار التاريخ . وما نراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيجلي باظهار بيان بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما شا كل من الآنية والآثار والمعاديات على اختلافها . كما فعل الاساذ موزل النمساوي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقاعة العمرة وكثيراً من الاخرية والاتقاض القديمة وغيره من الاثرين والحفارين .

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوران رسوم اوراق العنب وعناقيده يقسال انها من نقش الحمرين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم . وسنة ١٩٠٣ م ظهر في المدائن المصرية بردي يحوي على قصيدة ( الفرس ) ااطمها تيموناس الشاعر اليوناني يصف فيها بكل دقة معركة سيلاميس الهائل التي اندحر فيها اخسرخوس الهارسي من وجه اليونان فنبت بها صحة المعركة تاريخياً . وسنة ١٩٠٥ م ظهرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة الحجازية و صح تاريخ مدينة الحجر اوترا اوسالع ومن اهم تلك الآثار ( قصر فرعون ) و ( خزنة فرعون ) وغيرها مما وصفه بعضهم .

وسنة ١٩٠٨ م ظهر في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل ( هرمس ) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو نخب بديع من الحجر الكاسي الصلب وربما كانت من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ما ذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في القديم نالهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا .

ونحو سنة ١٩١٠ قرى بردى مكتشف حديثاً في مصر يؤيد ما في كتابي عزرا ونحميا من التوراة وبتبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد . ومن عجيب ما رواه البردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبيعون رجالهم جنوداً للمصريين و يأخذون ايمانهم خيلاً وذلك بحالف التريعة الموسوية و يدل على جور الملوك ومخالفتهم للشرائع . وفيه اقوال من سفر طوبيا والامال واساطير ايزوب واشعار ديمقراطس . واغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كتاب الحيقار المعروف عند العرب وله اقايصص عربية .

ووجد محرات اشوري في نمر ( نبور ) ومعه وعاء ابندر الحبوب مما يدل على انه عند الحرارة يهتر الوعاء فتسقط منه الحبة اثر الاخرى وتظمر . ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلدرست الاميركي قطعة آجر كسب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو الي سنة قبل الميلاد فوافق ما فيها بل تم ما رواه الكاهن السالي باروز ونقله عنه يوسفوس وغيره .

ونحو ١٩٠٥ م اكتشف الدكتور سالين النموسي في تل تغتك اي مرج ابن عامر ادية واواني من القيشاني والصدني كانت تصنع في فلسطين ولا سيما في زمن الكنعانيين فبت بهذا ان القيشاني لم يكن من عمل العجم بل اقدم منهم اتصل بقاشان ونقله الدهستقيون واشتهروا به .

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها مظهورة تحت الارض واسمها ( الزهراء ) وضاحتها تسمى ( الزهرة ) او ( نليس ) على بعد قليل من قرطبة . فظبرت اطلالها البديعة ونقوشها الرائعة فبت ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمل الاحياء بالصور والرسوم وكان الامير عبد الرحمن يعاضدها وامه المسيحية ينشطها وتدر عليها المال . ووجدوا هناك كثيراً من انواع الحزف والمخزعات والزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس .

وسنة ١٩١٣ م ثبت للاتربيين موقع حرانلس او كركميت عاصمة الحثيين على ضفة الفرات بين حلب وبغداد وهي التي اشار اليها ( سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ٢٠ )

بقوله : « وصعد نيجو ملك مصر لقتال كركيش عند الفرات فخرج عليه يوشيا » وكان رولنصن الانكليزي ومسبرو الافرنسي قد ظنناها منبج قرب حلب ثم قرر سكان الانكليزي وجورج سميث وطنيه انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها ولو قرئت الكتابة الحثية لظير بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف ( هيرابوليس ) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف لهذه المدينة وآثارها المثبتة لتاريخها ( ٣ : ١٦١ و ٢٥٣ و ٣٥١ ) .

وسنة ١٩١٨ توفق الدكتور ريزنر الانكليزي في حفرياته في السودان المصري الى تحقيق ملوك ايتويه بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد فبعد ان كان المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين وعشرين ملكاً حكموا من سنة ٦٦٨ — ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن ملكاتهم وانسابهم فتحقت سلسلتهم وعرفت أسرتهن . وكذلك كان المؤرخون في ريبة من امر الملك نستين فتحقق انه وجد بعد كمبيز بقرنين لا انه كان معاصره فكانت الآثار ناقضة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت تلة في تاريخهم ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبر اكتشاف مهم في علم الآثار وهو ان الدكتور فردريك هروزني استاذ اللغات السامية في جامعة فين في النمسه قد اهتدي الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء وما ذلك الا لعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليتمكن مقابلتها وحل رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسارية الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلة ودرسا وتحقيقا فلم يظفروا منها بطائل الى ان بشرنا الصحف ان هذا الطبيب النمسي قد قرأ الكتابات الحثية ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء يعدونها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مستقلة عن اللغات الهندية الاوربية اي اللغات المشابهة للاتينية والهندية الايرانية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد . وان الحثيين انفسهم من سلالة هندية اوربية لا حاوية ولكن امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن . وان عمرانهم كان يضاهي العمران البابلي والاشوري . وكان اول ذكر لهذه الامة الحثية سنة ١٩٣٠ ق م . وهم الذين قضوا على دولة السموآبيين التي نبغ منها حمورابي المشرع الشهير مخلصهم في العراق . وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في عهد صيلوليا وخلفائه وقد ملكوا كل أسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري . وان نجم مجدهم اخذ بالاقول في اول القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات .

وهناك امور كثيرة نحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منها بهذا القدر . ويحسن ان نختم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذي القرنين فبعضهم قال انه كان له حصان بقرنين . وقيل كان للاسكندر ذؤابتان مرنفعتان تشبهان القرنين . وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب . ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود الاسكندر المسكوكة بعهد دلت انه صور نفسه فيها بصورة امون الذي كان يمثل بقرنين كقرني الكباش فسموه بذي القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية . وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضاً ولا سيما في زمن الجاهلية . ومع ذلك فان ما حققه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب الوهم عن اشياء كثيرة من عمرانها . فاكتشف أرنو سنة ١٨٥٣ خطوطاً واثاراً حقق بها اما كن صنعا والخريبة وحرَم بلقيس ومأرب فوضع مخطوطاً ( خارطة ) لآثار سد مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هاليني سنة ١٨٦٩ م فاكتشف بلاد الجوف التي مرت بها اليوس غالوس الفاتح الروماني . ثم اكتشف في جهات نجران مدينة ( معين ) عاصمة الميينيين من دول اليمن العظيمة . وكما كثرت الابحاث الاثرية زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة الميينيين والسبأيين والحيريين في اليمن والانباط والتدمريين والفساسنة في شمالي بلاد العرب . والسموآبيين

او الحمورانيين والشميين في العراق . وايدت ما عرف عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها .

وهاكم الان مثالا مما حققته الآثار عن سكان بلادنا القدماء فلو الاثار التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة توطميس ( تھوتيس ) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث نينوى وبابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الاسرة الثامنة عشرة من الاسر المالكة في مصر — لما عرف المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللوديون او الروتيون ويقال اللودانيون او الروتانيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين وأقدم منهم في سكنى بلادنا . وأيدت تلك الآثار القديمة ما نقلت على هيكل الكرنك في مصر ايضا اذ ذكر ان توطميس الملك نحو سنة ١٦٢٥ ق م جاء سورية لندويج الروتان الذين امنعوا عن دفع الجزية اليه ضربها سلفه توطميس الاول عليهم . وظير في المتحف البريطاني اثر من طبعة المصرية يمثل رجالا من هؤلاء السكان القدماء يقدمون الهدايا لفرعون او احد خاصنه .

فنقض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون واثبت انهم هم اللوديون او الروتيون كما سبق في محاضرة (حقائق تاريخية) صفحة ١٥٠

### الخاتمة

هذا تم من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مستمرة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة ولا سيما اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاشوريين والبابليين والماديين والحثيين والروتانيين والاراميين والفينيقيين والقرطاجيين والفلسطينيين والعبانيين والفرس والعرب واليونان والاسرطيين والمكدونيين والسعويين والبطالسة والمكانيين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كلها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعاديات وربما ظير اشياء جديدة لنقض بها الآراء القديمة

وكفى بهذه العبالة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامناً على ان الآثار القديمة ليس جمعها من الكماليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً لذكرى الاسلاف . . .

\*\*\*

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى و يرمينا باللوم لعنايتنا بالتحف والمكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتقدمة .

فهبلاً نجاري الامم في حضارتها الراقية وفي شديدة الحرص على اتباع مثل هذه النفائس ونقلها واذخارها في مناخها حتى اننا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤونها .  
فسلام على من اعنى بحفظ اثار بلاده وحرص على بقايا قومه الدارجين .  
وسلام على حكومتينا الوطنية والمنتدبة الحر يصتين على احراز آثار الامة وابقاء ماتركته  
انا الايام منها محفوظاً عندنا مع ان مئات والوقاً منها يحرزها غيرنا وفقها الله وحفظكم  
خير ذخر المدينة .

عيسى كند  
المدينة



## (١) العمل بالعلم

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدى وجمال العلم اصلاح العمل  
وقيل في منشور الحكم : « لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف  
باكون : « من يقض عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول ومن يتخذها زينة  
وحلية فهو المتصنع المتكلف فكمال الدرس الاختبار وكمال العلم العمل به لا الاكتفاء  
بمرفته » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثمرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل  
كالشجرة بلا ثمر او كالنحلة بلا عسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من  
حدائق العلم انما جنيت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل اساس التقدم والارتقاء  
ووسيلة السعادة والهناء وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتماد على النفس تبقى  
منحطة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل  
بل خلقه للسمي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه  
بمرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات  
وتباين الاطوار والحالات . لا يعنى منه الا الذي اثبتته المرض ولا يستغنى عنه  
الا الذي لا حَبْضُ به ولا نَبْضُ . وذلك للاسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن  
العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه  
فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كافٍ لامانة اي انسان  
كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب  
بهذا القول لان الحركة والسمي من علامات الحياة وواقباتها وعدم العمل من

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي

في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .



مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة . فلما المنحدر من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترقياً على حصى الاودية كالبلور يبقى صافياً لامعاً عذباً ما دام جارياً بقوة ولكنه اذا ركد أجن وأتن وصار مأوى للحشرات القذرة والافاعي السامة . والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور وينعش النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض . والآلات والادوات الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أهملت علاها الصدأ وادر كها الفناء . وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلاً نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وتباهه وحياته لان اعضاء مخلوقة للاستعمال لا للاهمال والاستعمال يجيئها والاهمال يميئها فالعمل احسن مقومات الحياة واجمع مقويات الصعته وافضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تمرّنت عليه المترفون المترفون لقلت تشكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم وتمتعوا بكمال القوة والنشاط .

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله يتمكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه بما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون اقدر من غيره على تمييز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجر المغانم . والذي يترك العمل يفرغ عقله للتفكر بالجرائم والآثام وتعتريه الوسوس والاهوام فيهم في اودية الموم وتعتلج في صدره العموم او يمسي اسيراً لهواه او يبأس من هذه الحياة فيظن الاختلاط في عقله ورنما انحر وحلب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام الهواجس والهجوم لاتسد على النفس من شهر عمل واجتهاد لان الاهتمامات تنهك القوى وتسوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التسويش غير العمل . قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب . وروت احدى الجرائد انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالخواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبايس عادية ولهذا الدبايس قصة غريبة وهي ان الكونت لفسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة اتهمته الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امرأته لا هو فلم يبرر نفسه فألقاه القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وابقاه فيه ست سنوات . اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه اربعة دبائيس فنزعها منه ورمها في ارض السجن ثم اخذ يتلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويجدها مدة الست السنوات . وقد قال في سيرة حياته ان هذه الدبائيس شغلتنني كل تلك المدة الطويلة ولولاها لجنت فلا عجب اذا جعلتها زوجتي حيلة من حلالها لانها حفظت عقل زوجها .

(٣) : انه درع الفضائل التي نقي الانسان سهام الرذائل . فان تركه وقضى وقته بالبطالة فتح اوسع الابواب للشر وتورط في احوال البذاءة والاثم ولا سيما اذا كان من الشباب الاغنياء ففتجمع فيه اسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر في قوله :

ان الشباب والفراغ والجدد مفسدة للمرء اية مفسده

فيتلف جسده وعقله وماله بما تجرّه تلك الاسباب من التجارب الشيطانية لاشباع الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت الروائي المشهور : انه كان يطرد شيطانه ويستعيد من ابالسته بالعمل المفيد . وحكي عن ربان احد المراكب انه كان لا يدع بحارته بدون عمل لانه وجد ان البطالة تقودهم الى الخصام . فلو كان الناس كلهم يشغلون اوقاتهم بالاعمال النافعة لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : انه آية الشرف والنبيل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة للبطال الكسلان ولو كان ابا قابوس او عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في حقله اعلى قدراً في نظر العقلاء من الامير الجالس على السرير المتسربل باثواب من حرير وهو بطل مكسال لا ينفع غيره بعمل من الاعمال . وقد جاء في بعض الامثال قولهم كلب يعمل خيراً من أسد يكسل .

ان العمل لا يحط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المغرورين بانفسهم المتفاخرين بعلومهم وانسابهم بل يزيده مجداً وكرامةً فقد قام من كل أمة رجال استهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الاعمال ايضاً . فمن اليونان

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيراتيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم . وافلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه .

ومن العرب ابو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وابوحنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من امرائهم وعلماهم كانوا فلاحين اونجارين او حجارين او قصارين .

ومن الانكليز شكسبير رأس شعرائهم كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها وقيل ان ابيه كان جزازاً وانه هو نفسه كان يعمل في صباه على مشطاة الصوف واستحق نيوتن كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والن الكيماوي كان حائكاً . وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخطط بيديها اقمصة وترسل بها الى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والاعمال الادارية التي كانت مطلوبة منها .

ومن الروسين بطرس الاكبر ملك روسيا كان يذهب متنكراً الى اوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع الي بلاده ويعلم رعيته اياداً !!!

ومن الاميركبين ابراهيم لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباغاً والرئيس كليفلند كان محامياً والرئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد ان تعاطي فن الحمامة مدة . فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والامراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستنكفوا من الاعمال اليدوية والاعمال العقاية ولم يحسبوها دون اقدارهم او تالمة شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون انها نافعة لهم ولاوطانهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لانه آية الشرف .

(٥) : انه سلم الارتفاع الى اعلى المراتب والتربع في ارفع المناصب فكم وضع حقير نال باجتهاده في العمل رتبة امير كبير او وزير خطير وحسبنا ثبناً لذلك ان نذكر بعض الذين ارتقوا باعمالهم من اصول وضيفة الى مراتب رفيعة . فمنهم اللورد

انتزعت قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حانوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جدك كان يخلق فيه للناس و يأخذ اجرة على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حانوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بكفاء العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه التقى خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف ارتقى من درجة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة فضج الجمهور بصوت عظيم قائلين من الخياط فدعاً . قال مرة بعيني بعضهم باني كنت خياطاً واكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي و كنت دائماً اخطط الياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى أصحابها في الاجل المعين . وجيمس عارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بتبجاعته ونقواه الذي كان يتيماً فقيراً ونسأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجد في اعماله المختلفة ويرتقي من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضواً لمجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنى بالعمل المستمر والجد المتواصل عارب العز والمجد وبلغ على ذرى النجاح والسؤدد . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سبب الارتقاء من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والحمد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعظماء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نسأوا من اصول وضيعة ونالوا مجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

( ٦ ) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النشط سعيد وان كان فقيراً والبطال البليد شقي وان كان اميراً . سئل اديسون المخترع الاميركي المشهور ماهي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء يوصف للثقبض الصدر الكاسف البال الذي وهن من الهم عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن ويزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شيء عمله وشيء تحبه وشيء تأمله » . وقال احد الافاضل

بعد ان اختبر احوال البشر : « جبت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملا او توجد شيئا جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله . نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و يفوقونهم مسرة بابتهاجهم بانقان اعمالهم ولذلك نراهم يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال . »  
والخلاصة انه ليس للناس في الشيبة والشيخوخة احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة وارزاءها و يزولون به همومها وشقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوى لا توجد في شيء من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشيبة و يبعد الشيخوخة و يطيل العمر بما يشته في نفس العامل من اللذة والسرور و به يعرف الانسان معنى الحياة ومعنى الراحة والسعادة فلا تكون حياته نافعة ولا صالحة ولا شريفة ولا سعيدة الا اذا انزله عن البطالة والكسل وقرن علمه بالعمل . ومع ان هذه الحقيقة واضحة كاشمس لبي عينين نرى الناس يختلفون في مراعاتها وهم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول -- الجهلاء البطالون وهم الذين لا يعرفون علماً صحيحاً ولا يأتون عملاً مميذاً وانما تنقضى عليهم الاوقات وهم مجولون في الاسواق والطرقات او منغمسون في التسرور والمنكرات او مواظبون على المراقص والحانات او منفاخرون بالمظالم والتعديبات فيعيشون كاضوراي الحائلة في البراري و ينفقون مما ورتوه عن آباءهم من الاموال او سلبوه من غيرهم بالغش والاحتتيال او النهب والاحتلاس او التسول والالتماس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستعملها الانسان لركوبه وحمل اتقاله او مساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات منافع حمة ومالولئك الهمة البطالين سوى الاضرار ولا فائدة لهم من الحياة الا الفضيحة والعار مخير لهم ان يكونوا جثثاً هامدة او خشباً مسندة او قطعاً من طين من ان يكون علقاً او عقارب او افاعي او تياطين .

الثاني -- المتعلمون البطالون وهم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان وفتيات و يدرسون العلوم والفنون المختلفة ولكنهم لا يرغبون في عمل ولا يلتذون الا بالكسل مكثفين بنيل التهاديات مزددين بالحرف والصناعات متسربلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزججين اوقاتهم بالثؤباء والمطوآء فيتردد الفتيان منهم بلا عمل على يهوت الاغنياء والعطاء ويتوقعون الرزق بلا سعي ولا عناء ويرفلون بلباس العلماء وهم افرغ من حجام سابط وافلس من بن المذآق . وتقتصر الفتيات على التباهي باحراز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة واتباع الازياء الجديدة ويشغان الاوقات الطويلة بارتداء الاتواب الجميلة ويحملن آباءهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كانوا من اهل الصناعات الذين لا يفضل دخلهم عن الاقوات . وكل هؤلاء المتعلمين والمنعمات البطالين والبطالات لا نقل اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كانوا اوفر منهم اضراراً اذ اكثر اوزاراً لانهم اقدر على الافساد والايذاء واخير بضروب الحبث والدهاء واعرف بوسائط الشر والشقاق واساليب الحماح والنفاق بما كتسببوا من انواع العرفان التي تقوي المدارك وتتخذ الازهان . ولقد صدق من قال نسر الفتيان المتعلم المتبطل المتنافس المتعطل .

الثالث — الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بهم لا تعرف الملأل ليحصلوا رزقهم ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يجربون الكسل ولا يستكفون من العمل ولا يطمعون في اموال الناس ولا يستعملون العش والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الانقان بادية النقصان غير خارجة عن حد التقليد ولا مزينة بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع والنفن والاختراع فتمر عليهم السنوات واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معاشهم لا تتحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا اعجب الآلات الزراعية والصناعية واكبر السفن والقطرات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطائرات التي تحلق فوق كل ذية جناح — والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية كاللحاريث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم الزمان عرف ان السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين . فالعمل وان كان ضرورياً وشريفاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترقى للامة ما دامت غارقة في لجة الجهل .

الرابع — المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي تعلموها وبرهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعالهم وخدموا شعوبهم واطمانهم بمعارفهم المختلفة وافادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلومهم من الاعمال العظيمة وما افوه من الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة والادوية الناجمة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر و ثابت بن قرة وغيرهم من علماء الشرق وكولمبوس وباستور وكوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شورتهم الآفاق وخلدت اسمائهم واعمالهم في بطون الاوراق وعمم فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد . الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر وباعمالهم الجليلة ترثني وننال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قدأوهنوها وأخروها والعلماء الكسالى قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنها وثبيت أركانها . ان سورية اجود البلاد هواً واعذبها ماءً واطيبها تراباً واكثرها إخصاباً وقد كانت في ما سلف من الازمان مأهولة بألوف الألوف من السكان الذين سبقوا الى المدينة والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطوة ومجد وثروة لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم نقيض لبناً وعسلاً وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية والزجاجية والخشبية والحجرية والحزفية وملابسهم الحريرية والكتانية والصوفية واصباغهم الارجوانية والاسمانجونية مما يتفاخر باقتنائه الشرفاء والاغنياء وتزين به قصور الملوك والعظماء فاناروا بمعارفهم الافكار وعمروا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يهملون العمل بعلمهم أصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدياء وكل غلاتهم لانثي يجاجتهم وامسى اكثر ما عندهم من حلي وثياب وعطور واطياب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الاير والمسامير والمنافع وزجاج الشبايك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فهبطوا من قمة مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ الى حضيض الدل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر ولا مسي . ولكن الهم اذا قترت والبصائر اذا خسرت والايدي اذا قصرت .

فالقوة تتحول الى الضعف والعز يتبدل بالحسف . اننا لا ننكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نياس من تقدمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجاري الامم الراقية برعاية الدولة المنتدبة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الخليفة . ولكننا نشعر باننا وان كانت الحاجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد . وهذا ما أريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به انفع الافراد والاسر والامة والمجتمع كافة وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصلوه ومقداره فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه ونفع ابناء جنسه . واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة وثنوقعها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الاهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من الاطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يليق بمن تعلم الطب وانفق في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعة الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاطى غيرها كما فعل بعضهم . ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والتسرف كأن تلك الوظيفة لم توحد الا لاجل معاشه . ولا يحسن من تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يحالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط او الشراهة او سرب المسكرات او التدخين او التعرض للامراض المعزية التي تجلب عليه العار وتلف حياته وحياة ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله . بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق ويقاوموا الاوبئة والامراض بالوسائط الواقية و يعالجوها بالادوية الناجمة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضاً لان العقول السليمة في الجسوم الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن



نفتت في الامة الامراض والاسقام وفتك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها .

(٢) : السعي الحثيث لكل ما يرقى العقول وينير الازهان وهذا مفروض على المربين والمعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلمات لان المدرسة الاولى هي مدرسة البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة ويهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن ثقيف عقول اولادها بل يجب على الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحياء قوة الملاحظة فيهم ونقويتها وتلقيهم مبادئ العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا لدخول المدارس ويكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندران ينبغ في المدرسة . ويجب على المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تنوير عقولهم بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحقة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف ان يهتموا بتكثير عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفاء الوطنيين المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارتزاق ومراقبة التدريس وتحسين اساليبه بحيث يكون صالحاً لثبته رجال قادرين ان يقوموا بحاجات الامة وينهضوا بها الى مستوى الامم المتقدمة فانه ما من امة ارتقت الا بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتقاء اليابان السريع فانه لم يتم الا ببث العلوم بواسطة المدارس الوطنية الراقية .

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكل اليهم امر التعليم ان يهتموا كل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذلين كل قواهم في ثقيف العقول وتنوير الازهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً وبذلك يكونون قد عملوا بعلمهم . فان قصرنا في هذا الواجب بقي الجهل سائداً والعقول مظلمة وارباب الاعمال عاجزين عن انقاذ اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتمدن فيها من اثر .

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء الاديان والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان يجتهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الامم باخلاقها وادابها فان قصروا في هذا الواجب اتىشر الفساد وعم الكفر والاحاد وانحطت الجماعات والافراد وساءت الاحوال وخربت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك . والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجه وجرش وتدمر وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للامم السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت لفساد الاخلاق اي عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة — تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وثبتت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق الفاضلة والمواطف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارتقائها وسبب نموها وبقائها . قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبانها العقلية والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين اسمى المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة سالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم  
تصف الدواء الذي السقام مطيباً كي ما يصح به وانت سقيم  
لانه عن خلق وتأني مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وقول الآخر :

فكم انت ننهي ولا لننهي وتسمع وعظاً ولا تسمع  
فيا حجر الشخذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم والفنون المتعلقة بهذه الامور كالكيمياء والطبيعات والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبذلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ما تلقوه في المدارس وما طالعوه في الكتب على اعمالهم المختلفة . اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوربة وعادوا الى وطنهم وبايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء اي لم يتبعوا الاصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استحضار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالهم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقاتهم واموالهم التي انفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها . ولو عملوا لانفقوا الفلاحة والزرع والغرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال .

(٥) : احياء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتخليصها من الالفاظ العامية والشوائب الاعجمية وهذا مطلوب من اساتذها وادبائها وخطبائها وكتابها والجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع المجرور ويجر المنصوب او يحرف الكلم عن مواضعه راوضاعه ولا يجوز للكاتب ان يحشور رسائله ومقالاته بالتعابير السوقية والاغلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاءالجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم متأخر عن مجاراة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجتهدوا في مراعاة قواعدنا وسد ثلمها بوضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالنحت لكي تحيا وتنمو لان اللغة التي لا تنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي ننتسب اليها اذ لا بقاء لامة بدون لغتها واذا قصر علماءها عن السعي لحياتها لم يكونوا عاملين بعلمهم ولا نافعين لامتهم .

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذا

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة او تعاطوا المحاماة فان العدل اساس الملك والامن علة استتباب الراحة والطمأنينة ودوران دولاب الاعمال المختلفة فان لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة والامانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعمّ الخراب البلاد وان قاموا هم وغيرهم من المتعلمين بالاعمال المطلوبة منهم حق القيام ارتفع شأن الامة وحسنت احوالها المادية والمعنوية واستطاعت ان تجاري الامم الراقية في سلم المدنية . فان قيل ان كل اهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لا ريب ان كثيرين منهم متممون الواجب فهم مستحقون اطيب الثناء ولكن كثيرين منهم ايضا مقصرون في اعمالهم فهم مستحقون التقريع واليهيم يساق الكلام ونحوهم تسدد أسنة الملام اعلمهم ينسبون من غفلتهم ويشعرون بخطيئهم فيبادروا الى اصلاح انفسهم باصلاح مبادئهم وغاياتهم فان نتائج الاعمال تنوقف على غايات العمال فان كانت الغايات تحصيل المال او المجد او المدح بطلت الفائدة المنظرة من اولئك المتعلمين وايضاحاً لذلك اقول ان الطيب الذي لا يهتم الا بقبض الاجرة من عليه والحاكم الذي لا يبالي الا بتعظيم الناس له وتسيبهم بحمده والخطيب الذي لا يهتم الا باظهار ما عنده من البلاغة وحسن الالتقاء وسعة المعرفة ليحمل الناس على الاعجاب به واذا علة فضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وامثالهم من المتعلمين لا فضل لهم على الامة ولا فائدة منهم لها . ولكن ان كانت غاية الطيب انقاذ المر يرض من خطر الموت وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب ان يراذهان السامعين وبتشروح الفضيلة فيهم وغاية الاستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجهل وغاية المحامي المدافعة عن الحق الصريح ومقاومة الباطل وغاية الامام او القسيس ارشاد الضالين الى محجة الحق المبين كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الامة متضافرة على حفظ كيانها ورفع شأنها . قيل ان احد السياح مر بصرح نغم جوله مئات من العملة يشغلون بترميمه وراى على مسافة قريبة منه مقطعاً للبحارة فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلاً منهم قائلاً ماذا تعمل في هذا المكان فقال الاول اني اشغل بنصف دينار كل يوم وقال الثاني اني اقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه امامي وقال الثالث اني أساعد

رفاقي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الامة فسر السائل بالجواب الاخير لانه دل على ان غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا اطاعة امر المهندس كما كانت غاية رقيقه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة . وكل عاقل يجب عليه ان يراعي في عمله هذا المبدأ ويقصده هذه الغاية ذاكراً ان عمله مرتبط بمصلحة الامة والمجتمع وانه يجب عليه ان يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الامة وحضارتها و يبدل جهده في ترقيتها واسعادها والمحافظة على كرامتها .

الثاني الاسباب التي توجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم وهي :

( ١ ) : ان العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل الانسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولا بناءً جنسه لم يكن علمه صحيحاً وقد ثبت بالاختبار ان الانسان لا يكمل بالعلم وحده اي ان عقله ومداركه ومعارفه واخلاقه انما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم لكي لا تكون دعواهم باطلة ولا سجاياهم ناقصة .

( ٢ ) : ان المتعلمين هم اعرف الناس بوجوب العمل وتسدة الحاجة اليه ووفرة فوائده واقدرهم على اتمامه وانقائه فيتوقع منهم ان يقوموا به اكثر مما يتوقع من سواهم فان قصروا في ذلك كان ذنبهم اعظم من ذنب المقصرين من الجبال وكانت خسارة الامة بسبب نقصيرهم اكبر من خسارتها بسبب نقصير غيرهم فيجب عليهم ان يعملوا بعلمهم لئلا يجنوا على انفسهم وعلى وطنهم .

( ٣ ) : ان المتعلمين هم هداة الامة الى الطريق الاقووم وقادة افكارها الى الخير الاعظم بما اقتبسوه من انوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع اهل التحقيق على ان الهداية بالاعمال خير من الهداية بالاقوال وقيادة الجيش تستلزم السير معه بل امامه فان اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون ان يسلك في السبيل المستقيم لم يكن وعظه ناجعاً ولا تعليمه نافعاً وان ترك القائديته يسير وحده ونام عرضة للتنتن والانهزام فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتمكنوا من هداية الامة واصلاحها .

( ٤ ) : ان غاية كل تعليم وتثذيب وثقفيه وتدريب انما هي الاستعداد للاعمال

المفيدة فان اهل المتعلمون هذه الغاية او تكاسلوا في اتمامها وتحققها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والمعلمين والوطن وكان مثلهم مَثَل طاع بخیل انفق عمره في جمع المال ثم دفعه في الارض ولم يخبر احداً بموضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم يتنم هو به في حياته ولا تركه لاحد يستفيد منه بعد مماته . فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليقوموا الغاية التي لاحتها تخرجوا في البيوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم .

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والتعور بوجوده فالذي يحقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً خيره وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او أرغم عليه ولذلك نرى بعض الذين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف وأضاعوا اوقاتهم باللهو واستباع الشهوات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجوب العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم نجحوا في كل ما تعاطوه . من الحرف والصناعات وأفادوا اوطانهم فوائدها . ان ملوك الغرب في هذا العصر يبعثون باولادهم وحفدهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه . فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا بأولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في أعمالهم المتنوعة وينفعوا انفسهم واطنانهم .

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاجسام عن العمل دليل الجبن والجبان لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقتم كل صعوبة ولا يدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته يقدم راسخة تحبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة تفري الحديد فلا بكل ولا يمل حتى يكمل سعيه وينال اربه فان نجاحه مؤكد وما أحسن قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذاعزمية فان فساد الرأي ان تترددا  
 وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان ينقيدا  
 (٣) : عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان  
 التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا أُجِّلَ عمل كل يوم الى ما بعده  
 تراكت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل  
 النجاح . سئل احد وزراء فرنسا وكان ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير بم  
 تستطيع ان تنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله  
 اليوم . وكتب احد الثبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في  
 منصب جديد فأثاه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولكن أوقات الراحة بعد  
 العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في  
 ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعما قليل تزدهم  
 عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤) : اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم  
 او الرئيس الذي يسهر مع رفقائه الى ما بعد نصف الليل ويبقى في سريره الى قرب  
 الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك  
 الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالنرد او الورق او غيره من الملاهي  
 ويقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر :  
 « المحافظة على الوقت من كالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشراف والعلماء  
 والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز  
 كل عمل في حينه فمن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عد مخلصاً بل مجرماً  
 ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على  
 اعمال ذات شأن وبالنسبة لا ينجح في حياته .

(٥) : الامل او توقع النجاح فاليأس او الخائف او الفاتر الهمة الذي يعتقد  
 انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الهبة والنشل لا يمكن ان يفلح في عمل

بجلافة الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقع الفوز الواضع الفلاح نصب عينيه المتيقن اقتداره على العمل السائر الى غرضه بخطى ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة وهمة عالية فانه ينجح في مساعاه و ينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب للفوز بالرغائب ونيل المطالب و يدفعه الى السير في سبيل الواجب ولو كان مملوءاً بالاخطار كما يدفع البحار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل ينشئ سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة الانكايز : « أروني رجلاً يتغنى في اثناء عمله وانا أضمن انه يعمل في اليوم ضعفي ما يعمله الغضوب العبوس لان من يسير على نغم موسيقي قلما يشعر بالتعب » . فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزينا متدمراً منقبض الصدر عابس الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والحد . قال الحكيم : يد المجتهدين تسود فما من احد احرز السيادة او الشرف او التقدم او التبرة الواسعة الا دفع ثمنها كدأً وجداً عظيمين ولا احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :

تريدن ادراك المعالي رخيصة      ولا بد دون التهد من ابر النحل

وقول الآخر :

تروم العز ثم ننام ليلاً      ومن طلب العلى سهر الليالي

ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لا يحصي عددهم فأقنصر على ذكر بعضهم بالاحصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الشهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والف فيها كتباً لاتعد لكثرتها مع ما كان عليه من العوز فكان يسهر الليالي للمطالعة والتصنيف ويستضيء بمصباح الحارس وبقى على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار اوحد زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانبياء . ومنهم اسحق نيوتن اكر فلاسفة الانكايز فقد قال صريحاً : « ان كنت قد خدمت العالم بشيء فباجتهادي وجلدي . ومنهم دزرايلي الذي رقي الى اسمى المناصب بجده وكده . فانه لما كانت مساعيه الاولى تحبط لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرة وهت



قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله وبلغ مراده ومنهم بروم الذي خدم شعبه أكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة وانقن كل ما اشغل به . ومنهم نابوليون الاول والقائد ولنتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرائع والصنائع والتأليف وبلغوا اعلى درجات الفوز بجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد كل الاجتهاد اي يصب كل قوته ويضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه ( على قدر اهل العزم تأتي العزائم ) . ولا يفيد الانسان عمله ولا ذكاؤه ولا وسائطه ولا مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجد ويجتهد ويتعب عقله وجسده لانه لاشيئ يثمر الا بالتعب والحياة جهاد مستمر . غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لثلاث نكف الحياة قبل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى حد الكسل .

( ٧ ) : الامانة والاستقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما الطب والصيدلة والقضاء والمحاماة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب ثقة الناس به و ينجح وكن الذي يخدم مرضاه ليستنزف اموالهم لا يمكن ان يكسب ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه . ان بعض الاطباء يضمنون الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه عياء غير قابل الشفاء . وبعضهم يوهمون المريض بان مرضه عضال وحالته تنذر بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لاشيئ فيه من الخطر وكل ذلك الخداع ناشئ عن الاطماع . والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادويته هو الذي يأتمنه الناس و ينجح في عمله ولكن الذي يغير المقادير و يبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الربح يظهر غشه و يبتعد القوم عنه فينسر مادياً وادبياً . والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس و يكتسب المدح ويرثي في معارج الفلاح . ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحاً حقيقياً وان اصبح بالرشوة غنياً لان تذييب البريء وتبرئة المذنب بغية اتراع الجيوب من اكبر

لآثام واعظم الذنوب واول دواعي الفشل وموجبات الخزي والخيال . والمحامي المستقيم الذي لا يدافع الا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يربح الدعوى وينجح في عمله ولكن المحامي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية تحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه ان ينجح الا ريثما يتكشف امره ويفضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحسبه الناس من اصحاب الجرائم ويمنع من الدخول الى المحاكم . والكاتب او المحاسب الامين الذي يحافظ على الصدق في اقواله والاخلاص في اعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب او المختلس لا يمكن نجاحه لانه اذا ظهرت خيانتة او سرقة طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام . قيل ان مدير مال رو كافر المثري الشهير كان في اول امره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأمل يوماً عليه رقياً وامره ان يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فابى هذا الكاتب الامثال لامره باسلوب لطيف فأمره ثانية فابى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره ثالثة فابى وتوقع ان يطرده وقال غير مهتم بالنتيجة لا اقدر ان استخدم قلبي للكذب وان ما تأمرني به هو كما مرك لي بالسرقة . وكانت النتيجة ان الصيرفي بدلاً من ان يطرد ذلك الكاتب زاد اكرامه وضاعف له مرتبه وائتمنه على كل شيء لانه تحقق صدقه وامانته فالامين في عمله هو الذي ينجح .

(٨) الاكمال فلا يصعب على الانسان ان يقصد الامور السامية وابتدى الاعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه اتمامها اذا لم يكن من ذوي الرزانة والتعقل والدرية والمثابرة والثبات وما اكثر الذين يبدأون بمشروعات واعمال نافعة ثم يضجرون منها و يتركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والنقلب والتردد . ان العمل الزهيد المتم باحكام افضل من الاعمال الكبيرة التي شرع فيها قاصدوها ولم يتموها . فالكوخ الحقير التام البناء انفع من القصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانه ولم يكمل . ان كثيرين اشتبهوا بالمقاصد السامية والفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجة ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا اصلحوا فاسداً ولا تموا عملاً كبيراً ولا صغيراً فابن هؤلاء من اهل الدأب العقلاء الذين ماشرعوا في عمل الاتموا وماقصدوا امراً الا ادركوه . ان خير الاعمال بالاكمال والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فان تيقن انه قادر على اتمامه بدأ به والا

فغير له ان لا يبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه و يجتهد في اكماله فلا نجاح في الاعمال الا بحسن الاكمال . ولا اجهل من الذين قادم الطمع الى اعمال تستلزم اضعاف قدرتهم افاقاموا بجزء منها وعجزوا عن اكمالها فتركوها فتولاهم غيرهم وانبغ بجهلمهم .

(٩) : الاتقان او الاحكام وهو شرط جوهرى للنجاح في كل عمل فكما ان

التجار بين والحدادين والحياطين وغيرهم من اهل الصناعات لا يمكنهم ان ينجحوا ما لم ينقنوا مصنوعاتهم كذلك الاطباء والمحامون والكتاب والمثثون والمعلمون والمهذبون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا اعمالهم . ان الاتقان يستلزم التأني والثبات لان العجلة تفسد العمل وحيثاً تفسد الحياة ولذلك جاء في الامثال الشرقية قولهم: (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) . فمن شاء ان ينقن عمله فعليه ان لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام الى مواضع النقص بغية اكماله ومواطن الخلل لاجل اصلاحه حتى يكون العمل كامل الاحكام على اجمل ترتيب وأحسن نظام فان من بلغ في عمله الاتقان التمام تفوق على أقرانه ونال المقام الاول بين اهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المتقن صناعة الخطابة اذا ذهب الى لندن وألقى خطاباً في احد أنديتها أعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحب به العلماء والادباء والخطباء والعظماء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي الى الخطابة في جميع الاندية الادبية وازدحمت عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العلمية ونشرت خطبه المجلات الانكليزية وربما ترجمت الى غيرها من اللغات الاوربية . وما يناله الخطيب المتقن صناعته يناله الاديب والكتاب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر العلماء اذا كان كل منهم منقناً عمله .

(١٠) : الثمن والابداع او التحسين فلا يكفي ان يكون العمل كاملاً منقناً

بل يجب ان يحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع والا لم يتم الارتقاء فان اكتفى العامل بتقليد غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كانت في اولها بل ربما بات أقل احكاماً في الشيخوخة مما كان عليه في الشبيبة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والنقهر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والنقد . ان الطيب الذي لا يزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر . وكل أمة تفقد قوة الفنون والابتكار في أعمالها لا بد من سقوطها .

ان العصر عصر تجدد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة . ولا يجوز الاستخفاف بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراره ثابتة . ان العقل الصحيح يقضي بوجود الارثقاء والارثقاء لا يتم الا بتربية قوة الفنون والابتكار لكي نتحسن الاعمال وتصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح ويزداد النجاح . فعلى المتعلمين ان ينفذوا عنهم غبار الكسل ويجتهدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للخير في كل حين وحال . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وبهذه التوفيق والاعانة .

لا يرقى البلاد الآ علوم      نتجلى بصالح الاعمال  
فاعملوا صالحاً بما قد علمتم      فرجال الاعمال خير الرجال

( انيس سلوم )



## ارتباط البلاد على اصول الاتحاد<sup>(١)</sup>



أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صدقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة والح في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار وبالرغم من تراخي الزمان بيني وبين منابر الخطابة واستنار الذهن بغشاء من صدى الجمود ضربه عليه الترك المتادي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول واقام ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الآن دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتى بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عفتي امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوكم هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنيهة من الزمن اختيار الموضوع الذي احدثكم به فلم اتعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لم في هذه الحلقات اشواط رابحة ابعدهم ان تجارى فاخترت موضوعاً ما كنت امل ان يكون مجلبة للرضى والامتناع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لابدلنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين

يوم الجمعة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢

لحكومة واحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل واهم خواصها في معناها التام :

(١) : الحاكمية الداخلية التامة وضعاً التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلاقات مع الدول الاخرى ذات الحاكمية المماثلة لها .

(٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمعزل عن كل تأثير او سيطرة خارجية .

(٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة . بهذا ان هذه الشروط

لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنه والمهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمنياً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش الترانسفالتي يجول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضات بصفته دولة وليس له ارض يحكمها . وحالة بلغاريا في عهد اتصالها الاسمي بالباب العالي انقاص لسلطة الدولة العلية ضمن حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية .

عند الاوربيين لفظة ( Etat ) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة

الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي تسن القوانين وتنفذها فاما ان تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر ( الدولة انا ) واما ان تكون ممثلة بأشخاص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال في بريطانيا . وهذه اللفظة لها في كل بلد من بلاد اوربا مفهومان : احدهما المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي تمثله الحكومة . والآخر المفهوم الخارجي وهو الحاكمية القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج . وعندما يعرفون اللفظة في معاجم اللغة يعرفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً لحكومة واحدة . وهي عند الالمان معناها مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري . اما كلمة دولة في العربية فعناها أضيقت من معنى الكلمة الافرنجية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتعة بهذا الاستقلال فهي ايلة او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والافهي ولاية او جمهورية .

وعلى ذلك فترجمة كلمة ( Etat ) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخطئة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام .

اما اشكال الدول فنندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة . والثاني الدول المركبة . والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمية واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعيته ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركزية . والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة تختلج لها كل دولة من الدول المجتمعة عن بعض حقوق الحاكمية وتؤلف باجتماعها حكومة مركزية تقوم بتلك الوظائف التي تختلج لها عنها الحكومات المجتمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمية في كل من تلك الحكومات .

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة تتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها مشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع .

ليس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك يطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احدهما الائتفاق والاخرى الاتحاد .

اما الائتفاق الدولي ( Confederation ) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها واتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التامة لكل دولة من الدول المنفقة ضمن بلادها ومن ذلك الاتفاق الجرمانى الذى تأسس سنة ١٨١٥ بمعاودة فينا وبقي الى سنة ١٨٦٦ ومنه اتفاق الرين الذى احدثه نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ — ١٨١٣ وكذلك كان اتفاق المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ ومنها اتفاق النمسا والمجر والقاعدة الضابطة لاصول الاتفاق ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الاتفاق قانوناً لها مخالفاً لقانون احدى الدول المنفقة وعلى هذا تكون الروابط التى تجمع البلاد المنفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المنفقة محدودة .

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد ( Fédération ) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التى هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تخلى حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتتركها لدولة الاتحاد التى تقوم بذلك العمل ويمتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فرد من سكانها ايضاً . وهذه الصفة تتميزها عن صورة الاتفاق التى فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الاتفاق المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجبرين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية .

والمقاطعات التى تتحد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولاً مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوها المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذ الدول المتحدة . واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فننقل عنها لسبب من الاسباب فننضم معها وتؤلف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة . واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المأذونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً . وفي الحالتين الاخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة



لهذا الاتحاد ليست دولاً مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده .  
 يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انتاذه ونجاحه شروط :  
 اولها — المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخمة بعضها البعض لا يفصل  
 بينها اراضي دولة غريبة .

ثانيها — البانس الداخلي واهم اركان هذا البانس الوحدة القومية والوحدة  
 اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلًا كان الاتحاد ضعيفاً وبقى الحذر من تحكّم احد الجنسين  
 على الآخر وثوق احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم .  
 ثالثها — سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل  
 منها قياد نفسه .

رابعها — اشتراك المصالح والمنافع فاذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة  
 يستفيد كل مها بالاتحاد لاحتلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهما وتوثق  
 او اصر الاتصال بينهما .

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضاً  
 وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها ينحصر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية  
 فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد .

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في  
 ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تخلت لها المقاطعات  
 عنها فيوجد في البلاد سلطتان احدها للحكومات المحلية والاخرى للحكومة الاتحادية  
 وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتمثيل  
 الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد . وهذا الشكل  
 من ثايت السلطات انتشر في المستملكات البريطانية وانما امكن تطبيقه بانف الحكومة  
 البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت  
 بها هذه الدول لنفسها لتأييد سيادتها .

نظن البشر لهذا النوع من الحكومات قديم جداً ولعله كان منتشرًا في اكثر  
 البلاد وانما نصادفه لأول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين اتحدت حكومات اينا او اسبرطا او قورثيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميمتها ودرجة التصاقها فبعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقتحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدا تكون ضيقة النطاق متقاربة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فترى نفسها مضطرة للاتحاد مع القريبين منها لاجل تقوية كيائها ثم لا يعتم هذا الاتحاد ان ينقلب الى وحدة مائلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحاد يكون اختيارياً وذلك عندما تُنجد المصلحة منه بين مقاطعات وأخرى فيكون نفعاً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال ننضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق . ويكون اجبارياً عندما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الاكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في المانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الجرمانى الذي رتبته بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . واوضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجنتين وغيرها .

جمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلاث مائة وهي مؤلفة من ٢٢ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى افضية والافضية الى نواح اودوائر بلدية يزيد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامه المقاطعة وعدد هذه الاقسام ١٨٧ قضاء مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للهيئات التشريعية لمراكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام. وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية. فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدها مجلس الشيوخ ويسمونه ايضاً مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضاءه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب فينتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين الفاً من النورس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يجدد الانتخاب وقد كان عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذا المجلسان يجتمعان معاً عند الايجاب فيتألف منها المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينحل من نفسه ويعاد الانتخاب مجدداً. جميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها.

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير اي الشيوخ والنواب مجتمعين و يشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس. واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فهم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم. قسمت حقوق السيادة في سويسرا بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلق باقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية. القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تتألف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البرلمان ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين. فيظن من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي ينتخب اعضاء القوة الاجرائية من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً .

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة محتكرة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانها الى حكومة البلاد العامة متعلقاً على منفعتهم وعائداً الى اختيارهم فأصبح سكان كل مقاطعة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والجبابة في الامور التي تعنيهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الانفاق فيها خيراً من الافتراق وهذا هو الاساس الاصلي لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان التماس الداخلي مفقوداً بين المقاطعات المتجاورة فيحصل الاضطراب لتنوع الادارة وتبدل الاحكام بحسب تبدل الاماكن وطبائع السكان .

تختلف الاقوام في ندرية حقوق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فمنهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندنا تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالحقوق برمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما استغني عنها وحصل التخلي عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في الدستور الاتحادي جميع الوظائف التي انفقت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القسمل الاصول الاميركية والسويسرية والاسترالية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً سيه حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع برمته ما عدا الجهات التي تذكر بالاص الصريح انها تائدة لحكومات المقاطعات ومن هذا القبيل حكومة كندا الاتحادية . وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية .

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا أرى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون متالاً واضحاً في هذا الباب خصوصاً وهي أقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعنها اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولها ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة

ومنهم من تحداهما حذر القذة بالقذة مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى . مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها نحو مئة مليون نفس وبلغ عدد ولاياتها ( ٤٨ ) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ بثلاث عشرة ولاية فقط منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وحاربت بريطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكلتره وهي مستعمرات لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان فاز سكانها بهذه الحرب وتقرر لهم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوق المالكه لنفسها في ضمن حدودها واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع كلمتهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض المصالح المشتركة مثل مصلحة البريد والبرق وضرب النقود . وبسبب كثرة المهاجرة الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وضرربوا في عرضها وطولها واستعمروها رو يداً رو يداً وكما عمرت مقاطعاتهم اسسوا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقوت على تلك الحالة ولم دانيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى .

حكومة الولاية اليوم تمتع بجميع حقوق المالكية المستقلة ما عدا المستنديات التي تحملت عنها حكومة الاتحاد . وكل ولاية لها قانونها الاساسي ضمن الحقوق العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكيفية تشكيل الحكومة ومنابع الخزينة والميرانية . ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احدهما للشيوخ والاخرى للسواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن القوانين ويسيطر على الادارة بجميع اضرافها . ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب ايضا لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية . ولها محكمتها العليا حيث تنتهي درجات القضاء فيها . ولها خزانة ورسومها واصولها المالية وديونها العامة . ولها قوانينها الخاصة في الامور المدنية والخزانية واصول المحاكمات . ولها قانونها الخاص في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء الدولة مخالفاً في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكساً عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والهيئة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي المستمد من ارادة الشعب فقط وليس للسلطة الاتحادية حق المراقبة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية او غير جمهورية وفي ما عدا ذلك هي مختارة بانحاز الشكل الذي تختاره في وضع تانونتها الاساسي الذي يتضمن في الغالب اجماتاً معينة أهمها حدود الولاية وحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبما كانت كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه واقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجادها ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة المحققات في الاقضية وكيفية ادارتها والايحاء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومناجع الخزينة وكيفية الاتفاق والسجون والمستشفيات والاهتمام بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاصول الانكليزية التي جرى عليها الشعوب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدلاً للاخر فيكون ذلك ضمن من الخطأ او التسرع في سن القوانين فلا يبق مجالاً للتمييز او الاستئثار او الغلط الذي يرتكبه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد .  
 حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في أكثر الولايات  
 اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنتان او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين  
 واحكام الحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي  
 وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافق مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق  
 محدود جداً لان أكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية  
 الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخبهم يعود اما للشعب واما  
 للمحكمة العليا التي ينتخب الشعب أعضائها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة  
 الاتحادية وحكام الولايات الأخر . وللحاكم حق الابطال او حق الرد ( Veto )  
 وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل  
 قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة  
 الاحزاب ومبطلاً لنتائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب  
 الحاكم من ذوي الحنكة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليحول  
 دون الاسآت التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق  
 الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على  
 ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان  
 وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما روايتهم  
 قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاة مستقل في كل ولاية  
 وفيها تنتهي درجات المحاكمة بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاكم الولايات  
 وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في  
 القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدأ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة  
 وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأون كثيراً بالدولة  
 المركبة التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبداً محسوساً وذلك بسبب الترقى الذي احرزته التجارة والعلائق الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة التي يعيش فيها بل كثرت علائقه مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية التي تمثله في الخارج وتحمي تجارته ومصالحه الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب التي جمعت تحت الويتها سكان الولايات كافة ووحدت ميول كل فريق منهم فتكون منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة وموحدة بين جملة الافراد المنتسبين الى احدي الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير على منافع المنطقة الواسعة واصبح الفرد يتساهل في تنحية المصلحة المحدودة في مقاطعته لصيانة مصلحة حزبه وتأييد سياسته الرامية الى المصلحة العامة الواسعة . وكذلك الحرب الاهلية التي احدثها مجبو الانفصال في اواسط القرن التاسع عشر آلت الى المخدالم وانصداع شأنهم وانتهت بنصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقويت كلمتهم واعتزت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضاً انتهت بانتصار الاميركان وتعزيز شأنهم فقد قويت بها كلمة الاتحاد وكاد نفوذه يبتلع النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة واما التوسع السياسي الاخير الحلق بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر الفيلبين التي اقتنصتها من الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة نانا فبقيت هذه البلاد تدار من قبل الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأتمر باسم حكومة واشنطنون .



عندما انفصلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها سنة ١٧٧٦ ارانق بعضها مع بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congrès) الذي لم يكن لديه قوة مطلقاً ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشمع السكان بحاجة بارتحاد امن من هذا الاتفاق وقام المفكرون منهم يطالبون به حتى اجتمعت لجنة في هذا المجلس ووضعت الدستور الاساسي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخبت جورج واشنطن اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم لحقتها بقية الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية . وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة بالحاكية الشعبية وان كل قوة او سلطة او سيادة ليس لها منبع الا الامة و ارادة الشعب فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها . وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته وانقائه ومتانته التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر الى العهد الحاضر و بموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة .

اما المبادئ التي أسس عليها فهي :

- ( ١ ) : احترام ارادة الشعب .
- ( ٢ ) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الحاكية غير مصرح بمنحه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .
- ( ٣ ) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً وتأسيس حكومة وطنية انعادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .
- ( ٤ ) : لتذلي المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد وانفع لمصلحة الامة من ادارتها من قبل حكومات الولايات . وقد فصل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها بالامور الآتية :

- ( ١ ) : تطرح وتجي التكاليف الواجب اطرادها على نمط واحد في جميع الولايات .
- ( ٢ ) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

- (٣) : ننظم التجارة الخارجيه والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات .
- (٤) : نضع قواعد مطردة للتابعة وللأفلاس تراعى اصولها في جميع الولايات .
- (٥) : تسك النقود وتضع معياراً للمقاييس والمكاييل والموازين .
- (٦) : تؤسس دوائر البريد وثنشئ الطرق البريدية .
- (٧) : ننفرد بصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلامم الفارقة والحقوق الصناعية .
- (٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا .
- (٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتستحوذ على الغنائم الحربية .
- (١٠) : تجمع جيشاً وثنشئ اسطولاً حربياً .
- (١١) : ندعو القوى الوطنية المعروفة بالميليس وتجهزها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات .
- (١٢) : ننولى الحاكمة المنفردة في البقعة المعينة مقرأً لحكومة الاتحاد والاماكن المتخذة للاستحكامات الحربية .
- (١٣) : تسن الشرائع اللازمة لانفاذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف .
- (١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور .
- وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها . واوجب عليها ان ننظم القوى الوطنية وتحضرها وتجعلها عند الحاجة رهن امر رئيس الجمهورية ليستخدمها في المصالح الوطنية العامة . ومنح ايضاً للمحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حق تفسير مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمنع عن اجازته فلا يكون نافذاً . وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولاظمة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تجبي لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبيها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلا تحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما ترسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدد خارجي عليها والدولة تلي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرّة مصونة من العصيان الداخلي والعزو الخارجي .

قلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احدهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مهما كانت عدد سكانها فولاية نيويورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيفادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم مخيروا اما بانتخابهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

رئيس الولايات المتحدة تنتخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر ما لها اعضاء في المجلس الكبير ( Congrès ) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الحفي ويرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي ونتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم يتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والحزينة والحربية والنائب العام والبحرية ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و ( التجارة والعمل ) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التميز مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة و يوجد محاكم استئناف و بداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والقضاء البحري والتي تكون الدولة فيها احدا الحصمين او تكون احدي الولايات خصماً مع ولاية أخرى او مع احد سكان ولاية أخرى . والمحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي وانما لا تفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها . وقد نجحت الدولة الاميركية ضمن هذا الاتحاد وحاء موافقاً لمصالحها الداخلية والخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتقاء عمراتها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد .

فارس الحوري



## طُرْفَةٌ ادبٍ مِنْ آدَابِ الْعَرَبِ (١)

أيتها الاخوان !

إذا قرأتم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فاتحة كل مقامة « حكى الحارث ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . وإذا قرأتم مقامات « بديع الزمان الهمداني » ألفتتموه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندردي » . وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وإنما حدث بها « ابو المطهر الأزدي » — عن « ابي القاسم البغدادي » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعتها أحد كتاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرتنا عليها الدهر المكنى ابا العجب .

\* \* \*

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعدة التي تلتق في المجلس . وبعد ان ألف ( البديع ) و ( الحريري ) مقاماتها اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثم يصح ان يُقَالَ بل « فنّ المقامات » في آدابنا العربية بـ « فنّ الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث ان كلاّ منهما يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . واتسخاص او أبطال خياليين . اكنّ « فنّ المقامات » عندنا ذوى واضمحجل . اما فنّ الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء . والذي دعا البديع والحريري الى انشاء مقاماتها . وافرغها في هذا القالب المفكّه

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ ( المغربي ) في ردهة المجمع في ٢٠ تشرين

الاول سنة ١٩٢١ .

المسائي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكيم . وسرد الوقائع . ورواية الاخبار المختلفة .  
 وإذا تأملنا في كل تجديد أو نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيحملهم هذا الملل على تطالب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا إليها : واذذاك يظهر النابغون والمصلحون والمجددون وزعماء النهضات . خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فان العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن ماؤا سماع أساليب فصاحتهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثية لم من عهد حمورابي فنهض ( قس بن ساعدة ) و ( امرء القيس ) و ( الأعرشي ) الذي كانوا يسمونه صناجة العرب فشققوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فمأوا طريقة أصحاب المعاني وأجموها . ومما يروى في ذلك قول بعض العرب يعبر ربي تغلب :

( ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم )

( يروونها أبداً مذ كانت أو لم يا للرجال لشعر غير مستوم )

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين ( عبد الحميد الكاتب ) و ( جرير ) و ( الفرزدق ) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشد التحاماً بحالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كثر على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها . ومجالس غنائها وندمائها . وقد مل الناس طريقة ( جرير ) و ( الفرزدق ) ومناقضاتهما . و يروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قل ولا تطيل فاني أمل الأطلالة » . وكان المأمون لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف .

فنهض ( عبد الله بن المقفع ) و ( ابو نواس ) و ( بشير بن برد ) الذي سماه بعضهم « ابا التجدد » فأسمعوا الناس عجباً . وأوسعهم طرباً .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وضجروا من تكرير المُعاد فنهض ( أبو تمام ) و ( الجعفي ) و ( الجاحظ ) الذي يدعى ( ملك الانشاء ) . ويكفي ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية . وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد . والتفنن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهموم . وكل مستملح من الحديث . ومفكاه من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المعتمهين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود . ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نهجت فيه الحضارة العربية أتمّ نضج . وبلغ الناس من الترف حدّاً تطأبوا معه أقصى ضروب المفكاهات والمسائيات . بعد أن كانوا مأمواً ترديد أقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حدّ ان كان يلذّ لهم سماع أشعار السقاهين الذين يحملون القرب . والمازين على جسر بغداد . والمسحورين في رمضان . وأخبار سياحات البر والبحر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف . وكان حاملاً لواء هذا التجدد أو النهضة التي انظرها الناس ( المتنبي ) و ( بديع الزمان الهمداني ) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر وثقتنهما فيهما عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات في أواسطه ( أبو العلاء المعري ) و بها ختمت نهضات الادب الخمس . ثم كررت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدرج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بملل بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخرة فأخذ يدب فينا ديب الحياة . وعاد الينا الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شباننا يتلمسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدينة القرن العشرين . ويلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

\*\*\*

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأدباء والكتاب الى وضع تأليف تُحدث في النفوس تسليّةً ونشاطاً . موافاةً لرغبة الناس

وسدّاً لمطالباتهم كما ذكرنا . كذلك فعّل البديع الهمداني في مقاماته المشهورة . والاصفهاني في كتابه الاغانى . وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران» .  
 لكنّ بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى الجون والهزل و يسمونه ( إحماساً ) . وكانوا يعتذرون عنه أحياناً كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كافات الشتاء مذ قال «وما قصدت بالإحماس فيه . الانشيط تارئيه . وتكثير سواد طالبيه » .

والجون في أدبيات الامم أثر من آثار حضارتها وانغاسها في الترف . فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم : فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والجون واختراع وسائل للشهوات ما كان ليخطر ببال العرب .  
 ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Lse Annales) الفرنسية يشكو فيها كاتبها من كسب الجون والخلاعة التي طفا طوفانها على الباريزيين . ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافاة هذا الشر . فقلت في نفسي ها إن (باريز) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس . ولشدّة ما كان التاريخ يعيد نفسه .

\* \* \*

في هذا المسور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة ( ابي المطير الازدي ) التي جعلناها موضوع محاضرنا هذه . وهي من الكتب التي تعجّن فيها كاتبها وتخالع . وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره . لكنه والحق يقال كتبها بأسلوب لا نظير له في كل ما كُتِب واطلمنا عليه من نوعه . حتى أعجب به المستشرقون ايّما اعجاب . وليس اعجابهم به من حيث بلاغة أسلوبه . وتجويد سبك عبارته فقط . بل من حيث أفننه في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب . وطرق معاشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس .

وهذا ما نحب ان نُصغّي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب . ونعرض عما فيه من الجون الذي لا يحسن ولا يطيب .



وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفيها حقها من البحث الآن . فنجتزى  
بالإشارة اليها :

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً: نحو  
كلمة ( نفضَل ) في الدعوة الى الطعام و ( بقَال ) لبائع الجبن والزيتون ونحوها  
و ( شوربا ) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و ( ألحان شجّية ) أي  
مطربة و ( له فرد كم ) أي كم واحد و ( كأس خمر يدوخ ) أي يورث الدوار  
و ( ماء الليمو و حمّاض الليمو ) يعني الليمون ولماذا حذف النون يا ترى ؟ ويظهر ان  
الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كالاترج والنارنج . و ( بن ) لكنهم كانوا يريدون  
به ضرباً من الكواخ لا إبتداء الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة ( بن ) لهذا الذي نعرفه  
كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الخمرة . وكلمة ( أقيه ) للدلالة على التقزز  
من الرائحة الحبيثة و ( أشه ) للدلالة على صوت العطاس .

ومن أغرب كلماته كلمة ( شير ) وانثها فقال ( شيرة ) والشير نسمها في لبنان  
ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل . هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية  
أي موأدة . ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف  
سنة مذسمعناها من اللبنانيين . وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم  
وقد فسرها في ( الفرائد الدرية ) بقوله : ( الشير — Roc près de tomper ) .

ومن الكلمات الفصيحة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع ومات بعد ذلك — كلمة  
( نقاط ) للسراج الذي يستضاء به بواسطة زيت النفط أي زيت البترول غير  
المصفى . فنصلح لانسميَ بها مصابيح البترول اليوم . وكلمة ( جذور ) جمع جذر  
وهي أجور المغنيات وكلمة ( مفردات ) في وصف الاشياء إذا كانت لانظير لها  
فيقولون مثلاً ( مفردات الاخبار ) أي عيونها ونوادرها . وكلمة ( متخلف ) و ( مذبر )  
يصفون بهما من كان مشغولاً بشيء الحظ غير موفق في أمور حياته . ويجمعون  
( مدبر ) على ( مدابير ) .

ومن غريب ما رأيت فيه من الكلمات جمعه ( التي ) بالتين قياساً على الذين

وابن مالك يقول : ( باللات واللائي التي قد جمعا ) وأغرب منه استعماله ( تا ) بمعنى ( حتى ) فقال من بيت شعر :

( لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ )

اي حتى تهورت . و ( تا ) اداة تركيبة كما لا يخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

\* \* \*

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغويا ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعياً :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطلها اسمه ( ابو القاسم البغدادي ) وهو خيالي كأبي زيد السروجي وعيسى بن هشام بطلي مقامات البديع والحريري . اما ( ابو المطهر الازدي ) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتد عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب ( ابي عبد الله ابن الحجاج ) الشاعر المشهور يفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة ( ٣٩١ ) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى شيئاً عنهم ( ابن غيلان البزاز ) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان ( ابن غيلان ) مات سنة ( ٤٤٠ ) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى أواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه أكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الهمداني صاحب المقامات الذي مات سنة ( ٣٩٨ ) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجاناته . و ( البديع ) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري مذ قال : ( انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدئها بديع الزمان وعلامة همدان ) ويعني بقوله ابتدئها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكما أن

البديع كان في ذلك الزمن ( نابغة المقامات ) كان عبد الله بن الحجاج ( نابغة الخلاعات أو المجانات ) . وقد عاشرهما ( ابو المطهر ) كليهما . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سماها ( حكاية ابي قاسم البغدادي ) قد جمع بين ما استفاده من النابغتين: التفنن في سبك وقايع المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البديع — والتفنن في السقف والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته في البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يُستغرب ان ( ابا المطهر الازدي ) لم يسمّ مقامته ( مقامة ) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة ( المقامة ) في مقدمتها التي كتبها لها فقال : ( أشعار لنفسي دوّنتها . ورسائل سيرتها . ومقامات حضرتها ) .

و يُستغرب أيضاً أن احداً من المؤلفين لاسيما كتاب الفهارس والتراجم وشرّاح المقامات لم يذكر ( حكاية ابي القاسم ) التي ابتدعها ابو المطهر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شؤبياً . من كل ما كتبه ( المقاماتيون ) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السقف والمجون . فلم تُنساها أيدي النساخ ولم يُكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلمت بها أيدي المستشرقين فرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

( وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باتا نسأله رأيه في حكاية ( ابي القاسم ) بما نأمنه الجواب وببيل إلقاء المحاضرة في ( ردهة المجمع ) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله : )

( حكاية ابي القاسم البغدادي ) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادي وقد جاء في ( ص ٣ ) ان اسمه أحمد بن علي التميمي لكن في ( ص ١٤٥ ) انه علي بن محمد التميمي وفي ( ص ٨٧ ) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبغال والحمر والأطعمة وأنواع الفساقية والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاحين والعيّارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كان يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بايات لابن حجاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها . أما زمن المؤلف فلم نقف عليه غير اننا رأيناه ينقل في ( ص ٨٠ ) أياتاً لابن نباتة السعديّ ( المتوفى سنة ٤٠٥ ) فهو اما أن يكون عصره او بعده بقليل لان ما أتى به من الوصف في القصة يدل على انه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اه .

\* \* \*

وموضوع مقامة ( ابي المطهر ) أن رجلاً يدعى ( أبا القاسم البغدادي ) كان في اصفهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والادب فأخذوا يداعبونه . ويستنبسون دقائمه وهو يطرفهم بكل مستلح عجيب من نكته ونوادره . لا سيما تفضيل ( بغداد ) على بلدهم ( أصفهان ) وانها كانت أرفع شأنًا . وأنصر عمرانا . وأكثر استجماعاً لمرافق الحياة . وبلهنية العيش . وكان ابو القاسم هذا أدبياً عجيباً في بلاغته . وقوة دارضته . عزيز المادّة في اللغة والادب والتعرّ وصناعة الانشاء والنقد في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه وبالا لاسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاورّة والسؤال والجواب . ولقد طال ذلك الحديث بينهم وامتدّ النّفس فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

\* \* \*

اراكم أيها السادة قد ظمتم الى سماع شيء من تلك المقامة . فدونكم منها ما يسهه الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم .  
نذهب اولاً الى أصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصفهاني . لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عين ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحصاته . ويصيبنا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها ربُّ الهادر المسكين .

يجري ذكر أصفهان . فيذمه بها ( ابو القاسم البغدادي ) فيقول له : الآخرون  
 ( يا ابا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا !! ) فيقول لهم :  
 أحاكمكم الى شاهد منصف : الى السمع . فأتكلم أولاً في الأسماء . الى أن  
 نصير الى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .  
 ثم يشرع يذكر لهم أسماء أماكن في بغداد . مثل ( الرصافة ) ( درب الريحان )  
 ( سوق العروس ) الخ . ثم يقارنها بأسماء أماكن في أصفهان : مثل ( كورسان )  
 أي المقابر ( موشكاياذ ) أي موضع الفار . ( كوي كداي ) درب الهّم . ( كوي  
 كوران ) درب العُهي الخ :

ثم يبيح شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونةً بالمرائب  
 والزوارق . محفوفةً بالقصور والجواسق . يرتفع ما بينها أصوات الاغاني . وخفقان  
 النسايات والسواني . واصوات الملائحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيت ترأى والله  
 جمالاً وكالاً . وتسمع من ألحانها الشجيرةً سحرآ حلالاً :

( امري لقد فارقتهم غير طائع ولا طيباً نفساً بذاك ولا مقر )

( أو قائله ما ذا نأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لا علم لي . فاسألني القدر )

ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

( مشترف الهادي كأن أذنه تصغي الى سر حديث السماء )

( فلم يكن يسرج الا اذا وضعت في حاركة سداً )

ثم يصف الفرس من خيل أصفهان فيقول : قد تفخ التبن بطنه : فهو كالغرارة .  
 تسبقه عند الركض الحماره . و يفزع صوت الفارة . وإما مهزول كالألف عجة آ .  
 او كالشن البالي دنفاً . يعثر بالبعرة . ونقيده الشعرة . قدأكل الجرب جلده .  
 وحص ذنبه وناصيته .

( عظامه قد ظبرت كآها كأنها من حطب يابس )

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل النقس . كالقربة البالية او زرق  
 اللبس . إن وقفه راكبه على جماعة أدلى . وان تركه أدبر وتولّى . وإن امسكه

أُتعب يديه . وان حرَّ كفة خلع رجليه . من مفرزٍ نخديه . وان غفل عنه قام .  
وان سلّم على مستقريلٍ جثا تحته ونام .  
ثم قارن بين الدور والاثاث والحصُر والثياب والطيب في البلدين . فقال عن  
أصهبان : وقتيانكم بالابراء وعمائم القطن السكّلية . تعلق في أهدابها خيوط خضر  
وحمر . واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرثومة دهن .  
ووصف الخروان و صحافه فقال لأهل اصفهان :  
ولا أرى بين يدي أحدكم خرواناً قوائمه من خلنج<sup>(١)</sup> خراساني . بلا وصل  
ولا كسر . كأنه طبق منشور . او قطعة بأور . او ثوب ونبي . يستغل الانسان  
بالنظر اليه . عن الاكل عليه . فوّه رُغفان مخبوزة من دقيق ( فائق الهويدي )  
و ( الطنيسيري ) طحن ( العروب ) . أبيض فيه صفرة . عجينه مثل الكمك : يمتد مثل  
الكندر<sup>(٢)</sup> و يلتزق بالاصابع . يشرب الأوك منه دابة . حرره بصرة تحت الاخراس .  
و يتعلّم حتى يوحع الفك عند مضغه . النظر اليه يشبع . والتممة منه تبلغ القلب —  
وسكاريج<sup>(٣)</sup> : فيها الجبن الدينوري الحرير الذي يفنق الشهوة . ويجرك المعدة .  
وزيتون دقوق<sup>(٤)</sup> مدخن . مخلوط باللوز المقشر والصعتر . ننتطر الزيتونة على  
الرغيف فتملؤه زيتا . ويتدحرج كأنه بنادق عنبر . وجبن رومي مقلو . تدمع  
عين آكله من حرافته . حتى كأنه فارق أحبابه . ابيض . مشرب صفرة . أملس .  
حديث . تاكل القالب منه برغيف . لا ينفخ ولا يعطش . ولا تسم له .  
سهوكة<sup>(٥)</sup> . ينقي المعدة . ويلحس البلغم لحسا . وباذنجان محالّ بماء حب الرمان .  
بصرع بمحوضته الطير من جوت السماء . ويقلع من المعدة الصفراء . وأشم رائحته  
من فرسخ . يُضرس قبل أن يؤكل . وصدور البط بماء التفاح . وماء حب الرمان  
والتوت الشامي . وارض بلبن حليب . قد ترك فيه الزعفران . ورُصع بالحخثص .  
وذراً عليه سكر مدقوق . . . . . وقطائف لطايف . مقلوة مفرقة في الجلاب . منضودة  
في جامات البلور المخروط . والصحون الصيني الملونة .

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الحصابان (٣) صحاف المتسميات (٤) نسبة الى

(دقوقا) وهي بلدة بين اربل وبغداد (٥) رائحة كريهة .

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فرّاش متهلل الوجه • نظيف الثياب • حسن الشائل •  
خفيف الروح • يده خلال سلطاني مقوم • كأنه مداري <sup>(١)</sup> الفضة • من عمل  
( نجاح الاسود ) • فيناول الجماعة منه بتلطف •

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسح به وصفا عجيبا ثم قال :  
هذه أوصاف موائد العراق التي ما أرى والله شيئا منها عندكم : انما ارى مائدة  
بلا خلّ ولا بقل • كشيخ بلا فهم ولا عقل • مبسوطة على سفرة رويد شديدة • بساط  
الارض أنظف منها • عليها عوض البوارد <sup>(٢)</sup> باذنجان بسته • شلجم بسته • خيار بسته  
قتا بسته • زعرور بسته • أحرق الله بسته • فكم بسته ؟ ! أما الشواء في مائدتكم  
فهو والله قلوب الحاضرين •

وأرى قدورا تطبخ بلحم البقر الغلاظ • لا يفسخ لحمها باليدين • يأخذ أحدكم  
قطعة اللحم بيده • ويجذبها باسنانه • فترشش على وجهه ولحيته وثيابه • ممزوج ذلك  
اللحم بمرق • يجري عليه الزورق • نغوص يد الانسان فيه الى المرفق • حتى يجدا اللحم •  
مما يأكله الوفادون والزبالون • مخنوماً ذلك كله بالعنب الاسود • وبجلاوة مدلوكة  
باليد • يأتي بعد ذلك قروي سوادى <sup>(٣)</sup> كهل • في قدّ الجمل • بلحمة شمطاء  
كتة • وحالة رزية رثة • بيده أقطاع حطب • يناولهم للتخالي • ثم يسوقهم الى  
صحن الدار • ويجمعهم لغسل الايدي • على بالوعة تختتم والله الأنوف من روائح  
القاذوريات المجموعة فيها الخ •

ولا أرى في فواكهكم عنبا رازقيا كأنه محازن البلور • او ظروف النور •  
( ورازقي مُخَطَف الحصور كأنه محازن البلور )  
( قد مُلئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء ورد جوري )  
( لو أنه ببقى على الدهور قرط آذان الحسان الحور )  
ولا رمان مرمر • كأنه صرر • قد مُلئت بالجوهر • أو الياقوت الأحمر •

(١) جمع مدرى سن من عاج او فضة يختص به الشعر وهو غير المشط ذي  
الاسنان الكثيرة (٢) المشهيات والمقبلات (٣) منسوب الى السواد اي  
بلاد الفلاحين •

ولا مشمشاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عَسَلًا . ولا الكثرى الشامي . والسلطاني .  
والزرجون والنهاوندي الخ .

إنما أرى ساف أمرود . وبهم رود . ونار مرود . وسلم رود . قد أوجعني  
والله الرود . مما أكل النمرود الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالندى : فروائح  
تبلغ الهواء . وتعبر الى دور الجيران . ولا منارة ملوكة . يزهر سراجها بخمسة  
فتايل . بزيت شدي . لا تُشم فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقدور المطجنات .  
والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والحمور . فقال عن نبيذ أصفهان : إنما أرى نبيذاً أسود كالديس .  
أو الديس : ( في لون زنجبي ونكهة أبخر ) .

( إذا صب مسوده في الزجا ج فكأس النديم به محبرة )  
ثم وصف الساقى فقال :

( يُديرها ساقٍ له رُكبة كأنه مخلاج نَدَاف )

( في يده باطية ضخمه كأنها مغرارة إسكاف )

وربما كان الساقى شيخاً أبيض الرأس والحية . كأنه بعض المؤذنين أو احد  
الحجّامين . طعم الكأس من يده طعم الزقوم . والحفاه ! سقى الله ديارات كسكر<sup>(١)</sup>  
ومنازل كسرى وقيصر :

( وسلامٌ على مواخير بصرى وأوانا والقفنص والبردان<sup>(٢)</sup> )

( ليت شعري مذغبت عنها على كم قرّ البائعون سعر الدنان ؟ )

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلاً ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أسماء دساكر ومواطن لهو في

ضواحي بغداد ويشبه تشوقه هذا تشوق ذلك الذي قال :

( ليت شعري متى تحب بي الندى ساقية بين العذيب فالصديبون )

( محقّباً ذكراً وخبز رفاق وحباقاً وقطعة من نون )

و ( الحباقي ) جزرة البقل .



وانما أرى طفيساً<sup>(١)</sup> بارداً . منفيهاً منقعرأ يشق الكلام : إنما في عويص اللغة .  
او يتبظوم بعطل النخو . ساط الله عليه العلل . ولا أقاله منها . شجى في الخلق .  
وشوك بين الأنخص والنعل .

ثم ذكر المغنين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في تجالسكم مطرباً معرباً :  
يقول الشعر الفصيح . ويكسوه اللحن الصحيح . مثل قوله :

( يانسيم الشمال من نحو بصرى      بأبي أنت لانسيم الجنوب )  
( انت لما اعتلت داويت جرحي      يانسيم الصبا بعرف الحبيب )  
( فتماثلت من ضنى كان بيني      كل يوم علي منه طيبي )  
( يا فتاة شباها أمتع الله به      حسنها عدو مشيبي )  
( انما أنت ظبية في كاس      ليس ترعى سوى ثمار القلوب )  
( انما انت شمس دجن على ظا      قة آس مغروسة في كتيب )  
( انبي الله وارحمي ضرر صب      ورث الضرر فيك عن أيوب )  
( وعمي بالبكافيا يوسف الحسن      أما تشنقين من يعقوب ؟ )

ثم وصف مغنيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصفهان . انما أرى  
قردة كأنها مسورة<sup>(٢)</sup> عرضية . أو غول طامع من برية . بشعر كالعنق  
المنفوش . ووجه كالميت المنبوش . شعرها فضة . وثغرها ذهب . كأنها  
طاقة نرجس !!!

فيقال له يا ابا القاسم ! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو أصبت ؟ فيقال وكيف  
أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض . ووجهها أصفر . وساقها أخضر . أعجبكم  
هذا ؟ ! ما من شيء والله حسن محمود . إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من  
البدر كفته . ومن الورد شوكته . ومن الحمار نهفته . ومن الطاووس زعقته .  
( ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها      وإن عاجلته كان فوق المهاجر )

تحت حاجبين يسج منها غرائر . ويقعد شعرهما ضفائر .

(١) اي قدرأ نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء .

( ترى شديها تحت القناع كأنه جد ايل ليف في هدية حجاج )  
 ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وانما ارى والله  
 دُبًّا في طول المنارة . وعرض الغرارة . قد خرج عن حد الاعتدال . وذهب  
 ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عض على  
 بصلة . أو أكل فجلمة . بوجه فطرير . كأنه أسعط بالخردل . جهيم كأنما نضح  
 وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالخنادس . أو كُسي قشور الخنافس . او حش  
 والله من أيام المصائب . وليالي النوائب . وسوء العواقب .  
 ( خلقتة حجة اهل الزندقة صارت به اقوالهم محققة ) الخ

( ذو صورة شوهاء ان لم تكن قرداً في قاله مفرغة )  
 ( ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتي والحش والمدبغة )  
 اتن والله من هدهد ميت . في جورب عفن . أتقل من هم الدين . وامر  
 من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ . سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ .  
 ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد . وذكر طرف من نوادرهن . وحسن اجوبتهن .  
 فقالوا يا ابا القاسم ! لو نفضات ببعض تلك النوادر لكانت قد أتممت الانس  
 باحاديثك . فيذكر لهم على سبيل المثال ( زادهير<sup>(١)</sup> ) جارية ( ابي علي بن جمهور )  
 وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عم له . فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه نارها .  
 وتلذعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاريتها داره في البصرة . وذهب  
 هو الى بغداد . وبغداد جنة الموسر . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهو ومواصلة  
 السرور . فضجرت زادمهر . وكتبت اليه كتباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :  
 اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عولت لي على ضياعك  
 الخراب . او على وكلائك السفل . والله ما أشبهت دارك الا بدير هرقل<sup>(٢)</sup> وانا

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

( أولى الامور بضيعة وفساد امر يدبوره ابو عبّاد )  
 ( وكانه من دير هرقل مُفلت شرس يجر سلاسل الاقياد )

محبوسة فيه كبعض المجانين . لا يرجع عليّ شيء إلا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو شربت بها فؤماً ما كفتني : يا ابن جمهور! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك . وبتخرن بك و يقلن : كذا عند ( ابي علي ) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمار البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكبلك . فهي تظن أنك الوزير ابن الزيات . او ابراهيم ابن المدبر . فأما ( زاد مهر ) التي تدقّك دقّ الكشك . و تهينك هوان الكتان . فليست من امثالك .  
خأصني الله من ذنوبي كما خأصني منك ومن رؤيتك :

( انا في نعمة ببعذك عني أكد الله نعمتي بالدوام )

وحياة أنفك المعوج . وكللك المذنب . وشوابيرك <sup>(١)</sup> المحذفة . لأ كافيذك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى يجيء مقموطاً مدهوناً . أضع يده في زعفران على الكتاب وارجه بالكتاب اليك . ويحك يا ابن جمهور كأنّ ملحك على ركبك <sup>(٢)</sup> . نسيتني واشتغلت عني . ابعث استك العزيرة نفقة . واحملها اليك الى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واسترلي بجياتي عوداً بحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهره دباج . حتى اجيء أغني به . . . الخ .

ثم جعل يسمي جوارى بغداد المشهورات واحدةً واحدةً . ويذكر شيئاً مما كنّ يغيبن به من الشعر . فيطرب لساعهن شعراء بغداد وادباؤها . مثل ( ابن الحجاج ) و ( ابن نباتة ) وغيرها . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب ( ابن غيلان البزاز ) على ترجيعات ( ريحانة ) جارية ( ابن اليزيدي ) اذا غنّت :

( ١ ) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد في ذلك الحين . وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون : تحشّر به واصله تحرش به و يقولون : ريقان مكان يرقان . و ( رقة كف ) مكان ( قرعه كف ) ومعلقة مكان معلقة وهكذا .

( ٢ ) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

( لا تلبها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب )

( أعط الشباب نصيبه مادمت تُعذّر بالشباب )

( وأنعم بأيام الصبا وأخلع عذارك في التصابي )

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : لنقلب  
جمالتي عينيه . ويسقط بثياباً عليه . وهات الكافور . وماء الورد . ومن يقرأ في  
أذنه آية الكرسي . والموذتين . ويرقيه بشراهما مراهيا . أيش يعمل هكذا يعمل  
يا بارد ؟

أو لو رأيتم طرب ( ابن غسان النصراني ) اذا سمع حباثة جارية ابي تمام الريني  
وهي تغني :

( وحياء من أهوى لاني لم اكن أبداً لأحلف كاذباً بجمياته )

( لاخافن عواذلي في لذتي ولا أسعدت أخى على لذاته )

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة !! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول :  
هذا ابن غسان كان فتىً مليحاً . ظريفاً . حسن الادب . شجاعاً فيما بين الاطباء .  
وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل . وقد عاجله من علة فلم يقض حقه :

( هب الشعراء تعطيهم رقاعاً مزورة كلاماً في كلام )

( فلم صفة الطيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام )

وكان آخر امر المسكين أنه غرق نفسه في ( كرداب كلواذا ) وذلك لاسباب  
اجتمعت عليه : من صقر اليد . وسوء الحال . وجرب أكل بدنه . وعشق  
حرق قلبه . حتى جرت الى نفسه حينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين . ويعدد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم  
حتى يختم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين . والاغاني من الرجال والصبيان  
والجواري والحرائر لطلال واملت وكنت كاللزاح من صنف ( كتاب الغناء والالخان ) .  
ولمهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت انا وجماعة في الكرخ  
اربعمائة وستين جارية في جانبي دجلة . وعشر حرائر . وخمسة وسبعين من الصبيان .

(١) يراد بصفة الطيب ما نسميه اليوم ( وصفة ) أو ( راسته )

يجمعون من الخدق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لانظفر  
بيهم . ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورفبائهم . وسوى من كنا نسمة ممن  
لا يتظاهر بالفناء والضرب الا اذا نتط في بعض الاوقات (١) .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يعي له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب  
بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلاماً لا يمكن أن نفهمه نحن  
اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك  
نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فنقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل  
ذلك . ويورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر  
الطبّاخ . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه ( نارنج ) ما اظنّ أني  
تاعدت مثله : كان والله عنوان النعم . وترجمان المروءة . وطبيب الشهوة . أحذق  
من رؤي من اهل صناعته . وارحفهم سكيناً . واعدلم تقطيعاً . واذكاهم ناراً .  
واطهيم أيزاراً . كأنّ الموائد التي يعبتها . والثرائد التي يتنوّق فيها . رياض  
مزخرفة . او برود مفوّفة . كأن لا يجمع بين لوزين . ولا يوالي بين طعمين .  
يخالف بين طعام العداء والعشاء . وبعاد بين ألوان الصيف والشتاء . يكفني بالحظة .  
ويفهم بالإشارة . كأنه مطّام على ضمير الضيف والمضيف . كان والله يطبخ ما يوقظ  
شهوة النعسان والثكلان والمغموم . وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له ( يانارنج  
الى أي شيء تحتاج ؟ ) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيُسأل عن رأيه فيها وأيهما

(١) و ذكر القاضي ابوعلي الحسن النوخى المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار)  
كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الخس  
فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف  
واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار !!! .

افضل ؟ فيقول : بينها من البعاد . ما بين النجماد والوهاد . ما بين الناهق والصاله .  
والناقص والفاضل . ما بين اللؤلؤ والمرجان . واللغت والباذنجان . من يسوي بين  
رجل اغزر من البحر . واوضح من الفجر . وبين آخر ابيس من القفر . واوحش من  
القبر . ذا والله أخف من النسيم . وذا أتقل من منة اللثيم . ذا أخشن من الحناجر  
على المناخر . وذا أحسن من المهاجر في المعاجر . ذاسعد السعود . وذاسعد اللذايح  
ذا والله أندى من القطر . وذا أجهد من الصخر . ذا أعمر من النبر . وذا أذل من  
البعر . ذاعود . شق لمواضع السجود . وذا عود . نجر الحس اليهود .  
ثم يقومون الى مجلس الشراب . فتصف الرياحين . ثم الفواكه . ثم القناني .  
فيسأله واحد يا ابا القاسم ! وهل تعرف شيئاً من السباحة ؟ فيقول يا أحق ! وسوادي  
لا يحسن أن يركب البقر ! وتركى لا يحسن أن يزع في القوس ! انا والله اسبح من  
الضفدع . ومن الثنين أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط سمك ولا بط :  
اعرف منها الشق والموزون والمقرفص والدرع والغمر والاستلقاء والشكابي .  
والطاووسي والعقربي . وكن أستاذي في جميعها ببغداد ( ابن الطوا )  
و ( الزنابيري ) .

ثم يسألونه عن السفن والملاحين . فيعدد لهم انواعها . ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً  
يحاطب رجاله اتساء الاستعداد للسفر : فذكر من ملابسه وأدوات سفينته واصطلاحات  
مهنته مالا يتسع الوقت لذكره بل لانهمه لو سمعاه .

ثم سأله سائل عن داره فأجابه : ويحك ! أيتس تعمل بداري ! هي في سكة الجوهرى .  
دار أسست على غير التقوى بحمد الله .

( فان ترد دار الخنا والحبوم ومعدن العصيان والدنوب )

( وموطن العادات والعيوب فاعدل اليها تحط بالمطلوب )

ثم يأخذ في فنون من الحديث . ويسلك منه مذاهب مختلفة . حتى يسمع حديثاً  
ابعض الحاضرين فيعجبه ويقول : ذا كلام كرد التمراب . وبرد الشباب . قطع  
الزهر . وعقد السحر . حسن الدهباجة . صافي الزجاجة . هو كالبشرى بالولد الكريم .  
الى سمع الشيخ العقيم .

ويلتفت الى آخر يتكلم . فيدم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجنديل . وامر  
من الحنظل هذيان المحموم . وسوداء المهموم . بمثله يتسلى الاخرس عن كآبمه .  
ويفرح الاصم بصممه . كلام نعتّر الاسماع من حزونته : وتخير الاوهام  
من وعورته .

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء . وفرعها في السماء .  
احلى والله من الربل . في زمن المحل . الخلق وضيء . والخلق رضي . والفضل  
مضيء . محاسن انا والله منها في روضة وغدير . بل في جنة وحرير .  
ثم يلتفت الى آخر فيدمه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت . ولا فرع ثابت .  
لو قذف والله الليل بلومه . لطفئت أنوار نجومه . هو في العين قذاة . وبين النعل  
والاخص حصاة . الخمس يطلع من جبهته . والحل يقطر من وجنته . ثم يخاطبه  
قائلاً ( رجزاً ) :

( يارفسة البنل على الطحال ياصفقه بالنعل في القذال )

( يالسعة الزنبور في المآقي ياغدوة البين على العشاق )

( يا فجعة الحرّة بالطلاق يانهشة الافعى بلا تريباق )

( يا قبح شيب لاح في نصول يا كل شيء وحش مهول )

( يا تسوكة في قدم رخصة ليس الى اخراجها من سبيل )

( يا حيرة المكروب في امره ويا صعود السعر عند المعيل )

( يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذن فيها باقتراب الرحيل )

( يارجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل )

( بل يا كتاباً جاء من مخاف للوعد متحوناً بعذر طويل )

( يا دبلّة في الفؤاد قد نفلت من أسف قاتل ومن كمد )

( يا ورمًا في المعى يدل على برد مزاج الطحال والكبد )

( يا فرحة سيف ناظر )	( غلطوا عليها بالذرور )
( فتسلخت مع ما يليها )	( في الجفون من البثور )
( يا غمة الكناس من )	( شم الزائر <sup>(١)</sup> والعبير )
( يا سفرة في دجلة )	( والريح تلعب بالجسور )
( يا جلسة في شمس آب )	( على الصخور بلا حصير )
( تحت السا والشمس تو )	( قد نارها حرّ الهجير )
( يا كل شيء متعب )	( متعقد صعب عسير )
( يا شؤم بخت شقية )	( قد عمّرت عمر النسور )
( شقّ القوابل صدعها )	( عن تسعة مثل البدور )
( حتى إذا شبوا لها )	( وتلاحقوا مثل الصقور )
( وقعت عليهم شيرة <sup>(٢)</sup> )	( بالطول في يوم مطير )
( فرأتهم ولحومهم )	( في الدار تجرف بالمرور )

يا أول ليلة الغريب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا ثقل  
الكابوس في وقت السحر . يا وجه المستخرج<sup>(٣)</sup> في يوم السبت . يا إفطار الصائم  
على الحبز البحت . يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء . ويقترح انواع الغناء .  
ويتشهى بعد أكل الغداء . طالباً الوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من  
جفاء الحُجَّاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة  
صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المغنى البارد . يا أكره من هجران الصديق .  
ومن النظر الى زوج الأم على الريق :

( حويت الشؤم حتى الكا - فُ عن صنعك قد نذوبُ )
( وحتى السحب ان جاور تنها لم تمطر السُحب )
( وحتى لو صحبت الوح - ش لم ينبت له عُشب )
( متى سُميت إنسانا فان الناس قد سبوا )

(١) الذرائر الطيوب والعطور . (٢) اي صحرة وقد تقدم القول على هذه الكلمة

في فاتحة المحاضرة . (٣) هو المحصل اي الجاني وبالتركية (التصليدار) .



و يذكر أبو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزء: «ومن هم أصدقاؤك؟» فيقول — وقد جنَّ جنونه — وتوقدت بالغضب عيونه: «واللك! أصدقاؤي أكثر من خوص البصرة • و بلوط الجبل • و خردل مصر • و عدس الشام • و حصا الجزيرة • و شوك القاطول وحنطة الموصل • و نبق الاهواز • و زيتون فلسطين • واللك! أصدقاؤي « سحنة ابن ابي البغل » و « موسى ابن سلحة » و « جعيفر بن الكلبة » و « كردويه بن وردان » و « عاقول الارمني » الخ الخ •

ولك! أتعرفني أم لا؟ انا الموج الكدر • انا القفل العسر • انا الباقعة الشاطر • انا قلاع القناطر • والله اني اضحك في جببي وانساك حتى تعفن • أقطع رأسك واجعله زرة قميصي • استنشك فلا اعطسك الا في الجحيم • وابلعك فلا الفظك إلا على الصراط المستقيم •

عندما ضحك الحاضرون ضحكاً طالياً • ثم خافوا ان يفضب ابو القاسم و يبادرهم بالسباب • ففضلوا الرحيل • وابتدروا الابواب •

\*\*\*

انتهى ايها السادة ما استعنت عرضة عليكم من عبارات هذه المقامة • و مختلف اساليبها في الانشاء و حسن التصرف و البراعة في الثفن • وأرى ان هذا الثفن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه (الناريق) وكذلك ابراهيم بك المويلعي في كتاباته لاسيما كتابه ( ما هنالك ) وهو ابو محمد بك المويلعي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه ( عيسى بن هشام ) وربما سبقهم في هذا المضمير الفاضل احمد فواد المصري صاحب ( جريدة الصاعقة ) ولا يصح ان نغفل هنا ايضاً ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق ( محمود بك زكي ) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد — ابا المطهر الازدي صاحب هذا الكتاب • وهذه الطريقة وصفوا بها ( ابا محمد الاعرابي ) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء و الاخذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة نسابة عارفاً بايام العرب و اشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم رداً جميلاً انما يجعله من باب السخرية و التهمك و ضرب الامثال • فالكتاب على هذه الطريقة يستعمل الكنايات و الامثال

والذفنن في الوصف والتشويق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهمك بخصمه والتنجيل له .

وللمعري في رسالة الغفران أسلوب في النقد التهمكي يشبه أسلوب (حكاية ابي القاسم) .  
 من ذلك قوله يصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن —  
 واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلاً . ثم قال : ( وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة :  
 أف وتف . وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان في جهنم اه .  
 ويعني المعري ان ما ذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلف وصراف للحقائق عن  
 وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان ( الجورب والخف ) هما واديان في جهنم .  
 وزعمها كذب صراح . ( المغربي )



## الكتب والمطالعة<sup>(١)</sup>

اتي على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفنقر اليها لاقتصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريد من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشتة وارتقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة ام الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حاملة بيدها حمالة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الحط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايةات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧

تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس محاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتي تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضا كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقل فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشور بين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لا على المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث واتمام حديثها وزمن حدوثها ابتداء عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق اى الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجح هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين شروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشير امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فانتساعوا استعمال هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كانت القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما انتشرت حاجتهم الى الكتابة وتعمروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبابيروس ( وهو نبات كان يكثر في المستنقعات

على ضفتي النيل وفروعه ) وعالجوه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما تناؤوا .  
والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يُشوى ثم يشوونه  
لبقي متيناً على عمر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج  
من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الحشب بصورون على  
اوجها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على  
منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال  
احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات  
ورسوماً وصوراً في المنسوجات وحلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فاتفقوا  
غير مبقين على شيء منها و يظن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى  
حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد » .  
واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة  
من حلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النباتي بقرون  
عديدة وفي مكاتب اوربة سجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن  
العاشر لميلاد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .  
اما العرب فكانوا يكتبون على عسب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة  
المصقولة التي كانوا يجدونها في بواديههم ( وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا  
يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً ) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين  
اخذوا عن ادلها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكتبوا في بغداد  
على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيقها ثم لما طمأ بجر التأليف  
والتدوين وكثر ترسيل السلطان و صكوكه وضافت الرقوق عن ذلك اشار الفضل  
ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه و كتب فيه رسائل السلطان و صكوكه واتخذها الناس  
من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت  
وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه  
المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الاسم لما يخرج غالباً على الاغصان  
ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم لجلود رفاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانشئت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالى افريقية وانبثقت منها الى بلاد الغرب فضربت فيها اطنابها وارثقت فيها ارتقاءً باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدوا نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او ببس العشب وغيره و ينفق نحو نصف ذلك في المطابع و ينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنيطيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفايح الحجر والحزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفايح الرصاص والختب والشمع ولما أبدلت تلك الصفايح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق التجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزل مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم نفننوا فيها نفنناً بديعاً حتى اخترعوا آخر اقلام الحر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد ساهم بعضهم الاقلام المدادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكتن وهو (لغخ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزنيفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الحكيم وسفر ايوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيريوغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحميري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيريوغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكانت ظهيراً للعلم فجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكاتب العظيمة التي سادها او كبرها وهي اقدم المكاتب واثنها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقائي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هناء دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الامرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره لتوحيها بفضله واحياء لذكوره . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاثوريين والفينيقيين والحثيين والعبانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومان وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكاتب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة اريسوطاليس التي استولى عليها تيوفرستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكاتب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينتسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم وبأخذون من كل اجني يدخل مصر كتبه وبنسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المار ذكرها ويدفعون الى صاحبها مالا يرضيه . وكان العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي انشأ الامبراطورية البابلية القديمة ( نحو ٢٢٥٠ ق م ) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف المساري على مسلة من الحجر الاسود الصلب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت الينا واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد . وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا نطيل باستيفائه .

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقائمية ابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حدب وصوب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشأوا المكاتب وانفقوا عليها الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اهلها على العلم فافلحوا ونبغ منهم عدد وافر من العلماء الاعلام . ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون ففلاوا ببغداد بجزائن الكتب النفيسة ونقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والذرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن وايضت اثمار الحضارة . ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يستوها عند فتحهم المدينة . ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى ( يوحنا ) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين .

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف . قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبة من افريقية وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستمائة الف مجلد كتبت اسمائها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً . قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بخارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة رجل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط مما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس .



وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر واثمن الذخائر وكانت الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيء اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين ينقد شؤونهم ويلطفهم فكان احسن متجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ كنا نتباريان الى العلم وتنافسنا في اقناء الكتب المفيدة استئثارا بالفضل . ومما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فانفق مع احد علمائها على اتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخائرها وهل يصح انتقال كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بحث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب الى خزائنه وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماد مالا مزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقه واديب وفيلسوف وكاتب . وكانت في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والعربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الالوف من الكتب النفيسة ايام كان اقناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة اصعوبة نسخها قبل اختراع فن الطباعة فابن ذهبت تلك النفائس ! . يجوزنا ان نقول ان اكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لانعلم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دارالكتب في مصر ودارالكتب بالاسنانة ودارالكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة ككتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف بزحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .

اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح في فرنسه فقط ثلاثون الف مكتبة وقلما تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساو لعدد سكانها او يزيد قليلاً . وقد عم الولوج بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مهذب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والنخائر والنفائس ولم يقنصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبتهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتأسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها .

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفيينا ورومية وبرلين وطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتا باريس ولندن .

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كان نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأنها اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لا بد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظائرها ورجالها ونسائها كينت الملك العادل وغيرها ممن لا يسعنا ذكرهن في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به تثوتق دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصابيح التي تُنضح بها الرموز والآثار والمفاتيح التي تُنفتح بها الكنوز والاسرار بل هي محنطات عقول الحكماء ومراي تصويرات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء وثمار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين .

فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنيةٍ فاخرة وحلية ثمينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتني في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولتسدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلّ بي الهرم ولم احسب لهما حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني ( غرفة بلا كتب جسم بلا روح ) وقال المنبهي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدني ظهر سايج وخير جليس في الزمان كتاب  
وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فليس بي الى غيره ما بي اليه من النقر  
وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكير خاطري على درّة من معضلات المطالب  
خففت ملوك الارض في نيل شهرتي ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب  
وقال آخر :

لا جلساء ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا  
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسوددا  
فان قلت اموات فلم تعدد أمرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرنك والجار الذي لا يستبطنك والصديق الذي لا يقلبك والمستمع الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالكر ولا يخدعك بالنفاق يطبعك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افترت اليه لم يحقره وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم تناجياً في حداثة سنة وقرب ميلاده ورخص ثمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن اثمان العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والام البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم واغلب سلطان النسيان سلطات الذكر» .

وقال فنلون : « لو وصفت تيمان ملوك ابرية كلها عند قدمي بدلاً من كتي لرفضتها » .

وقال كارايل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه وانمته هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الانتقادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعنددي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .  
وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتب ليست جهاداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثمًا لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم » .  
وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة التضيقة عن قوة الشباب » .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما اتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيفاً اغلب به جيوش الازدهاء كتابٌ ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء » .  
وقد شبه بعضهم الكتب بالاساندة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل

من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقتنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والتفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخافه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالمهاكل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المتينة وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصيلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكم من مدينة تهدمت وقلعة دُكَّت وهيكل اصبح ركاباً صر كوما .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئيهـا . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاجياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والتمبي وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء يبقى ذكـرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثرأ نافعاً قد باد ذكـرهم . ان الكتب تتجدد وتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كلما نعدت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب منوورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا اداةً فلا يسألون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالا كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طافحة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس منفقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتسب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه سيفه الصفرحة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل أحر بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صفه ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطأ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتفي الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويهملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم يبق بهم حاجة الى المراجعة او الدرس ولذلك يهملون الكتب ويستحقون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحمي الذي لا يطالع المجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعة وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسعى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرتة بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والنفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس الي ذكاء ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاء من غيري وانما انا رجل مجتهد في انقسان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ما وصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملاأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاءً ممتازاً وحذقاً عظيماً انما هو ثم درسي ونتيجة تعبي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في خاتمة مقساماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم اقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقيت ما تلقيته بجهد المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حداتي أطلع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .  
وينتج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق  
الفريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال  
الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمله المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتروا به . ان الرغبة في الشيء تهون الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شجاعاً طاعناً في السن ومن رغب في اتقان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيء الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوقتاً من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويجزنا ان نقول ان هذه الكتب منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المجنونة التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذيء . والكتب الخرافية التي لا تتضمن غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضيع الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاختيال والمباررة والانتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العافل ان يتعد عنها ولا يسمع بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمها بل يمزقها او يحرقها .

ويا ليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبيعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعيها كما تمنع الدجالين من ممارسة التطيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقق نفاسته وفائدته . ان انفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والاحبايا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

اننا في عصر كثر فيه الكتب المفيدة المزلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . ومما نفيد مطالعته المجلات العلمية كالمكتشف والمجال وغيرهما ومن كان ضليعاً من لغة اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات العصرية . ويحسن بالراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشده الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نعمها قبل ان يقرأها ولا يادر الى قراءة اي كتاب كان لبدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنافع . وما اكثر الذين تخدعهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها ويتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والذوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الازكياء



وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه و يناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيذ الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو تافه عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي يهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا يهضم سوى اللبن والحكيم من اختار لنفسه ولأولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدتهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه واولاده للأمراض القتالة .

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومراقباته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلاء وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا أراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زيارته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً نسي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علمي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله وتنبهت افكاره واغتذت نفسه وأصبح قادراً على القيام بأعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلي او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لا يجوز الانتقاد بنائاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالع علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة أضاع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم أوسع منه علماً واغزر فضلاً تبيحاً بما توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق وبراعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونها ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يجتارده من اوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من اوله الى آخره سطرّاً سطرّاً بالنأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقلصين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لا يفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثاهم الا كمثل من يجبط في الظلماء خبط عشواء فلا يرون السداد ولا يهتدون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لا تتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لا تتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم . فغير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لايسع كل ما يعثر عليه القارئ في اثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعبه بالمطالعة وتعسر عليه النفثيش عما يريد في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة مينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فينبذ بحسن استعمال المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها ويقف على تفسيرها فتمت بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتنع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطار من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خرائطها) و يقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقراها وسهولها وجبالها ووديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العالدية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها وبقائميها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم وغانهم في كل الادوار التاريخية وحيثما يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سوريه او يلقي محاضرة ممتعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كأبي الملاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه وينتبع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم ويقابل بين تلك الاقوال ويحصيها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه وينتبع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالندقيق والتحقيق الى ان يئلى عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال نسروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعناء بالجسد مما تضع به فائدة الدرس فليجذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطأ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقنناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريد من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المفلحين والنوابغ المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كأنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجمل من يستخف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتمرينه وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها وازهارها ولا شيء يهذيها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودرية واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعات ترقى الافكار والشعر يرقق التعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطأ في الدهن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الوردية و بصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوى وتشغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السريرة ممدوح السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من اتفاق دراهمه في غير وجهها و يعلمه قيمة الوقت وطرق الاقتصاد و يبعده عن المذرين اخوان الشياطين .  
قال احداهم : « ان لم يكن اشغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على الاقتصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعي من تبذير دراهمي بما لاخير فيه » .  
(٥) : الابهاج في حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشي يعزي الانسان و يخفف عند الآلام و يعينه على احتمال الاسقام و يسليه في بلائه و يسعده في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة الى زمن الشيخوخة ولاشي يحسبه الشيخ اكبر داع الى الشكر مثل تعوده المطالعة واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابناؤه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار المحصلين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب لوطه و يتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله و أثرت في نفسه وهاجت خاطره و نهبته الى الواجب و دعت الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحققة و ما جهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب و رخص اثمانها و سهولة الحصول عليها و خفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب يقدر اليوم ان يشتري كتاباً يقضي بمطالعتة شهراً بثمن طلبة لفائف للتدخين او بثمان (اوقية شكولات) وهذه نعمة لم يعرفها المنقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان و نادرة كل الندور . قيل ان الملك الفرد بنذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . و بيعت مقالة واحدة بمئتي غنمة و اربعين مد حنطة . و بيعت نسخة من الكتاب المقدس باربعة مئة ليرة انكليزية فليعتبر المستحقون بالكتب و المطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون زجاجة من الراح على لسان العرب و المصباح و لا بدلي في الحتام من ذكر بعض مبادئ عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في اتياع الكتب و المجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقرائتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياضاً فاخراً وتحفاً ونقائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يجيبوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوهم عليها ويساعدوهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهتمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تدمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فيغضوا اليهم الدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليحياها الفوائد العاملة والناجر والموظف والتاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة و يقنلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجودون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاودة العلماء وانشيط الكتاب فليت الباقيين يقنلون بهم فتصبح دمشق زاوية بعلومها كما هي زاوية بمحادثتها .

(٤) : على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمدله يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنندبة اذ هنت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكافلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحققت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي تعدد المكاتب العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تدوير الاذهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وتقليلًا للجرائم واسعاداً للامة .

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين نالوا حظًا صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكاتب العامة وغرف القراءة كما سنجت لهم فرصة ابكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامنتهم احسن خدمة و يعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم واينا أقوم سبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

بني العرب زيدوا علمكم ما اسنطتم  
ولا تهملوا الكتب التي جلّ نفعها  
اكي ترجعوا انجد الاثيل الى العرب  
فافضل ما يعلي مطالعة الكتب

انيس سلوم



## صناعات دمشق القديمة<sup>(١)</sup>

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القبايلة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — الميناء — الفيسفاء — الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب — نقش البهوت والجدران — النسيج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخرى — الختام .

### تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً  
اركان عمران فشيدها وخذ العلوم لئيلها مفاها  
لاخفاء ان اسباب المعاش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة  
وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد  
الامارة وكان ابن خلدون الملقب ( سبئسر العرب ) بمباحثه الفلسفية والعمرانية  
والتاريخية في مقدمة الدين حضوا على اتقان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن  
البلاد مما لا محل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآت لما كان لها من الشأن  
العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها  
ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملاأت  
خزائن متاحفها بذخائرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انتابنا من النكبات والغزوات

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢



والفواجع الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقى الآخر منحطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

### ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينها . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لا تحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليسدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة ( Industria ) اللاتينية ومعناها ( العمل مطلقاً ) ثم خصصت ومنها اخذت اسمائها في لغاتهم . فالصناعة والعلم متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسماً منها ماهي عامة الفوائد كالزراعة والبناء والخيطة والحياكة والنجارة . ومنها ماهي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ماهي ممتنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد نقي نقيصة اذا صحح التقوى وان حاك او حجم

### الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألوهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ابيس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدوها من مواهب الآلهة . ولاسيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من ائينة او مينرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بدیعة وكذلك حکماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتياها بشأن الصناعات وانظمتها . فارثقت في ايامها الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانين ان الاولين اعنوا بالفنون فارثقت في عهدهم . ولكن الرومانين اشغلوا بالحروب مئات قرون كان الارتقاء فيها هم الصناع فلم ينقنوها إلا ان الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها وانتقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولا سيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريون بن الحراثة ونسج القطن والكتان للكينة وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخرفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتخنيط وجرا الاثقال وغيرها .

وعرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصابغة والحجارة الكريمة والثماثيل والنقش على الغضار ( الأجر ) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصنع الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والنجارة .  
والصينيون بالخزف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به .  
والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المثقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض ( زنبلكات ) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصينيين الابرة المغناطيسية وعن العم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة • والحداد هيفست اله النار • ومعادن قبرس الحديدية • والحدادة • وكوب نسطور والخراطة وصنع العاج والبرفير • وصياغة الفضة في صيداء والنجارة وعمل المركبات والصقله والغزل والنسج الفينبقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقله العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور • فن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرتها :

وجدتها بالصرح تنسج ثوبا بجواشي البرفير والارجوان  
ويرأس الحياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفتان  
ومن ابداع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :  
اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانتظارُ والافكارُ  
فالارضُ والسما والجارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ  
وساطع الشمس وثم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً اسمه ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدى وهو :

مجنّ حكي صانعه السما لتقصر عنه طوال الرماح  
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح  
ولو اتسع لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب •

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاوريههم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا بانقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

البيانية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فنشير الى اهمها .  
ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالم ومقرآ لم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل نفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة اهمها رواج سوقها واتقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وتيقة العرى . وانحصر كثير منها في أسر خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم ونقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعيبهم بالموازين ونحو ذلك . منها كتاب ( كشف الدك وايضاح الشك ) لابن شهيد المغربي . و ( ارخاء الستور والكلل في كشف الدكات والحيل ) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان . و ( المختار في كشف الاسرار ) للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .  
وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزائني وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن ( هولنده ) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني<sup>(١)</sup> الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهياً ومقاصداً للخالفين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال الحبي في ( خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤ ) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف ( بسليطان الحرافيش ) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اهـ .

بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الخيرية فبقي له من وظيفته التصديق على نصيب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوما واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . و يتارك شيخ المتساخ النقيب و يدوب عنه . والجاويش ينفذ الاوامر . و آدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ . وشد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية يقال فيها ادعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمع المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترامها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادرات وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فاهم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يصفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم .

### صناعة السيوف

افق ذكر اليمهين بصناعة الثنار والنصال . وكذلك الهنود فليل سيف يمان وحسام هندي و هندواني او مهني . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت وانقنت فليل لسيوفها المشرفية والتامية . ولما اكثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والشوير ومثغرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والثنار الجوهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتخذ للثنار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالثفار والنصال والسهام والحراب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياقلة شديدة الصلابة مرهنة الفرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبضياء فضية اللون متحاذية او منقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالاياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون امرار هذه الصناعة .  
مفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة ثقتهم  
وتجارهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على  
سطحه شبه الغبار او كدب النمل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي  
بروائعه وتموجاته وعدم تطرق الصدا اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية  
الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي او الحنوت . واتخذ  
الدمشقيون لكل نصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من  
كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تخضيره اي احماه بالنار .  
او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجاً بمعدن آخر يسمى التيتان  
او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات  
لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومناة فولاذها .  
وكانت صناعتها مشهورة بزم الرومانين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة  
في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف  
دمشقية بديدة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تنغالي بالسيوف وبقية الاسلحة كالنصال والحرايب والسهام  
والمدى والدروع والخوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري  
لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية  
لنفاستها وروقتها وندرتها .

وقال الجوالقي في المعرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه  
دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفايح بصرى اخلصتها قيونها ومطر دأ من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

( Prisse d'Avennes ) في كتابه الافرنسي ( الفن العربي ) ( L'art Arabe )  
صفحة ٢٨٠ بما مر به :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (اسي  
عصاه المعوج ) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و٩٢١ هـ مصنوعة من الفولاذ الخراساني  
ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اسي  
مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق  
وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي  
على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن  
لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امخ النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . والدبوس  
كانت قبضته موشاة بالمخمل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة  
الدمشقية . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع  
بالذهب بالصناعة الدمشقية . » اه

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك ( الاعرج  
الحديدي ) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ ( ١٤٠٠ م ) فسبي كثيراً من صناعاتها  
والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منقلبة الى بلاد فارس مزهرة  
فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبنائون  
والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخرى ولا سيما الصياغة المشهورين الى سمرقند  
فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في  
مدينة فاس المراكشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسليمانية  
والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف اليمن بجفرها وثقوبها ونقوشها ولكنها لينة الفرار  
تثقل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة  
دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقل والسكاكيني وجوهروبولاد . وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة ( ٥٧٧:٣ و ٧٠٠ )

ويظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقل فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير ( الاولي ) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها . و ( الثانية ) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتلثم ولا تتكل . ولانعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

التي بجانب خصره امضى من الاجل المتاح -  
وكأنما ذر الهباء - عليه انقاس الرياح -

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي .

وجرد من اغماده كل مرهف اذا ما نفضته الكف كاديسيل  
جرى فوق متنيه فرند كأنما نفس فيه القين وهو صقيل

### القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشغل بالمبرد ويعرف عند عامتنا بالبندقجي والقردهجي والقرداحي وصنعتة القيانة المعروفة عندهم بالقرده .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة ( الكشته ) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع ( حوران ) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران ففرقت في مطاوي القرن السادس عشر في



بلاد الشام وتقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشغل ابناءؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القلمون ولهم بقية في دير عطية و ببرود وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المنقنة فنسبت اليه وقيل لها ( العبودية ) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها ( الاجراس العبودية ) وبقي حدادو دير عطية يشغلون البنادق سرّاً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبايين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسيج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة ونفنيات عديدة لا محل لتفصيلها الآن .

### القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامية تقول القاشي اه . وعامتنا اليوم نقول القيشاني .

وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فانقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمينيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنة اصفهان ولاسيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونية وبورصة آثار القاشاني السلجوقية . وبتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بمينا اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة ( الفضائر القاشانية ) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ١٦٥٩ هـ ( ١٢٦٠ م ) .

والقاشاني صنمان صنف بسيط من الحزف المزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه بمركب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلاح لصبغه بالوان شفافة رائمة تأخذ بمجامع الابصار .

ولقد كانت في دمشق معامل كبيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٢ م اذ حفر هناك الطبيب النمسي اورديتيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي تزيل دمشق الآن اخيراً فوحداً معامل له وآثاراً منه .

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القبرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج ، التويبه به ولد نوافذ خروج الدخان عند ابقاد النار للتذويب والتي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بعث منذ ربع قرن او اكثر وكذلك ظيرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسرحيب الآن مشغل - يث الآسية بجوار الكنيسة المرثية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد العني النابلسي الدمسقي المخطوط انه ارخ عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باتسا حياء من قبله رجب آغا القنجي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطالب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ ( ١٦٨١ م ) فظلمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمسي ما يدل على ترك العمال اشتغالهم فجأة وتحويل آنان الشبي بحادث فجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارتفعت منها اعطاف دمشق مراراً في سنة ١٧٥٩ م و ( ١١٧٣ هـ ) فهدمت . آذنها وقوضت كثيراً من ابنتها فترك العمال اعمالهم وطمروا المحل .

ومن اسباب امراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فتقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما ننافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلسبيلات والبازهنجات والقمامة والزهريات والقلل<sup>(١)</sup> واتباهها . ورصفت بصفايحها جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان ينتزعونها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والندمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . فتمتده الاموي بالخرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساحد والحمامات والبيوت آثارا تبينة منه اهمها ما في جامع الشيخ يحيى الدين بن العربي الذي جرده السلطان سليم الناتج العثماني وفي حمام القاشاني المصنوعة حدرانه بالواحه وقد حول الآن الى سوق . وفي الكيين السميية والسليانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكار يوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي سلسبيل جامع الدرويسية المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ ( ١٥٧٢ م ) وفي جامع سنان آغا في المناحية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياها المختلفة الاشكال وبعضها تقيس عليه كتابات ومنها ادوات كالمرايا وغيرها . وكلها بدبعة الالوان والنقوش والطرارز .

ومن قراء وصف الرحالة والمؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكب بالخرائق الكثرية ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كان عليه من الرواء النادر والزخرف النفيس .

( ١ ) الصهاريج الركب والحجرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر بانبوب الاستقاء . والبازهنجات هي انايب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتهووية . والقمام آنية لرس ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزراع الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلل وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقبل المالتي ( Mayolca ) والفاينسي ( Faiences ) واقتبسها منهم الفرنسيون ونفوقوا في معامل مدينة ( روان ) ثم اثنى اثرهم الالماني والانكليزي .

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء .

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة . و بعد ان تجفف يندر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلي به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوي في وطيس ( ثور ) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة للامعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

### الميناء

الميناء كلمة فارسيته ( مينه ) اي جوهر الزجاج وهي ( أكاسيد ) معدنية تصور بمادة زجاجية وتطلي بها الاواني المعدنية والادوات لاطهار رونق نقوشها وجمال رسومها . فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً .

وصناعة الميناء عرفها الطورانيون ونفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر ونيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون . ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اثنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي .

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس منفوقين فيها الى

يومنا حتى يقسال ( ميناء شركسية ) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم .

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين . وقال المؤرخ راي : ان المسيو ( بيو ) وجد سنة ١٨٧٢ م اقتاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها . وعنها وعما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الي بلادهم واقتنوها .

### الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب ( بسيسوس — Psipsos ) او من كلمتين هما ( بسيفي — Psifi ) اي قطع و ( ذوتو — Zoto ) بمعنى مرتبطة . فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلفظ ( الفسفس ) . قال امين بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كأملى تاجها بالفسفس  
فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلاًلاً في اليهم الخندسي  
ومنها كلمة ( الفص ) و ( الفصوص ) للقطع الصغيرة العظيمة ونحوها . وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون ( Azulejo ) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني ( فاينس ) وهي ملونة ومطلية بالرونق ( الفرنيش ) . والخزفيون كانوا يملونها الواحاً مطلية اسمها ( Zelis ) تتخذ تشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود<sup>(١)</sup> ( اه ) .

اما الافرنج فيسمونها موزاييك ( Mosaïque ) نسبة الى ( موزه ) إلهة الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية .

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك ( السقوف الداخلية او الطوانات ) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي ( ١ : ٥٩٨ ) .

البهوت ونحوها بطبقة من الجبص ( الجفصين ) فتؤلف اشكالاً هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاثوريون والبابليون والفينيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها وورصفوا بها جدرانهم وارض قصورهم . واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الأستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبص

ونقلوها الى دمشق ايام اسنقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اتني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل رامون او المشتري بعد نقضه وتحويله الى كنيسة تم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع وسموكة حتى كن آية في الابداع والالتقان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . . . ما ساءها من الحرائق مراراً كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تأنيدي حريق سنة ( ٤٦١ هـ ١٠٦٨ م ) في الجامع فقال : « فأتى الحريق على الجامع فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جنير الكندي الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخطت بها انواع من الاصبغة الغربية قد ملئت أمتجاراً وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص بديع المنعة المعجزة وصف كل واصف بجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً » .

وقال الحافظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قبليه القبة المعروفة ( بقبة النسر ) ليس في دمشق شيء اعلى ولا أبهى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغربية الحسن » .

وانفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثيرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حبالاً .  
فلما جاء وفد ملك الروم ودهس من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعات الروم الى قرطبة لتزين مسجدها وهو من الاتقان بمكان سام . ومنها مخطط ( خارطة ) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسوريه وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكاس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر بپرس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تثل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورقوماً رائعة .

قال المسيو غوستاف لي بون الفرنسي ( Gustave le bon ) في كتابه ( حضارة العرب ) ما معر به محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالزخارف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . ( الاول ) ما كانوا يرضفون به ارض الغرف واسافل الجدران الرخامية والآجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و ( الثاني ) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز الزنطي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اه .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيض عن قطع الفسيفساء باقاشاني المحلي بالمبنا . وبقبت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي ( Reinaud ) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في ( فن الفسيفساء عند العرب ) ضمنها فوائد جديدة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعوض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بنفنن فيها صانعوها .

## الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسبوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نجاسها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او التنزيل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الافرنجي ( Damasquiné ) والاطالي ( Damaschina ) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم والسلمتهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعادن ثم تحشي باسلاك ذهبية او فضية وهذا انحر انواع الترصيع وأجودها .

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحياً اذ يحمي المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بمنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعناء بآلة نحاسية . واما النقش فيتم بمنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فنسبت اليه وقيل لها ( الصناعة الظاهرية ) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليها تاريخ سنة ٧٢٥ هـ ( ١٣٢٤ م ) من هذا النوع البديع مع الاغطية المخزومة المعروفة ( بكسر جفت ) ومع الزجاج الذي يستصعب به وكلها من الصناعات الدمشقية المتقنة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن ( Prisse d'Avennes ) الفرنسي في كتابه ( الفن العربي ) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصفراي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان اسراً خاصة كانت هذه الصناعات منحصرة بها فننقن عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والفسوت والاقداح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية



المتشابكة التي يسميها الافرنج باسم ( الصناعة الدمشقية ) اي ديماسكينه . وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد . . . . . ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة .

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبية وفضية وتنشئة الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتليس » او « التفشية » عند ارباب هذه الصناعات .

ثم قال : ولقد رحلت أسر دمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبندقية . واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية ( Sicili ) . الى ان قال : ان اتخذت تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كانت للننافس بهذه الصناعة الرائعة . . . . . ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازما » انتهى قول دافن .

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايو ( Bayeux ) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة . وعلى قبر السلطان بيبرس الثاني قنديل شعبي اي بروزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكراً له . وفي بعض الجامعات الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش .

وبما ان هذه الصناعة تعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعدينه من مناجم كثيرة حول دمشق . منها مدينة كلشيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » . وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدت قديماً .

وفي دمشق سوق النحاسين المسعي قديماً ( البريص ) التي ربما كانت تحريف ( باراذيسوس ) اي الفردوس . ولعل اسم بوزه منها ايضاً . وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها .

ومما رواه المؤرخون : أن علي بن عريف النحاسين الدمشقي طبخ ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها جرة نار وخرب بها الابواج التي صنعها الصليبون من خشب وحديد مغطاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران . وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزراقين والنفاطين وذلك في خصار عكاء سنة ( ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م ) .

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس . وفي متحفنا الدمسقي امثلة كثيرة منها . ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً .

### نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخرى . ولكن الدمسقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بديعة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة . وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تجر بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزيين الجدران والاشباب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به .

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظمية في البزورية . وغرفة حماة العظمية ايضاً . وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي يبدآل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة ( خركاه ) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لتليثها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال برونقها وروائها الجميل . ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجميته واحدها ما في موقف ( محطة ) السكة الحجازية في آخر شارع جمال  
باشا الى جنوب المرحمة الغربي .

ومما يتعلق بهذه الصناعة التجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها  
مما يدهن وينقش ويخصص بزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كبريون فسبوا اليها  
وقيل لم بنو التجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساب  
الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري  
الذي صنع القاري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة .  
كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح ومن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة .  
وهو من سلالة المنسلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق  
سنة ( ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م ) وحمل معه جواهر ومعادن فلقب بالجوهري وبقي الاسم  
منعاقباً في سلالته كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزانة مجمعنا  
العلمي الدمشقي .

ونتأً بين المسيحيين أسرة بني التجار واصلاها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها  
النفيسة واشتهر منها وهبه التجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم  
الارثوذكس وله اعمال في القواطع ( الايقونسطاسات ) الكنسية منها قاطع  
كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين  
ياخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م .  
ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر  
ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة  
التي أهملت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التفشية بصفائح الجوز  
الخشبية وللمدشقيين فننات بديعة فيه وفي نقوشه .

## النسيج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها و يضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقטיפسة ( المخمل ) والدباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدايق وكلها من المشجر الغريب الهندسة والاشتباك فسماه الايطاليون ( Damasco ) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم ( الدمشقي ) ومنه اسمه الافرنسي ( Damas ) والانكليزي ( Damask ) .

اما كلمة ( ديميا ) للنسيج القطني المعروف فارجح انها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من ( انديما ) بمعنى كساء او ثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة . وارى ان كلمة دمقس ودمقاس ودمقس التي أطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب ( دمسه ) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرثقاليون انها عربية الاصل ( Adereçar ) وهي تقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والدباج في زمن الدولة الاموية وثفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان ( دار الطراز )<sup>(١)</sup> في قصره المعروف بالخضراء<sup>(٢)</sup> لنسيج الحرير

(١) كان ( ديوان الطراز ) و ( صاحب الطراز ) المسماين بزمن الفاطميين ( دار الكسوة ) و ( صاحب الكسوة ) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحديق به ابنة الامويين التي ادخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

المطرز ووشي الثهاب الملكية المذهبة وبقيت دكا كين البزازين الي زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحاسن الرائعة .

ووصف بريس دافن الافرنسي الانف ذكره هذه الصناعة في كتابه ( الفن العربي ) بما ملخصه معرباً فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روائه وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشاً بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الي رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كبير من مؤرحي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العناية اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناية والحريري . وذكروا ان بني الفلاقنسي في دمشق منسوبون الي بلدة فلاقنس من نواحي حمص اذ جاء حدم السيد محمود منها الي محلة القميرية بنسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفده السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واتيتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الحرافشه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الامر الكثرية تنسب الي صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطرارز والعقباد والغزال والغزولي والقطان والحلاج والكبابة والخائك والكتاني والمنير ومسديه والخواص والطوا . وبعضها ينسب الي آلات النسيج مثل النوبلاقي والمكوكجي والمشاطي .

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل التريزي والفرا والفرايه وكركو وكركي والزنانيري والكبراني .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضرا محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصاره واليهما نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش او الطباعة واليهما نسب بنو الطبايع والبصجي .

ومما ضربت به هذه الصناعة سبي نيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وهما إشارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

### الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولاسيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق مانصه : « وفيها توارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » . ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقماري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمريّة .

ومن اشتهر في دمشق من الزجاجيين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النحوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النحوي البعادي نسب اليه لا الى الصناعة فقبل له ( الزجاجي ) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نقر من ( بني الدالي ) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني ( القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج ) في محلة الشاغور .

### البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورنثي . ثم وجد في بزنتيه الشكل البزنطي . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزنطي اشتهروا به فجاءت ابنتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مئمنة الاضلاع ثم مربعها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يحفلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزات الشكل ( المقرنص ) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة . واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والسور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسمائها واما كتبها ومقاديرها لتحفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولوت الصالح في ( رسالة المزة ) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضريبة على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودارالسعادة اه . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزالتق ومغامز ولم في هندسة ابنتهم اشكال كثيرة مختلفة (١) .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اوربة الطراز القوطي مقبباً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون ( محل الجامع الاموي الآن ) بزمن الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمن الرومانيين والكنيسة المريمية بزمن اليونانيين والجامع الاموي ودور الامويين والمدارس والقلعة وبعض القصور بزمن العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنثم المهندس على باب الظاهرية وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار ( رنك ) خاص مثل ( صورة الاسد )

(١) بين المسيو غايه في كتابه ( صناعات الغرب ) اختلاف هذه الاشكال بين

دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

للملك الظاهر بيبرس البندقداري - وزهرة الزنبق بين اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها . والآخر ذهب بندهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاممال .

وكان نحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون بنحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولم سوق تدعى ( سوق النحّارين ) الى عهدنا .

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكتيتين السليمية والسليمانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة . وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باتا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد . والقاعة المنجكية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزنة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد المنجكي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق .

وفي الصالحية ( بسفح جبل قاسيون ) في باب السوق المواجهة للجامع الثابتية محلة ( بين المدارس ) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق وانقاف وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن . وقبة مخصصة بنقوش رائعة . واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات مخصصة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة ( ١٣٩٧ هـ ١٨٠٠ م ) وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة ( في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م ) وحرصنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح وروام الآثار . ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الاز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق . قال الشيخ احمد البديري الحلاق في تاريخه المخطوط ما محصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم . فأرسل خلف المعامرية ( اي البنائين ) الذين عمروا السرايا وكانوا نصاري وكانت معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القجي اي المحصل بتعذيبهم . . . الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين . وفي ذيل القرماني من



مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه اتفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساينه وارزاقه . وبقى العمال يشغلون في دار الحرم سنين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبين الذين استقدموا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين ايام بن الهندسة البنائية . . . . وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لاخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندني وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة ( بخان المعظم ) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضاً قاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع ( الخركاه ) اي المثلثة واصلاها لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الم كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها روم فقد طرازه . وعندنا اسر باسم البناء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الاقنية الحلوة والمالحة الى الطوالع ( اي محل توزيع مياه القنوات ) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات ( خارتات ) لمعرفة توزيعها واصلاحها . واقد ذكر التاج السبكي في كتابه ( معيد النعم ) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً اسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنباطي ( واراها تحريف القنباي ) والشاوي .

## الوراقة وما يتعلق بها

إن صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من أسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها أولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وأنشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت إلى الأندلس وأوربه . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق ويصقلونه بمصاقل من العاج ويقطعونها إذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الأحمر والأسود والصفدي وهو أكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالأصفر الزعفراني . ويبرون الأقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة أهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها بأثقان ويبعونها . فالوراقون هم الكتبة اليوم . ولم بهذه الصناعة أعمال بدعية تدل على حسن ذوق ودقة تفكير . وكثير من أعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية :

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن ( نظم تدبير التفسير في صناعة الكتب أي تجليدها و ( عمدة الكتاب ) في صنعة الحبر والأقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و ( رسالة في صناعة الاحبار ) و ( النجوم الشارقات في عمل الايقات ) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و ( رسالة في الخط وبرهانه ) ( الاقلام ) لابن الصائغ و ( الاقلام القديمة ) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً أي نوعاً من الخط و ( شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب ) في صناعة الخط و ( مقدمة في صناعة الخط ) لابي علي بن مقلة مخرومة الأخر و ( ارجوزة لمحمد بن حسين السنجاري ) في الخط ايضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها ( تنويق النطاق في علم الوراقة ) لابن مسك السخاوي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم ( كرتاداماسينا Carta Damascena ) وانتقلت صناعته إلى شاطبة وبلنسية وطليطلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد في دمشق . وكان اسرى الصليبيين يؤتى بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م . ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وفتنن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالح مؤرخ دمشق في رسالته في ( المزه ) ما نصه « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت تباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراثة كانت حول الجامع الكبير .

ولقد اشتهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المتفنين ووراقيها البارعين ولن تزال اثار الوراثة عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاسنانة ومصر .

ومن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كذب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندى مصحف سبع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني .

ومن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتى نسخة من المقامات الحريرية بدبعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ ( ١٧٣٥ م ) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب ( تذكرة داود البصير ) نسخه ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ١٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

### الصناعات الأخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :  
منها ( السباق والفروسية والمراحة والمسايفة ) = اشتهرت هذه الالاعاب منذالقديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مرطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق ( الزائد ) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة و يحيزون السابق ولا سيما في زمن الخليفة معاوية ابن ابي سنيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وفي الانسان لم يخش حادثاً      وان قيل هجام على الحرب اعوج  
وان بلغ المقدار لم يخج ساجج      ولوانه في كبة الخيل اعوج (٢)  
فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة      فافضل ما نلت اليسير المروج

واشتهروا بترويض الحيول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعيها السراج والعامة نقول السروجي والدكديجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك التمرن بفنون الحرب والمسايفة ( اللعب بالسيف ) والمراحة ( اللعب بالرمح ) والمتاقفة ( لعب الحكم ) . ومما يحضرني من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية المكحلة لانها سلاح مماليك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس  
( خيط السباق ) للجري او للحملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطعم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلو كباشي الجركسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم « اه .

وقال احمد البديري الخلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاعوات والشريجة والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعات العرب بملاعبيهم وحركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحى مثل هذه الثارين والالعب مفصلاً في الجري على الخيل ورعي الشباب من على ظهورها وما اشبه ذلك <sup>(١)</sup> . والواجب من يتولى ركوب الخيل للتسبير والرياضة عند العرب .

ومنها ( عمل الآلات الفلكية ) = مثل المزاويل اى الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبنكوماتها وبقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصفير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير وصاح الغراب وسقطت حصة ثم تجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال ( باب الساعات ) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب حيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان نغر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة ( كتاب علم الساعات والعمل بها ) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها ( صك النقود ) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساکر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطالت الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رملياً بصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الدين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها ( الفناء والموسيقى والضرب على الآلات ) = لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الکتبي في ( فوات الوفيات ) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف ( الكمال ) وضربه على القانون :

لوانت أبصرت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس  
لرأيت مفتاح السرور بكفه - اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البور بني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له ( سالم ) وله عبد اسمه ( سرور ) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنعمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يحلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها ( استنطار العطور ) = وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الريحان والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي<sup>(١)</sup> : طرق استنطارها في قرية ( المزقة ) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر ( الكركات ) والانايبق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستنطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع ( نخبة الدهر ) طبع اوربة صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . وبما قاله عنها : « ويجمل الورد المستخرج بالمرزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر . وبما ارخوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى ( شور الزهر ) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وستائة وهذا لم يسمع بمثله » اهـ .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنوالزهر او الزهوراتي والعطري اما بائع العطور والتجرب بها فيسمى المطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات اخرى كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والديباغة وعمل الادوات والحلويات . الخ مما يملأ مجلدات فاجتزأت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسما أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبراك والحامي والمدرس والمعلم والجرائحي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والديباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل أحرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

### الخاتمة

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيت في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدن الاخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعتها الى بلاد اخرى وسي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الاسر في النكبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكنم اسرارها بين عمال معروفين

غير متجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقائها .  
 فسبحان من يبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة في استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .  
 وارجى ذلك البحث الى محاضرة ثانية في ( صناعات دمشق الحديثة ) ألقيا عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها . ولا سيما الشد الذي هو من اهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى كندر  
 المدرس





# صفحة من تاريخنا الاجتماعي<sup>(١)</sup>



أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم ( صفحة من تاريخنا الاجتماعي ) . وقد أردتُ بقولي ( صفحة ) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين ( ٢٥٠ ) و ( ٣٥٠ ) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

واردت بقولي ( تاريخنا ) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء ، وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي ( الاجتماعي ) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يشور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شخنوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طرز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

---

(١) للاستاذ المغربي الفاهما في ردهة المجمع العلمي في ١٥ كانون الاول

واسم لعلون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي نتألف منها كتب المطالعة ثم تُعطى الأحدث والطلاب فيدرسونها و يستفيدون منها عقلاً وتجربة . وان مكتبتنا العربية لني حاجة الى أمثال هذه الكتب المفترعة في قالب كتب المطالعة الاثرية المعروفة باسم ( Lecture ) .

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شباننا ملين بالتسوون الاجتماعية عند الاوربيين و بغيرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أمنهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الاوربية في عهد ملكها الفلاني في قرنها الرابع عشر متلا -- كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم العائلية او المعاشية كذا . بينما هم اذا سئلوا عن الخانة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السُلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأسرة الفلانية . وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت .

وايس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لاساننا وطلاب مدارسنا كالايجني . وقد يستنى من كتب التاريخ عندنا ما كبه ان حلدون في مقدمته . والمقرزي في خططه . والقلقسندي في كتابه ( صبح الاعشى ) . وعبد اللطيف البغدادي فيما وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما يدرينا أن يكون لعالمنا السالفين اشباه هذه المصنفات الممتعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادها التعصبات الدينية . والحروب الطائفية . وما بقي منها انقل الى مكاتب اوروبا . وخزائن سلاتها المستشرقين .

وقد اتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدّة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعاتنا العربية الحديثة من المصنفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبتون تلك المصنفات من مكاتبها و يطبعونها و يعلقون عليها نبروحا وهوامس ممتعة جداً . وقد حاب جمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أذكر منها عجائب الهند للراهمزي و رنتوار اعاضرة للقاضي ابي نلي الحسن النوحى و طوق الحمامة لان حزم والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق و كتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي

ولأنهم سوا (مقامة ابي الفاهم البغدادي ) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نحذف لجة اليوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحيمهم الله تركوا لنا تروية عظيمة من المؤلف في كل من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحماد . أضعنا التروية . وقصرنا في حفظ التركة .

قلت ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي تكن لا تحسبوا أبي سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علم الاجتماع . ولا سيك نظريات الدقيقة التي كتبت الحصاد حولها بين أفلاطون وأرسطو وشيتمرون في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسنسر ونيتشه وشوبنهاور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كما اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضع المحاضرات العامة . وإنما سأتحطى تلك المواعيد والنظريات العقلية الى وقائع وجريبات تاريخية جديدة لم تتدافها الافواه بعد : يلمذ بها محب التاريخ - وكلم ايها السادة نجون التاريخ - فقارنون بينها وبين ما يقع من اتبهاها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكاتب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العائبة من حيث يرون فيها مادة لتقالاتهم . ومودحات اجترعية ستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم . هذه الاخبار والحوادث التي أروها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معناها الذي كان يفهمه علم الادب . عندنا . معتر العرب : محاضرات الراغب الاصفهاني . وحسن المحاضرة للسيوطي . وتوار المحاضرة للقاضي ابن علي المحسن النوحى - لم تسم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة نفيد القارئ . وتلد السامعين . وهانا في محاضرتي هذه أخذوا حذوه . واسلك طريقته .

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب ( توار المحاضرة ) للقاضي النوحى المذكور مع تصرف قليل أو كبير حسب ما يستدعيه المقام . طالت المقدمة فلنجتزئ بما مر . ولتقبل على الموضوع فقول :

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها ( محل بيدكر ) عند الأوربيين . وقد قلدتم فيها كتاب العرب وسموها ( دليلاً ) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان ( احمد بن الطيب ) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة ( ٢٨٦ ) هـ . وكذلك ( يزيد جرد الكسروي ) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه ( بغداد ) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة ( ٣٢٠ ) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاحين وما ينتق فيها من الخنطة والتعير وسائر الاقوات .

ومما ذكره على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من التلاطين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من نقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون ( مروريه ) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقد روا ما يأكله أهل بغداد من صنف الحس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليره من نقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو ( ٨٤٠٠ ) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطر نحو ( ٣٣٦ ) قنطاراً من الحمص السويق .

والسويق دقيق الخنطة والشعير ولكن بعد تحميصها على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفّاً او يمدحه ( يخلطه ) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : « السويق » عدة المسافر وطعام المجالان وبلغة المريض .

ويظهر ان اهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمصون الحمص ويطحنونه و يأكلون طحينه سفّاً أو بصورة أخرى .

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الخنطة والشعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع اهل بغداد : فاننا نحمص الحمص ونسميه ( قضامة ) ثم نطحن

القضامة حتى تصبح ناعمة ونزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى .  
 وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجهما  
 والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ  
 في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنيت يومئذ حدثاً صغير السن  
 فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجرى يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقتدر  
 ونقصان دخله عن خرجه بسبب كثرة إسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً  
 وافياً ( على أصول البودجه ) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم  
 صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو  
 مكنتوني من إدارة ضياعها وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق  
 ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلموني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملا كنا سوى  
 شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمارتها كلها ؟ اه .

هذا ما قاله الوزير وهو مختبئ خائف من الخليفة . وباليته يحيى اليوم فيرى بعينه  
 كيف 'تستثمر الدنيا وتستعمر' . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها  
 بحسب طريقتة الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم و'بقيوم الزين والمورجانان' لاسيما يوم النيروز .  
 واصل النيروز عيد للفرس قادم العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا  
 'يهدون فيه للخليفة النفائس والطرف كما يهدي بعضهم الى بعض . ويتعلون  
 النيران . ويضعون على شرفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن  
 ( اي جوزة ) فيسربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطيبة الفاخرة . ويشعلون  
 هذه الحبات فنفوح رائحتها . وثلاً في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقتدر الى  
 عميلها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقة زهرية  
 خفاف جداً . وبعد طويل عناء في البحث عنها جلبت . فاستدعت الخياطين  
 الى القصر وأمرت ان يفصلوا من هذه الشقة أزراراً على هيئة حبات القطن

ويحشونها خرقاً ويخيطونها ويُشربونها دهن اللسان و يشعلونها مكان حبات القطن  
ومجامر الطين .

ومن جملة لهوهم في موسم النيروز اتخاذهم أعباً بطول الصياف يزينونها بالحلي  
وفاخر الثياب . و يسمى المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس و يصنعونها من سكر .  
و يسمون في بغداد هذه اللعبة ( دوبرا كه ) وهي كلمة فارسية . واطن انها مركبة  
من ( دوبرا ) حيلة مكر . و ( كه ) من كَيْمَك وهو اللبس اي حيلة مستترة  
مغطاة بالثياب . و يُخرجون ( الدوبرا كه ) وأمامها متاعل النيران والطبول  
والزمرور . ومن اللطائف ان ( عائدة بنت محمد الجهنمية ) نظمت أبياتاً هجت بها الوزير  
أبا جعفر الكرخي فشبته بالدوبرا كه تم صره وجمال ثيابه فقالت :

( ساورني الكرخي لما أتى النيروز . والسن يذ ضاحك )  
( فقال ما نهدى لسلطاننا من خير ما الكف له الكه )  
( قلت له : كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه )  
( أهد له نفسك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوبرا كه )

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد ينادقون في الثياب و يقننون فاخر  
اللباس والرياش والاثاث و يسمون ذلك مروءة .

و بالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب  
الثياب في صندوق : درار يع الذهباج في صندوق والدرار يع البيقية (١) كذلك  
والقمص والسراويلات والجباب والطيالس والعائم - كل ضرب في صندوق خاص .  
وكانت للانباري سرية تزوجها فإتد له . وكان له أبناء عم فلما مرض وأتشف على  
الموت أسرعت فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته .  
لكنها نسبت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها وحاء اناء عمه ففتحوا  
خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها ( أفرغ من فؤاد أم  
موسى ) ولم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي ( ابي جعفر  
البهلول ) فأحضر الجارية ( وافتحت الجانسه ) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى دبيق قرية في مصر .

عمنا بالاثاث والرياش واللبوس فأين ذهبت كلأها ؟ ولما ذا لم يوجد من ثيابه الالهذه السراويلات الكثيرة ؟ ولما ذا لم يوجد على نسبتها من الدراريح والجباب والطيالس ؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محتدة كأنها أعدت الجواب وقالت : ( أعز الله مولانا القاضي ! أما سمعت ما حكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواو بن فجمع منها مائتي هاون . وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله ) فضحك القاضي وانفض المجلس من غير شيء . وكسبت الجارية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

اما الوزير ( علي بن عيسى ) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والنقشف وكان يجب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص ديبقي فاخر . فأراد الوزير ان يحججه فقال له : ( يا مولانا بكم اشتريت شقة هذا القميص ) قال بمائتي دينار . فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة هذه الدراعة والقميص الذي تحتمها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور : الوزير أعزاه الله يُجمل الثياب ولا يحتاج الى التأنيق فيها . اما نحن فتجمل بثيابنا . ونأنيق فيها . والفرق بيننا اننا نحالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهبة لنا في نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه يترك التأنيق بالثياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجمل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجي لألعب بقرب جدي القاضي ( ابي جعفر ابن البهلول ) فيصبح علي . والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقراً علي . وسني اذ ذاك نحو عشر سنين . وبقى على تلك الجلسة الى ان انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمعتم وقار هذا القاضي ( ابي جعفر ابن البهلول ) فاسمعوا امتانته في الحق : دعت السيد قام المقدر يوماً اليها . وكلفه احضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فابى عليها وقال : هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

ديوان الحكم : فإما مكنتموني من خزنه والا فاعزلوني وغيروا وبدلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لا يشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقنذر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضل ان يُعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقنذر ( مثلك يا ابا جعفر من يُقدّم القضاء . أقم على ما انت عليه . بارك الله فيك . ولا تخف ان يثلم ذلك عرضك عندنا ) ثم عادت السيدة فتذمّرت امام ابنها من القاضي فقال لها : ( الاحكام مالا طريق الى اللعاب به . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دين مستجاب الدعوة . ولو كان ما طلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه ) فكنت على مضض لكنها عادت فحدثت به رئيس كتّابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها ( الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم <sup>(١)</sup> .

وبقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . ويعقدون المجالس في المساجد لنصرتهم وتأييده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الخاير لندب الحسين فكان الحنابلة يثورون ويمنعون الناس عن المضي الى الخاير .

وكان قوم يعتصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشحاذين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذلك في طرف . ويتسوّان ويتوسلان باسم الصحابين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصب لكل واحد منهما فريقه . وتتساقط عليها الدراهم . وفي المساء يجتمعان ويقاسمان غلة يومها وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمرء وكانوا يشنعون على القضاة اكثر ما يروون من الاساطير . كما يشنعون على الدين يصدقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقنذر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من نفي الصك وحكمه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكفت وارعوت .



بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل . ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا ما يؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعيبون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها ( المعونات ) : فإما لانهم يدخلون عليها باسم ( الكرامة ) او لان كلمة ( الكرامة ) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يفخرون بان فرقتهم لا تعول على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : ( إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن ) وتباهوا بمجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلمه الى امه ثم ينصرف الى لهوه . وكانت أمه تقوم طول الليل لتشهد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانظرها للناس فلم تفعل . ثم اعياه الامر فعمد الى الحيلة وقتش في البيت عما يساعده على حيلته . فالتحف بازار ابيض وأوقد بجمرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهما العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جادة ففطنت للحيلة فتظاهرت بالخوف وسأله من انت ؟ قال : ملك وقد جئت انتقم من ابنتك لعصيانه . فتضرعت اليه أن يرفق بوحيدها . فقال لا بد من تأديبه : فانا اكنفي بأخذ دراهمه . ليتوب قالت : لك ذلك وأنحنت له . عن الباب حتى اذا دخل الحجرة او صدت بابها عليه فاستغاث بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لا ترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع . وقد نعى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المنجمين ويمارس التنجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد<sup>(١)</sup> قضاتهم أخذ طالع مولده فعين سنة وفاته ويومها . وتنبأ للموت فنة ص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعمهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعنقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد النوخى والد القاضي ابي علي الحسن النوخى مؤلف

كتاب ( نشوار المحاضرة ) الذي لخصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنونون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يوازرهم باغداق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وطلب الجمل على أهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمى الجمل ( احتياطاً ) وبعضهم يسميه ( اصلاحاً ) وكانوا يتواصون به . و يحذر بعضهم بعضاً من الاتفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قايلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم يفتحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان نرتبطه ليتعلم لحودة قر يخته <sup>(١)</sup> وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاحريا عليه مئة <sup>(٢)</sup> درهم في الشهر . فبقي يأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكنا الى بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يحسنون رواتبهم الى ان خرجوا الى الكسبية اذ قد قوس الرد . ففكرت فمن اقتصد ثم اجتزت في طريق بدار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر . وسر من اهل الخير نشاطه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسأني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين ثمنها معي في الحال . ففقرتها على الطلبة . قال ثم بقايت الاحوال . وشحنت النفوس بالاموال . حتى حالي رحل من اهل البيوتات فتسكا من حاجته ما أبكاني . وقال ان صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . ففكرت فما عرفت احداً يعطينها اذا سأله اياها . قال ولعل السبب في ذلك التبع كلب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يملكه سكان ( درب موزويه ) مبلغ اربعة آلاف <sup>(٣)</sup> الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا ( ابو العريان )

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدرار الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريق ما حكاه أسير مسلم عن

(١) يعني انه كان نايغة في الطلاب لكنه فقير ومثله يجب الاتفاق عليه لئلا ينفذ بنبوغه (٢) نحو خمسين ربالاً مجيدياً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حمأنا الى بلاد الروم مرت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نلثف . ثم دخلنا قرية فجاأنا راهب با كسية وقطف ( حرامات ) نقيلة دفيئة فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تجار بغداد اسمه ( ان رزق الله ) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان يفتح من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعنى بالاسارى كما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو تصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كما فعلنا الرد تذكرنا ( ان رزق الله ) واحسانه ودعونا له ونحن لانعرفه .

لا حرم ان هذا الناجر المسلم والكاهن المسيحي كانا متالين حسنين لابناء ماتيهما في عمل البر والتسامح وحسن النفاهم .

وحدث القساخي ابن مكرم قال : دخلت على الوزير ( علي بن عيسى ) فرأيت مغموماً . قلت : مالك ؟ نالك ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشد : كتب عامل النفور اليما يقول : ان أسراننا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولى مملكة الروم سابع طائفة فاضطدهم وأجاعهم وأعراهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقذهم فإ يطاء عني الخليفة المقتدر .

فقلت : أطلع الله الوزير هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولهما نافذ عليه بحيث يجرمانه ويخلأنه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهما والبطريرك كن في عهدنا . بلادنا . فعرفها الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سررت عن قلبي قليلاً جزيت حيرا . ثم افرقنا وبعد شهرين طابني فجئته وقد سبب خرا الاسارى . فوحدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبرك رأي . وهذا رسوانا عاد من القسطنطينية . وأسار الى رحل في المجلس ثم أمره أن يتحدثنا بما وقع : فقال احدث رسالة البطريرك كين الى ملك الروم وقد كتبها له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكفَّ عن الظلم والا لعناك  
 وجرمناك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبي اياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر  
 الاسارى كذبٌ . وها هم أدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال  
 فدخلتُ فاذا عليهم ثيابٌ جدد لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن  
 للملك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على  
 العكس . وانني إنما أخرت عن الاجتماع بهم ليرفخوا من حالهم . وسألوني من أين  
 علمتم خبرنا؟ فذكرتُ لهم ما كان من اهتمام الوزير ( علي بن عيسى ) فضجوا بالدعاء له .  
 وقالت امرأة كانت بين الاسارى ( إمض يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا  
 الفضل ) فلما سمع الوزير قول الرسول أجشش بالبكا . وسجد لله شكراً .

\* \* \*

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم  
 كانوا يتمرّضون للاخطار بسببها . حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله .  
 وعدّوه لاسخراجها منه . ولم يصرف أحد هذه الحالة مثل ما وصفها به ( ابو الحسين  
 ابن عياش ) مذحكي عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسليمان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصدته  
 يوم الموكب . واذا ببابه عطاء المملكة محبوبون . فلما رأي حاجبه ادخلني على الوزير  
 وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقدر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ  
 وشد سيفه ومنطقة وتجر والي عليه سواده<sup>(١)</sup> وخرج وانا معه . فتأقاه الناس بالتجمل  
 وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبي من طيلسافي .  
 فالتفت اليه . فاشار علي ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفى بيتك خمسون  
 الف دينار؟ قلت لا والله . قال : أنتوى على خمسين الف مفرعة وصفعة؟ قلت  
 لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى باب العطاء أمثال فلان وفلان محبوبون يتمنون  
 الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نكب نكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي و يكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد

وعنهم اخذه العثمانيون .

بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تفدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مقرعة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يابني لاتعاود . فان هذا يجر عليك نقا . قال فمن يومئذ جعلت أتجنب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة . ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضيعون فرص الاستفادة وجر المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر السافعي كان من أخصاء ( علي بن عيسى ) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من اللنكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقدم رقايع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويفض عن كثرتها . الى أن قدم اليه يوماً رقايعاً كثيرة جداً أضجرت الوزير وظهر الضجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له ( ايها الوزير ! اذا كان حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصنم . وحظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى ياترى يكون النفع ؟ ) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه مها كثرت الرقايع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أحلص في خدمته . ومساءدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي ( عبيد الله ابن سليمان ) فمازحته يوماً قائلاً : خبي لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي اعني اذهب اليه . قلت كلاً لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كانت يوم الاحتمال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام اليّ وعانقني أمام جمهور المحفلين وقال في أذني : هذا وقت ننتفع فيه بقياسي لك . ثم أجلسني على طرف الدست<sup>(١)</sup> فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبت ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت اليّ عيون الناس وخاطبوني بأجل خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ بيدي الى دار الخلوة . وقال : ويحك يا فلان !

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كوتب<sup>(١)</sup> بخبر قيامي لك في مجلس الوزارة وقال لي :  
 تبذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر !! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا  
 بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا « فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايتي مع  
 الرجل مذ استترت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت له كيت وكيت . فقال  
 اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرف . ومع هذا  
 فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى اغراضهم من طريق الشتمات .  
 وأخذ كتب التوصيات . ولكن كان بعض المتهورين لا ياتي ترويض كلب على اسنان  
 الوزراء لاجل نبل الأمانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات عمدة :  
 منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عياف . قال : رأيت صديقاً من حالنا على  
 زورق مربوط بحجاب حسر بعداد على نهر المدخل في يوم ريح سديدة . وهو يكتب  
 فقلت له ويحك !! أي مثل هذا الموضع ! ومثل هذا الوقت ! فقال أريد ان أزوّر  
 كتاباً على رجل مرتعس الأيدي . ويدي لا تساعدني . فعمدت الخلوس ههنا لتفترق  
 الزورق بالموج في هذه الريح فيحي حطلي مرتعسا يشد حطه .

ومع هذا التدليس والرياء الذي كان يقع في تقليد الوظائف كان الوزراء  
 وكبار القضاة يتدرون في انقاذ العمال وبيدلون الوسع في البحث عنهم : فكانت  
 القضاة منلا لا يتقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم استخافوا من كين أنفسهم .  
 ويعلنون أنه من أراد ان يعتقد عقدا من عقود المبايعات وسائر المعاملات فعليه ان  
 يشهد احد هؤلاء : ائلا يشهد غيره فلا يكون مركزى عدلاً . وتسمى هذه الطائفة  
 المعينة للشهادة بالشهود والعدول . ولكن ما أشد عناية قضاة ذلك الزمان بانتخاب هؤلاء  
 العدول .

قال ابو القاسم الخاتمي : قيل القاضي ابو عمر سهادتي وأعلن انني من العدول .  
 ثم بعد ذلك حلوت به مره . نجسا . ذكر الملاهي . فقلت : ان فلانا يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس يتقنون اليه الاخبار حتى

حبره شاسة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا تهزأ بنا! هو ذا نخس<sup>(١)</sup> علينا! ما هذا الكلام! قلت ما الخبر  
أبتدأه القاضي! قال : نقول ( يضرب الرباب ) كأنك لا تعلم ان الرباب يُجر  
جرّاً ولا يُضرب ضرباً ( يعني انك تنظاها أمامي بورعك وانك لا تسمع الملاهي ) .  
فحلفت له بأيمان مغاظة أني ما رأيت الرباب قط . فقال : ان هذا آفة وسبيل  
الصالح ان يعلم طرق الفساد ليجنبها على بصيرة لا على جهل<sup>(٢)</sup> . قال فعدت الى داري  
وقلت اساس دابتي : وياك! اطلب لي رباباً : فجاء به فجره بين يدي . فاذا هو كما  
قال مولانا القاضي . يجر جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

الى هذا الحد بلغ نظرهم في الامور . وودعتهم في ادارة الاعمال . فالمحتسب<sup>(٣)</sup>  
منلا كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتم حد الاهتمام بايفاء وظيفته .  
ولما تولى ( ابو القاسم الجبهي ) الحسبة في البصرة قال المسنون من أهلها انهم  
ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . ونفخ البفساع  
والامتعة . وتد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد .  
وهيبة في قلوب العامة . ومما انفق له ان اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه  
أعوانه . وكان هناك مؤذن يؤذّن . فتصارع الناس الجبهي الجبهي !! فتطاع  
المؤذن فراه فقال : ( الحمد لله الذي لم يجعل لك علي طريقاً ولا بيننا معاملة ) .  
وأقبل على أذانه . اكن الجبهي كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه الى الدار ( دائرة  
الحسبة ) فنحج المسكين ونحج حيرانه . وذهبوا معه الى الدار . وقالوا للجبهي : أمرت  
باحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه! فلم يرد عليهم . والنفت الى  
المؤذن وقال : ( أريد أن تخاف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

(١) النخس التاميس والحداع . (٢) على حد قول الشاعر :

( عرفت الشر لا انا - شر اكن لتوقيه )

( ومن لم يعرف الحق - ير من الشر يقع فيه )

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعني ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور  
البايعات والمكاييل والموازن والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية  
والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكنيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا نطلع الى الجيران من فوق المنارة» .  
فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فزال  
الجهني به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقاً ؟  
وان بيننا معاملة ؟ فقال : أخطأتُ أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود  
الكلام فيها لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرّة . والثروة معرّة .

نكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدد في ضبط العامة نجد من وزراء  
ذلك العهد وكبرائه كرمًا وسخاءً وتواضعًا وحياءً : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق  
الوزير ( حامد بن العباس ) وشكت اليه الفقر ودفعت اليه قصة ( اي استدعاء ) فوقع  
لها فيها بمأتي دينار . ولما ذهبت الى ( الجهيد ) <sup>(١)</sup> انكر المبلغ واستكثره (لانه قريب من  
مئة ليرة وهي ترضى باقل من ذلك ) وراجع الجهيد الوزير . فقال الوزير هو ما ذكرت .  
لكنني لما اردت ان اوقع لها بمأتي درهم جرى قلبي بمأتي دينار . ولن أرجع . فأعطها  
الدينانير . فأعطها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . بقول فيها : اني وامرأتي  
فقيران . ومنذ ايام جاءني امرأتي بمأتي دينار نقول ان الوزير حفظه الله وهبها اياها .  
واخذت من يومئذ تستطيل عليّ وتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح  
لها بعلا وكفنتي طلاقها إذ لم يعد بطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .  
فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي يأمره بحجب زوجتي وزجرها والتصع لها بطاعني  
فعل . فضحك الوزير ثم وقع له بمأتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنياً مثلها فلم  
يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دينانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .  
( المغربي )

—•••••—

(١) كلمة فارسية كانوا يريدون منها ما تريده نحن اليوم بكلمة الصراف



## مصانع الشام (١)

« منذ عرف التاريخ »

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترک والتر والجرکس ، وأعجب الفاتحون بخيراته ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحلم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لايسغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقه وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول — ببحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والمناور والمراسد والقصور والجسور والسكرور والاقنية والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجي وما شاكلها . نتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى اليها من كتابات العرب والافرنج . ولا نستنتج الا حيث يصح الاستنتاج ، وندعم القول بنصوص العلماء من اهل

(١) أُلقيت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الاخصاء في العاديات والبناء ، ونقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى .

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفًا مهزغًا . ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم . وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينم عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة .

ولقد انشأ الحثيون قاعة لهم على الفرات في كركيش ( جرابلس ) بقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق . م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباسًا رديئًا لا تخلو من جفاء وسذاجة .

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقاليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر اقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمنًا على فلسطين . وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق . م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يُصَب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على اربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبهم على امرهم عباداتهم من غير تكبر .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرأ طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائه ابناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والحشب فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق . م وكان فخر أورشليم واجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . والهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل . وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالحشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صح ان يعدّ خلاصة علم الفينيقيين باصناعات والفنون النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبني حسراً هائلًا على الدانوب ( الطونة ) . هذا مع انه لم يستمر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنايتهم بالريج والكسب وارتياح القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاثوريين والمصريين . ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب الدارية التي اقامها الفينيقيون في سواطي يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يحلف من آثار مدينته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما نبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء . ولم ينبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفساحيين كسراغون وبخنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امرء ، وقد بنى الاسكندرز بين البر والجزيرة فيها سده الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا اعجب واغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه بضرب المثل بمحصانها وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والاخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدتين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحديق بها من الجانب الاخر جدار معقود بالجنب . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وحمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكما تقرّبنا تقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأُسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في حمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدنيتهم ، فكانوا اساندة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفر ياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدينة يعتدّ بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المعبّد للضيف « السلامك » ودائرة الحرّيم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق

الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية .  
ونقل في فلسطين وشمالى غربى بلاد العرب القبور التي يرد عهداها الى الزمن الذي  
يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها  
مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن والاثريون  
يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدينة اقدم امة نزلت  
الارض المقدسة .

\*\*\*

واقامت عدة انصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر  
وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك  
الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادريانوس انطونينوس بوس العاهل » ووجد مع  
كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس  
انطونينوس اغسطس فاهر الارمن والبرتهين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في  
سهوة الحضر من جبل حوران وأخرى في التهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك  
فيلبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمه للملك  
كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية ذكره جلب الماء الى المدينة  
وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة  
تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر  
كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساويروس برتينكس اغسطس  
اقام هذا النصب بومبابوس اينجيوس نذراً للمشتري .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان  
يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة  
التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثرأ مغلداً متلداً نفاخر به . فالطرق  
الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا  
الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش — وادي موسى والطريق المبلط  
شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالرصيف هي من الآثار المعجمة كالمسكر

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قتوات وشهبة وسالة. ودامية العليا ولبن .  
 عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل  
 الجليلة والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن  
 والمسلات وقد رأى فيها دوماً فسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية  
 والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالي القرن السادس ق م  
 وارثقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد .  
 ومن اجمل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر  
 وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم النحوت في الصخر قطره  
 ١١٧ قدمًا وفيه ٣٣ صفًا من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين وكان  
 الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من  
 ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة  
 عشر صفًا من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفًا من المجالس وهو يسع اربعة آلاف  
 ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتامسج .  
 وبرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ ابنتها الى امبراطرة القرنين  
 الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .  
 وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها المائلة  
 للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدم وملاعبها وهياكلها وساحاتها  
 وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .  
 وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة  
 مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ،  
 وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة  
 نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير  
 فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ،  
 وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم  
 ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك

المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكانما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اه» .

وذكر بعض الاثر بين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الآلهة قال المعري :

وقد كانت ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند

وآخيس الجن اني قد امرتهم بينون تدمر بالصفايح والعمد

وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقية

صور كانت هناك فمر بها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة

فنظر الى الصورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني

قيامكما على غير الحشايا

فكم قد مر من عدد الليالي

وانكما على مر الليالي

وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اندمر صورتاكها بقلبي

افكر فيكما فيطير نومي

غرام ليس يشبهه غرام

اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من اتجيب اي شيء  
 امُلكتنا قيام الدهر طبعاً  
 كأنهما معاً قرنان قاما  
 يمر الدهر يوماً بعد يوم  
 ومكثتُها يزيدُها جمالاً  
 وما تعدوها بكتاب دهر  
 اقامها فقد طال القيام  
 فذلك ليس يملكه الانام  
 ألجها لدى قاض خصام  
 ويمضي عامه يتسلوه عام  
 جمال الدر زينه النظام  
 سجيته اصطلام واخترام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة  
 بعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان  
 في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث  
 البادية و بعد ان فتحت الزباء او زينب او زنوبيا سلطنة تدمر المشهورة القطر المصري  
 عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من  
 الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها وبعثرا بنيتها وقوض  
 هبا كلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تكن بالامس الى ان جاء  
 بوستنيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخربة وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً ثم  
 سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد  
 على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من  
 التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء  
 الرومان اغراب كما قال الثعالبى في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش  
 والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم  
 لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت  
 وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازي فيركب  
 صورة في صورة وصورة في صورة . او كما وصف الارجاني شبذير وعلى مثل هذه  
 التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور  
 ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه  
 شباب وشمط يمرحون وشيب  
 قيان تغني وسطه وشُروب



وصرعى وقتلى في قتال عساكر  
فمن جانب اصبحت تصب مدامة  
خليطات هذا للقراع معبس  
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم  
وكل يماني شغله غير انه  
ملاعب فيها الملك رام بطرفه  
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم  
فلولا مكان الدين قل لفقدهم  
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة  
وخيل للرائي ليذكر عهدهم  
خيال لهم يهدى الى كل امة

\*\*\*

وان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح  
او البهو الكبير المائلة الى اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى  
في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما  
٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها  
٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ  
قطر الواحد منها ٧ اقدام وتلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض  
الحجارة المبنى منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ نالوا وكانت هياكل بعلبك تظاهي  
هياكل اليونان بعظمة بنائها واكسها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من  
كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارس اجنحته وفيه  
اربع قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ودّ وسواع ويفوث ويعوق وبمقطع الحجارة  
حجر رابع للثلاثة التي بالقاعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من  
هنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقاعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبل —

وبالحصن أيضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم . وان آثار بعلبك بما فيها من العمدة الضخمة ومنها من النوع المعروف بالحبيب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم تنته تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة المسخرين المدتعبدين وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان .

و يمدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في امرام مصر انها صبرت على عمر الازمان بل على ممرها صبر الزمان ، فانك اذا تجررتها وجدت الازهان الشريفة قد استهاكت فيها والعقول العافية قد افرغت عليها بمجهودها والانفس النيرة قد افاضت نليها اشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالم وتنطق عن علومهم واذهانهم وترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في برايي مصر : فالحكاية عن عظمها وانقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر . ومن اجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فننة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشمس نفويف در	وعقيق على رداء نزار
وشملت من الليالي بشاما	ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندي رشاش دموع	شربتها ظوامي الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولي	واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن	صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقنذار
صنعوا من جماده تماً يجي	سنى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق  
 وشموساً مضيئة وشعاعاً  
 وطيوراً ذواهباً آيسات  
 في جنان معلقة زواه  
 وأسوداً يخشى التحفز منها  
 عابسات الوجوه غير غضاب  
 في عرائنها دخان مثار  
 تلك آياتهم وما برحت في  
 ضمها كلها بديع نظام  
 في مقام للحسن يعبد بعد ال  
 منهي ما يجاد رسماً وابهي  
 لم نفتها نضارة الازهار  
 باهرات لكنها من حجار  
 خالجات الغدو والابكار  
 بصنوف النجوم والانوار  
 ويروع السكوت كالنزار  
 باديات الانياب غير ضواري  
 وبالماظها سيول شرار  
 كل آت روائع الزوار  
 دقّ حق كأنها في انتشار  
 بعقل فيه والعقل بعد الباري  
 ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أم آثارها انطاكية التي بناها انطيفنوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق ٠ م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيبتها سيف ادوار مختلفة لكانت اليوم من أم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور التمثيل يبكي لبلد النفقت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمتها التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزائن حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله . ومن أم ما في شمالي سورية ملعب أفامية ( قلعة المضيق ) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها برياكسيس المهندس الاثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض يده على قيثاره وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوائط وكانت مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورترميلاً وربعم ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ربض كبير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران ونيق البنيان وقلعة للاحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء والاساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح وركام الانقاض وبهوت الاقدمين وقوس نصر اقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة ( فوروم ) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول او معبد المشتري وجونون ومينرفا ( ربة الحكمة والفنون والحرب ) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحيض عامة وخاصة واما كن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبهوت للتعريق وفاعات للرياضة والمخادنة ومماش للنزه وافران واقواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القناة الكرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القاعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذيبان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيزا وناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتماثيل كبيرة مبعثرة وفي البترون حصن منيع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحمور ومن اجمل حماماتهم حمام شبة الذي يذكر بخرائبه الضخمة كما قال ري بجامات كراكالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

\* \* \*

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دابواها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السذاجة واجنئاب كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المحمول بالحجارة الضخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام . وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران . قال جلابرت : ومن المصانع المتنوعة في الهندسة السورية شيبان يلفتان الطر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بأراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضاً والحق يقال

الف في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس العاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالمهاكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولاكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار لتوالي سنة بعد سنة حتى لو جمعت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالصة من آثار او آثار حجة وبجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقبستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة اُبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يمتثل على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مباينة للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

\* \* \*

عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعليك ولدت و باب جيرون قال والروم نقول : ما من بناء بالحجارة ابهي من كنيسة الرها ( اورفة ) ولا من بناء بالخشب ابهي من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهي من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهي من كنيسة حمص . وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وفي

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات و بساتين ومناظر حسنة تخرت منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطراييلها اي صوامعها وكانت في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزج - بيت بني طولاً - فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبه كما ملت الى ناحية كانت يمنتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص واكثر فرشته بالبلاط الملون وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقراب المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شي لا عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه بيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ان الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحة بين اجزائها واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان

بالحجر النخيت وبني الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب  
بجرائها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناء الكنائس الرومانية .  
ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير  
في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس  
عندهم افضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير امرأ عجيبًا تُمبِت الافكار  
وتستوقف الابصار ومراها عجيب . وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين  
سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة  
يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار  
جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في  
القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن  
مهم وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها .

\*\*\*

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويتجرون مع اهلها  
ويقنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش  
والبتراء والغسانيون واليهم نسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان  
ابن المنذر في السويداء وفي حارب . وبني جننة اول ملوكها جلق والقرية وعدة  
مصانع وبني ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبني ثعلبة بن عمرو عقة  
وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبني جبلة بن الحارث من ملوكهم  
القناطر واذرح والقسطل وبني الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء -- الحفير في  
البلقاء ومصنعه بين دعبان وقصر ابير . وبني المنذر بن الحرث صربا ورزقا قريبا من  
الغدير وبني جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمنبة وبني  
الايهم بن الحارث الاديار دير ضخم ودير النبوة وسعف وبني عمرو بن الحارث قصر  
الغضا وصفاة العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب  
عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها  
وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضا . وحكم النوخيون شمالي



سورية قبل ان يجيشها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للفجاجم والنوخين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري : ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزيبا : آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون بينائم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الفسافس . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صبر بريتنا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من ملك يوستنيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاناد يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعنى اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بياراتاً للغرباء في القدس

قال هوار : « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت نقص احاديث عجيبة مما رأت فأثريت النفوس تلك القصص وكانت منها ان انشؤا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغربية وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعليك » . على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الخضراء هندسة مهمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشاء ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقفاً بين كل سقف عشرون ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقوفين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانها تمثال اسد من شبه كأعظم ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

تقديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السور يون عن عرب الحيرة واليمن فان المم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من يشيد المدن امثال اليابين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ على ذلك القطر العجيب بعاديته وخيراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختراروا باديء بدء ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تحملوا عن دورهم ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنين بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري ووانلة بن اسفح وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الا مكاتب دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجمل حية في دمشق وقد اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا : ما احسن ما بناها للمصافير وفي رواية اما اعلاه فللعصافير واما اسفله فللنار فهدمها وبنها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعمين الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختر من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .  
 وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنهادار عمر بن عبدالعزيز  
 مكان المدرسة السيمساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن  
 عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان  
 ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان  
 لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر  
 كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن  
 عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون  
 جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تنكح في البنائيات والعمائر لزيادة  
 رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في  
 البنائيات وانتقال المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على  
 دين ملوكهم .

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء  
 عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى الجزءين وافردهم وقال لا تسألوا واخدم  
 كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد يهدم المساجد  
 والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها  
 المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .  
 كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصنائع والرسوم  
 التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يهرج جامعي بيت  
 المقدس ودمشق استقدم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة  
 العربية بالاعتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهرى في مبادئ البناء  
 وقد استخدم العرب باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوم في البلاد  
 التي افتتحوها فكانت أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام  
 وقبطياً في مصر .

قال سنيوبوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بيد انه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاسانذة الاقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البندائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستمدادهم الفني اه . وقال هوار : كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها وافتننوا فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي .

ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط المتلوية قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابيك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبها للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زبرت على الاجمار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والاقالم .

\*\*\*

ومن اهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصي وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة بأشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي الفسيفساء والذهب نال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان تقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعةً او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات اقبية واراوين وفساقي ومسكن للقسس .

رأى من ثمن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفضة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى نامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقته مقرنص بالذهب والسلاسل المعالقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنق في خراج الشام سنين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعةً حسنة قد

أقن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وببعض بلد الرها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله إحدى عجائب الدنيا .

ومما رواه صاحب مطالع البدور ان اليونان لم يزالوا يعمرن دمشق وبنون فيها وفي معالماتها من حوران وغيرها البنايات الغربية العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلثمائة سنة فنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وبنى لهم هذا الملك التي نسب اليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثنتي عشرة الف كنيسة . وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو انشأ مسجداً جامعها ونقل الناس اليها من لدن وكنت المدينة التي يزهاها الناس فاخذ يهدم منازلهم بدمشق والبنين بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انقلوا وخرب لدن .

دخل المؤمن مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكرم فازدادوا عجباً فقال المؤمن لها : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فانا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المؤمن : ما أعجبني هذا . فقال يحيى بن اكرم الذي اعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المؤمن : كلا بل اعجبني انه بنى على غير مثال شوهد .

ومع ان تلك الانارات الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب سوره الاول . وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها الهائلة البنين وقال انها مستديرة كالكرة وظهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب مننظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطر . مقنطرة لا ننقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسجانات من ألم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستيانس وبنى موضعها المسجد الاقصى وندوق في تميقة واكمل البناء سنة ٧٢ وقلوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروي ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنيق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

\*\*\*

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار محصنة حيطانها وسقوفها وفيها ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم ادخلت داراً اخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذا ووصائفها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من الخبز وقد تضحخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقبله بين يديه فنفوح رائحته وفي المجلس جار يتان لم ير مثلها قط . والله اعلم ا كان ذلك حقيقة ام خيالاً .

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاتحين لبلغ السور يون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الام الاخرى فرداً عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تسم عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبمهمتهم . قلنا ولو لم يُعَفَّ بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامو بين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة وازيتونة والجاية وحوارةين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأباير سيفي البلقاء وشمالي سورية وشرقها وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخرى بوا ايضاً قصور الامو بين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصر من ارض الاحص لعمرو بن عبد العزيز لانهم احتراموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورمت فاطلق عليها اسمها الاصيلي ونسبت الى بانيتها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يبيتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام ( الحصون ) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا ( يعني العباسيين ) بناء مدن الشامات ( قد تسمى الشام بالشامات ) اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنفاً يعتد به في الشام لنحكم على عظمتهم



وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المنغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امرايضاً ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في معمر مقرر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ امواله .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر رخارويه وفيه قنل والشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر يقنوت واجرى الفوارة التي في جيرون . وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان شمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية ( ٥٨٤ ) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمة ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت اليها تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابنتى ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كانت رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقيل لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدهنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عنده احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صر اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة فصفا على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء وجعلت الفلق كما ثققت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صوراه . قلنا وبني احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمروها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بني القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب واحكام عجيب بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بني الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق دركاه<sup>(١)</sup> يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والفض المذهب الى سقف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيها على الميدان الاخضر وغربيها على شاطيء واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية بناغي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة

(١) الدرگاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر تجاري القني والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفوارة تشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والحركاه والبيمارستان والحانقاه وكثيراً غيرهما ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سمي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلجانية قامت على انقاض ذلك القصر . و ابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزاوية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماؤه بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المالك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . وعن بلغنا خبره علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وطاقحوتاً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصللي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبهز الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركه لتميز ناظره ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابه الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم به الطباء الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، اخجلت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادر كد الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان وادبها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينها بسور له باب .

والما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمعرة وبعبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كانت منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القميري في صالحية دمشق وهندسة مدرسة الصهبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم شمرعنباً فحصل لكل طاق . من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً امامها فيمدُّ الساكن فيها يده ويحنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومباني فخمة وحسنة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فخرت المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخرّبوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلّمها نقي الدين عمر حصن قاعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والفرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

\*\*\*

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرّمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا  
ان كنت لا تسطيع ان تُمثل القر - دوس فانظرها تكن ممثلا  
واذا عنان الاحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا  
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل  
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذنّباً او مجدلاً او موثلاً  
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزّعاً ومنفصلاً

ومن قصور - اب في القرن الثالث دار واليهازكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوقا من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنه القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكِر : ان اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء . احرقها المصريون نا حاصروا دمشق . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة احسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي من اقتراحات تميم الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما احده من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها الشيء ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثه على قضية اخترعها وبنية اقترحها وصفة آثرها نجاءت في نهاية الحسن والطيبة والتقويم والاعتدال . من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والابوية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لمحص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفسائقة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيبض عنه مكاناً آخر مثل طرابلس في سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسم اذرع وفي مواضع عتسراذرع . وقال ابن فضل الله في بعابك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والحوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جلييلة . وكانت منبج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كآقري مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشراف خليل ٦٨٩ -- ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ابيك الخزنه دار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً وانشأ للماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة واقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس — قاله النويري .

في بر الشام، كثير من القلاع من ببناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بني حسان ابن مسمار الكبي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل . مقدم العرب عزالدين نجر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عاينها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يرد الى ابعد من هذا القرن والمعم من ابنيها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من ببناء تاج الدولة نثش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار امارة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الأ . وبين نغرب القصر في بعض فتن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبه الزرقاء في قلعة دمشق فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع وانثي فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد تامت قيامة حربيها حتى قلنا أذفت الأزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : ( ليس لها من دون الله كاشفة ) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار الذير وغازات بجواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميتها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نارها الحمالاً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسمار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم نثم اعينهم عن الاوتار فاعيد رواسيها التي كالجبال الشاسخة بمن اسس المحجوج واحصنها قلعة بالسما ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة  
ابن منقذ فراها وقد تهدمت ونغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :

احذر من الدنيا ولا      نغر بالامر القصير  
وانظر الى آثار من      صرعتنا منا بغرور  
عمروا وشادوا ما ترا      من المنازل والقصور  
وتحولوا من بعد سكنها      الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس  
نغربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة فد غرّم عليها اموالاً  
عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف وصح فيه قول القائل الحجر  
المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة  
المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على  
مثال قلعة دمشق . وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار  
مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف  
تيرون وهونين وتبينين و كوكب وعجلون وقاقون والصيبية والصلت والهارونية وبيت  
لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون  
وبغراس ودر بساك ودر كوتس واسفوننا وبسرفوت و بلاطس وحصن الاكرا دوشيزر  
والمنيطرة والشغز و بكاس وارسوف وبيت جبرين وحبزون وارتاج والاتارب وبارين  
وبارة واعزاز و صرفند وعدلون و برج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات  
وحلبا و عرقه وبرزيه و خناصره و قسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات  
والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة  
الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة  
وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميميس . ومعظمها نناطح السحاب  
بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب :  
ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمامة عمامة ،



وانملة ، اذا اخضيتها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نقرط بالنجوم ، ونقرط بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا وصله الى النجوم ، تحال الشمس اذا علت انها تنتقل في ابراجه ، و بطن من سها الى اليها انها ذبالة في سراجيه ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمى متبرجات بوجهه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وثقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تحفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المهاجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لاتعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

وبدا منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يبتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بيانه الا باربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بين انوف الجبال الثم وقد جعلت سقيته بالكس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوتق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يجربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها اثلا يعود اعداؤهم فيستولوا نايها و يتقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنين القديم و يعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امتلأ كتيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر المهاد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحاه على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فسوها وجوه الاماكن ومحووا سنا الحماسن » و بظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاء مرصعة وبالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوها اعلامها .

وذكروا ان سيبيي كافل الشام في الدولة الجر كسية لما اراد بناء جامعه في باب الجابية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قائمتها . وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليصطاب الفقراء الى جانب الاغنياء ردار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل المحصرات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع ( على الليطاني ) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائتين في قنة جبل تاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناء المأمون فدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

\*\*\*

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت لهم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في المواني البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين في سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعته من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طراباس صبغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع المواني البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق ام الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشعبت ابنتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي . ومن هذه المدن ما اثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو بق مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طراباس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنتها وهندستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظاً منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البنائيات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكالين . وان البنائيات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاستالين وكثيراً ما كانت تأتير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد خاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

وتجلبت الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا ويافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها نامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

\* \* \*

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القنيّ وسدّ البثوق وتنضيد المساكن ولولم يدروا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي بهرنا اليوم مع علمنا بقلّة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائل الفنن . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكياو بين مثلاً عنايتهم بالنقاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاؤنا منهم سلسلة طويلة واعلمنا من اسباب فننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندرى ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاغت في جملة ما ضاع في الفنن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء هوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُّبُط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأُمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والاخر صيفي وهو الادنى وللدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقان للتهوية ولها فناء دارداخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالبا . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كانت الرخام بها اقل وانما هو احسن انواعا قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها وتسلطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه . قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير اما كن بيوتهم فقد كانوا اصطلمحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال المجتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطراف تلتقى منازل الاشراف  
ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي  
والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب  
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى  
نحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي  
الاولى وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في  
المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف  
لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تنزل باقية الى هذا العهد ( القرن الحادي عشر )  
وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة  
على المدينة بها تنعت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً :  
ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا  
في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيان السلمانية والسلنية والجامعان السنانية  
والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها  
المدرستان البديعتان مدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنيم الاثري  
ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع  
الكثيرة مثل جامع الاطروش والطنون بغا والطواني ومناراتها المختلفة الهندسة  
— وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت  
بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات  
والدور والسلسبيلات . وفي هذا المستشفى اثار يز و نقوش من اجمل ما نقش النقاشون  
تزينه فتجمله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها  
العسكري والديني والمدني وكما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان  
يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اه . ومن اجمل آثار  
الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب  
ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالى بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحمة من ضواحي حلب وبنائه في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يهر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع بينائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبله على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الاعظم قطع الجبال المستملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما صلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة ( نصباً ) من حجر كبير على صورة الكلب وقبده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عمراً مرة فاقام سنين فاخذ السيل ثم عمّر ولم يبق الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الاحنية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقيل ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الظاهر برفوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برقوق جسراً      بأمر والانام له مطيعه  
مجاز في الحقيقة للبرايا      وأمر بالمرور على الشريعة  
وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً  
يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين  
و يؤمن من حرقه .

\* \* \*

من القاعات في دمشق وحب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر  
والحادى عشر والثاني عشر ومنها تعرف كيف كانت هندسة القوم فنهى القاعة  
المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة انشأها الامير محمد بن عنجك الذي عمر العمارات  
الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في  
الوادي الاخضر (١٠١١)؛ منها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة  
١٠٠٢ بقريه قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال  
المحبي لم يرسم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام  
من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسحرة . وفي سنة ١٠٣٤  
بني الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد النوحى سرايا عظيمة في قرية عبيه  
في الشحار من الغرب في لبنان وبقى مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان  
البنائون من اسلامبول . وامر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١  
بعمارة قاعة معظمه داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على اسلوب عجيب  
 ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يحب  
البذخ والرفاهية وتنظيم اصطبلاته وبيطراته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر  
في بيت الدين قصرآ ملوكياً وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال  
بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب  
نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي  
الف درهم وكانت جميع اهل البلاد نحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة



بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بايماز من والي = يدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاقمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة الف درهم ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرنق في صالحيّة دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المنل وهي على الاربع في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير المنصور الشهابي اميروادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب منقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليها الرخام من بلادهما قال المحبي : ولعمري انها ابداعاً ونوعاً واجاداً في صنعها .

وذكر المورخون ان الامير نجر الدين المعني جاب مهندسين من الغرب ولعلمهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لا عمرك يادير بجبر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحيد و اخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر وبني جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الحرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باتا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه و بساينه عدا من سخرم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اما كن عديدة لا تشبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحون ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والفوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم. ودار اسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً. ومن اجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجل آثار ذلك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن. وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبنائون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممزج بالطرز الايطالي. ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الملايلة قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا. فان هذه القصور مثال من نعين اعيان ذلك الزمان في تفجيد بيوتهم وحسن هندستها. وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصححت في القرون الاخيرة سورية عربية وانبت اذا شاهدت ما شادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجيايرة وينقشون نقش الصياغ.

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطق مع روح البلاد ومعطلمها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرها. وبعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها ومن اهم ابنية الشام المحدثه دير الكزانوفنا في الناصرة ودير الالمان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والميآتم والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القونلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني ويسرع البلي الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منها على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها ننبو عنه العين والزخرف في داخلها قال المجتري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير

مشرفات على دمشق وقداع - رض منها يباض تلك القصور

ومع ان المقالع قرية من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخسون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص . واجمل الحجر الحجر الرمي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لآؤه قد اطف الحديدي في تجزيعه ، وانفن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى الامقاعد كالرياض لها من يباض الترخيم رقائق ، كالأشجار لها من التبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوه احتاجت الى الترميم بطاريء طرا عليها .

قلت في الشام قصور افراد الناس من التمار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفتنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جهاتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تعجل في الدار والفرش والدابة واللباس فيتظاهرون بالقر ليتنجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل سويء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذلك الغني المحروم . والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زهاء ثلاثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها ابنه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة انفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل يفخر به اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفيت واستحل هدمها او تغيير معالمها من لا يحافون الله ولا عباده وجماعات ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبعلبك والقدس والمعرة ومنج بدأوا في القرن السادس وانتهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عني اثرها جهلاً وغباوة . اجناز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شياث ظاهر معرفة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به . موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شياث فراعي به زجل الاحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

انلقها شلت يمينك حلها لمعتبر او زائر او مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مر بنا من العبران الشام لا يحفظ بآثاره وبنيها الا يوم نلتأ فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد قاحنطت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احباب الآتار وغلاة الهندسة من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصبح التام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف وانغم بهوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي

# فهارس كتاب المحاضرات

«الجزء الاول»

## الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

	صفحة
	الفاتحة .
للشيخ عبد القادر المغربي	معلقة طرفة بن العبد ١
للسيد محمد كرد علي	الحسبة في الاسلام ١٧
للككتور مرشد خاطر	الوبالة ( الملاريا ) وكيفية الوقاية منها ٢٥
للسيد محمد كرد علي	الجباية في الشام ٣٨
للسيد نارف النكدي	القضاء في الاسلام ٧٤
للسيد انيس سلوم	العلم ١١٢
للشيخ سعيد مراد الغزي	الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة ١٣٠
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها ١٤٠
للشيخ عبد القادر المغربي	أحيحة بن الجراح ١٦٧
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	كيف تحقق الآثار التاريخ ١٧٨
للسيد انيس سلوم	العمل بالعلم ٢٠٠
للسيد فارس الحوري	ارتباط البلاد على اصول الاتحاد ٢٢١
للشيخ عبد القادر المغربي	طرفة أدب من آداب العرب ٢٣٧
للسيد انيس سلوم	الكتب والمطالعة ٢٥٩
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	صناعات دمشق القديمة ٢٨٠
للشيخ عبد القادر المغربي	صفحة من تاريخنا الاجتماعي ٣١٣
للسيد محمد كرد علي	مصانع الشام منذ عرف التاريخ ٣٢٩

## ❦ الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين ❦

انيس سلوم	صفحة ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩
سعيد مراد الغزي	= ١٣٠
عبد القادر المغربي	= ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ و ٣١٣
عارف النكدي	= ٧٤
عيسى اسكندر المعلوف	= ١٤٠ و ١٧٨ و ٢٨٠
فارس الخوري	= ٢٢١
محمد كرد علي	= ١٧ و ٣٨ و ٣٢٩
مرشد خاطر	= ٢٥

## ❦ الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات ❦

اثرية فنية	( ١٧٨ و ٣٢٩ )
اجتماعية	( ٣١٣ )
ادبية علمية	( ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩ )
ادارية	( ٢٢١ )
اقتصادية	( ٣٨ )
تاريخية	( ١٤٠ )
تاريخية ادبية	( ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ )
حقوقية	( ١٣٠ )
صحية طبية	( ٢٥ )
صناعية	( ٢٨٠ و ٣٢٩ )
قضائية	( ٧٤ )
مدنية	( ١٧ )
هندسية	( ٣٢٩ )

\* اصلاح أم الخطأ المطبعي \*

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٨	التجرد	المتجرد
١٠	٢١	لا ينفذ	لا ينفذ
١١	١٠	أخمل	أخمل
١١	١٩	العمد	المعمد
١٣	١٢	فعم	م
٣٠	٢٤	غارة وجه الحجر	غاب وجه الحجر
٧٨	١٥	صيتي	صيفي
٧٩	١	واليمين على ادعى	من ادعى
٨٢	١	واجتهاد	واجتهاده
٨٣	٨	والمذاهب	المذاهب
٨٣	٨	رضيها	رضيتها
٨٤ السطر (٢) من الحاشية <sup>(١)</sup> يرشح			يرجع
٩٣	١٧	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة
٩٥	آخر سطر	ملخم	ملخم
١٠٠	١٤	او الحق الالهي	الحق الالهي
١٠٢	آخر سطر	بين امر المنازعين	بين المنازعين
١٠٣	٢٢	ضرب الاول	ضرب للاول
١٠٥	٧	في	نفي
١٠٦	١٦	لا يكون مداراً	لا يكون الاقرار بالاكراه مداراً
١٠٦	٢٤	واوجبوا في	واوجبوا التبرئة في
١٠٨	٥	يجنس	يجبس
١٠٨	٢٤	يقام له الحد	يقام الحد
١١٣	١	جميع	جمع

صفحة	سطر	خطأ	ضواب
١١٥	٢١	منا	مناب
١١٦	١٤	يمكن	مكائن
١١٦	١٥	ممن	من
١٢٤	٢٢	والحديد من	والحديد اقل من
١٢٦	٢٣	عليهم	عليهم
١٢٨	٢	ونشيط	وننشيط
١٢٨	٢٣	يراسلون	يرسلون
١٨١	قبل الاخير بسطر	بيروسيوس	بروشيوس
١٨٢	١	ما علامة الآثار	ما علاقة الآثار
١٩٩	٨	شؤونها	شؤوننا
٢٠٢	٤	حيلة	حلية
٢٠٥	٢٢	يكون	يكونوا
٢٠٦	١٩	الفر يقين	الغربين
٢٥٢	١٠	لاخافن	لاخالفن
٢٥٩	١	حين الدهر	حين من الدهر
٢٦٤	١٢	بجميع	بجميع
٢٦٩	١٩	مثلا	وما مثلاً
٢٧٢	١٢	المزلفة	المؤلفة
٢٧٤	١٨	بعضهم	بعضها
٢٧٧	٨	عند	عنه
٢٧٨	٢٢	وهنت	وهبت
٢٩١	١١	ابن العربي	ابن عربي
٣١٨	٩	قصره	لقصره

هذا عدا حروف ونقط ساقطة او زائدة مما لا يخفى امره عن اللبيب .



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)